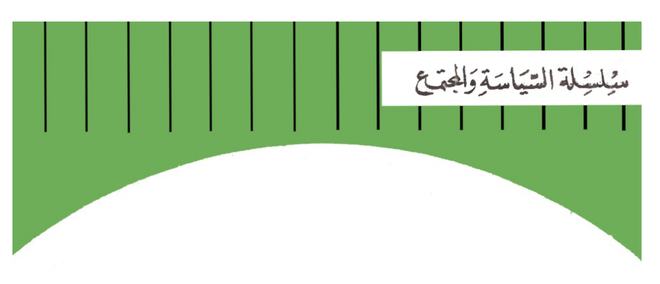


الامبريالية والثورة

تأليف:
دافيد هورويتز

ترجمة:
خليل سليم

دار الطليعة - بيروت

المكتبة التقدمية

الامبريالية والثورة

دافيد هورويتز

الامبريالية والثورة

ترجمة :
خليل سليم

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

IMPERIALISM AND REVOLUTION
London 1969
BY
David Horowitz

الطبعة الاولى
حزيران (يونيو) ١٩٧٣

«ان انتصار الامبريالية يؤدي الى تحلـل
الحضارة تحللا مؤقتا خلال اية حرب حديثة
او تحللا كاملا اذا كان لحقبة الحروب العالمية
التي بدأت لتوها ان تستمر وتبلغ نتيجتها
النهائية   ولذا فاننا الان نواجه خيارا هو
اما انتصار الامبريالية ودمار كل حضارة
واما انتصار الاشتراكية ...»

روزا لوكسمبورغ ، ١٩١٥

القِسمُ الأَول

الماركسية البلشفية

- ١ -

المقدمة

«ان ضغط البروليتاريا المتنامي ، وعلى الاخص انتصاراتها في بلدان منفردة، تقوي مقاومة المستغِلين وتجبرهم على الدخول في اشكال جديدة من التعاضد الدولي ... وتنظم على نطاق عالمي الاستغلال المنهجي لكل شعوب الارض ، وتوجه اول جهودها نحو القضاء فورا على الحركات الثورية للبروليتاريا في كل الاقطار. وكل هذا يؤدي لا محالة الى اقتران الحروب الاهلية داخل الدول المنفردة بحروب ثورية تخوضها معا الاقطار البروليتارية دفاعا عن نفسها والشعوب المضطهَدة ضد ربقة السيطرة الامبريالية» . برنامج الحزب البلشفي عام ١٩١٩ .

بعد مرور نصف قرن على الثورة الروسية وأكثر من عقدين على بداية الحرب الباردة ، يبدو التاريخ المعاصر أكثر فأكثر على هيئة المفهوم الكلاسيكي الذي تبناه البلاشفة الاوائل : حقبة انتفاضات ثورية وتدخلات مضادة للثورة ، حروب أهلية داخل الدول وحروب دولية طبقية بين الدول ، صراع شامل بين القوى الامبريالية القديمة والانظمة الثورية الجديدة . لا شك في ان البلاشفة الاوائل ما كانوا ليروا في هذه القوى الامبريالية وتلك الانظمة الثورية الصور الكلاسيكية لمفاهيمهم . وأكثر من ذلك ، ما كان البلاشفة ليتوقعوا طول أمد هذا الصراع ، وبقاء النظام الامبريالي العالمي هذه الفترة الطويلة من الزمن بعد انعطاف عام ١٩١٧ . ولكن ، ورغم ذلك ، فان الطابع الجوهري للصراعات الراهنة يتفق مع المنظور البلشفي الاصيل أكثر مما يتفق مع أي منظور عداه . ومن هنا ، ليس من الغرابة في شيء ان تظل اللينينية كلمة السر الثورية في العالم كله .

لم يكن للسياسة الدولية في فترة ما بعد الحرب مثل هذا الطابع « البلشفي » الاكيد دائما . فقد كان المسرح السياسي الدولي يبدو الى عهد قريب محكوما بأهداف ومقاصد معسكرات قوى قومية والمجموعات الحاكمة لهذه المعسكرات ، بينما ظلت الطبقات والمصالح الطبقية تبدو وكأنها تلعب دورا ثانويا في الصدامات والصراعات الحقيقية . ولكن مع انحسار موجة الحرب الباردة في اوروبا ـ الانفراج

الجزئي في العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة، تفتت الوحدة الحديدية للمعسكر الشيوعي ـ أصبح من الصعب باطراد الحفاظ على وجهة النظر هذه .

ان التدخلات حديثة العهد في كوبا وسانتو دومينيفو وحروب العصابات في فنزويلا وغواتيمالا والكونغو وفيتنام الجنوبية لا يمكن اعتبارها مجرد ظواهر مصاحبة للتنافس بين الدول القومية القارية الكبرى . وعلى الرغم من أن المصالح القومية ومصالح الدول لعبت وستظل تلعب دورا ذا اهمية متغيرة أو حتى حاسمة في هذه الصراعات ، الا أن هذه الاخيرة تحمل جميعا علائم صدامات فجرتها عوامل محلية مهما كانت التعديلات التي يدخلها عليها الصدام بين القوى العظمى التي تسيطر على الاطار الدولي لعصرنا الراهن . ذلك انه يتضح باطراد ان هذه التناحرات الثورية والحروب التي تنجم عنها انما تنبثق من التربة المحلية التي تتجذر فيها . وبهذا التطور بدات الحرب الباردة تدخل ما يمكن ان يسمى بحقبة موثوقيتها : لقد بدات الحرب الدولية الطبقية كما أدركها المفهوم البلشفي تخرج الى حيز الوجود .

بالطبع لا يتعلق الامر بالمفهوم البلشفي ببساطة . فقد تغير العالم خلال خمسين سنة تغيرا أعمق من ان يفهم عبر مفاهيم ماض « بعيد » لم تتغير . كذلك فان خلق منظور اكثر كفاية لا يعني فحسب « تحديث » التحليل البلشفي . ذلك ان العبء الذي القاه نصف قرن من التاريخ على عاتق البلشفية يتضمن اكثر من مجرد تقادم بعض مفاهيمها وبعض حدسها . فالبلشفية اذ صنعت الثورة في روسيا ، انما تتحمل مسؤولية نتائج هذه الثورة ، وهي اذ شكلت دليلا لاكثر من استيلاء لاحق على السلطة ، انما تتحمل مسؤولية كيفية استخدام هذه السلطة . ان عليها ان تتحمل مسؤولية انظمة الدولة التي ساعدت على قيامها . بعد خمسين عاما على انتصار الثورة البلشفية ، يتعين على منظور كاف ان يحلل عالما لم تعد فيه الثورة تتحدى الامبريالية في الظلال ، بل اصبحت تحتل فيه مركز الحلبة وتتعايش مع القوى الامبريالية وتواجهها كجزء من وضع راهن دولي يقوم على علاقات بين دول قومية .

ان تقييم نجاحات ونقاط فشل النظرة البلشفية والبرنامج البلشفي ليس بحد ذاته مهمة سهلة . ولا شك ان صعوبة هذه المهمة تزداد بفعل الصور المزيفة والخاطئة للبلشفية التي استحضرتها أيديولوجيات السلطة ، تلك الايديولوجيات التي تضع لنفسها مهمة طمس الماضي والحاضر فتخدم بذلك الوضع الراهن .

لقد كانت البلشفية الماركسية ، على عكس صورتها المنعكسة على مرآة الغرب المعادي او المرآة السوفيتية الراهنة المشوهة ، منظورا تحليليا خارقا مرنا جدا . فمثلا ، بينما يؤخذ على « الماركسية » انها لم تتوقع انتصار الثورة الاشتراكية في الاقطار المتخلفة كروسيا القيصرية ، فان الماركسيين البلاشفة لم تراودهم هذه الامكانية فحسب ، بل انهم كذلك اعدوا انفسهم بنشاط لتحقيق استيلاء اشتراكي بدائي على السلطة كهذا .

وبالمثل ، كثيرا ما يشار الى ان العلاقة الحميمة بين الثورات الاشتراكية والثورات القومية ، تلك العلاقة التي تشكل احد الملامح الاساسية للفترة التاريخية

الراهنة ، لا مكان لها في النظرية الماركسية ، وانها تقع خارج اطار هذه النظرية وأن الرواد الاوائل لم يتوقعوا مثل هذه العلاقة اطلاقا . ومع ذلك فقد كان البلاشفة ، وعلى راسهم لينين ، مهتمين أشد الاهتمام بالعلاقة بين الثورة القومية والثورة الاجتماعية في الاقطار المتخلفة المضطهدة ، وكانوا أول من فهم هذه العلاقة (١) . هكذا ، شجب لينين في وصيته الاخيرة ، الشوفينية الروسية الكبرى التي أبداها ستالين وديرجنسكي (٢) ، وعبر عن مخاوفه من أن تتخلل جهاز الدولة المركزي . وقال لينين ان شوفينية كهذه ستلحق أبلغ الضرر «لا بنا وحدنا ، بل وبالامميةكلها، وبمئات الملايين من شعوب آسيا التي لا بد ان تتقدم على مسرح التاريخ في المستقبل القريب مقتفية خطانا » .

لقد سبر الماركسيون البلاشفة غور القرن التاسع عشر نافذين تحت قشرة « السلام »و « التقدم » التي كانت تطفو على سطحه ، فرأوا ، على عكس خصومهم الليبراليين ، أن الراسمالية نظام توسعي ضار أساسا . ولذا فان الحريق الذي أشعلته اوروبا المتمدنة على امتداد العالم في عام ١٩١٤ لم يؤد بهم الى التشوش . فبينما تملكت هستيريا الحرب الاحزاب الاخرى (٣) فدعمت المذبحة العامة الشاملة باسم « السلام » و « الشرف » و « الديمقراطية » و « الدفاع عن ارض الوطن » ، كان للبلاشفة من الامانة والثبات ما جعلهم يشجبون الصراع ويعرون أساسه القائم على صدام الامبرياليات المتنافسة (ان ذلك لم يكن يعني ، كما سعى الكثير من النقاد اللاحقين الى القول ضمنا ، أن البلاشفة ظنوا أن أساس الحرب يمكن ان يختزل الى حسابات ربح وخسارة عقلانية . فقد كانت الشوفينية القومية ، هذا اذا لم نذكر سوى عامل «لاعقلاني» واحد ، بالنسبة لهم جزءا لا يتجزأ من الانظمة الامبريالية (٤) وواحدا من العوامل التي تقف خلف الصدام) .

وفي روسيا ذاتها ، برهن البلاشفة على انهم الحزب الوحيد الذي استطاع ان يقيم الوضع تقييما صحيحا ، وعلى الاخص القوة النسبية للقوى الاجتماعية الداخلية والمزاج الثوري والارادة الثورية للجماهير الروسية المستغلة استغلالا

---

١ ـ كان موقف لينين الايجابي من حق تقرير المصير القومي احد النقاط الاساسية في صدامه النظري مع روزا لوكسمبورغ . وقد جمع بعض اهم كتاباته عن الموضوع في كتيب «مسائل السياسة القومية والاممية البروليتارية» الصادر في موسكو (متوفر باللغة العربية) . انظر كذلك كتاب كار «الثورة البلشفية ١٩١٧-١٩٢٣». المجلد الاول، القسم الثالث ، وكذلك الملاحظة ب (العقيدة البلشفية في تقرير المصير) ، وأيضا المجلد الثالث من المصدر ذاته ، الفصل ٢٦ (الثورة في آسيا) . لمراجعة اراء روزا لوكسمبورغ في المسألة القومية ، انظر نيتل ، روزا لوكسمبورغ ، المجلد الثاني ، الملحق رقم ٢ .

٢ ـ من السخرية ان يكون الاول جورجيا والثاني بولنديا .

٣ ـ بما فيها الاحزاب العمالية الماركسية الاورثوذكسية .

٤ ـ سنعود الى ذلك عما قريب .

وحشيا والنازفة دما بفعل الحرب . والاهم من ذلك انهم برهنوا على أنهم الحزب الوحيد الذي يملك التصميم الكافي للتعبير عن هذه الارادة وفرضها فيما يتعلق بمسائل الارض والسلام فائقة الاهمية . وبفضل هذه الفضائل أساسا ، وكذلك نتيجة المعيتهم التاكتيكية ، استولى البلاشفة خلال عام ١٩١٧ على السلطة ، معلنين ان انتصارهم ليس الا بداية حقبة ثورة عالمية . وفي الحال كشف البلاشفة النقاب عن معاهدات الضم والالحاق السرية بين القوى الامبريالية المتحاربة ، ونادوا بسلام ديمقراطي (لا ضم ولا الحاق ولا تعويضات ، بل حق تقرير المصير للشعوب المضطهدة) وحرضوا اوروبا التي أثخنتها الحرب بالجراح ضد حكامها وضد نظامهم المسرف أيما اسراف بالحياة الانسانية والكنوز الانسانية لاهداف بالغة الدناءة .

نشأت الكراهية التي أثارتها ألثورة البلشفية المنتصرة في الدول الراسمالية عن هذا الكشف الى حد بعيد ، هذا الكشف الذي قامت به ، كما « اخبرت » صحيفة « التايمز » قراءها ، « عصابة من الفوضويين والمتعصبين » ومنهم «لينين والكثيرون من رفاقه من المغامرين ذوي الاصل اليهودي-الالماني » (٥) . ولعل العداء الذي حدا بالقوى الراسمالية ، بقيادة فرنسا وانجلترا الديمقراطيتين ، الى محاولة خنق النظام المتمرد المنهك ، كشف أكثر من أي شيء آخر الطبيعة الطبقية للسياسات القوميه لهذه القوى ، مقدما بذلك الدليل على صحة الاتهام البلشفي .

عند هذا المنعطف ، كانت قعقعة الثورة تتصاعد في عدد من دول اوروبا التي دمرتها الحرب (٦) ، فشعر القادة البلاشفة انهم سيلتقون قريبا بقوى ثورية في الاقطار الاخرى . لكن الامور لم تسر كما كان متوقعا لها . فلم يتحقق المنظور البلشفي بعيد المدى ، اذ فشلت الثورات في اوروبا الغربية وعلى الاخص الثورة في المانيا ، ونجم عن ذلك ما لم يكن متوقعا : بقاء الانظمة الراسمالية وبقاء الدولة الاشتراكية الاولى .

استخلص لينين ، في مسحه للموقف العالمي عام ١٩٢٠ (٧) ، ان تناقضات النظام الراسمالي أصبحت « أكثر حدة بما لا يقاس » نتيجة للحرب . وقال ان انقسام العالم الى حفنة من الامم المضطهِدة واغلبية من الشعوب التابعة المستعمرة والمستغلة بشكل عام لا يزال الحقيقة الاساسية في الحياة الدولية ، وهو يكيف « جميع التناقضات الاساسية للراسمالية ، (أي) الامبريالية ، التي (كانت) تقود الى الثورة » .

ومن بين الاقطار التي دفع بها « الى منزلة هي بمثابة منزلة كولونيالية تابعة »

---

٥ ـ ورد في ماير ، ولسون مقابل لينين ، ص ٢٧٧ . يصف ماير افتتاحية التايمز هذه بأنها «لاذعة» ولكنها «تمثل» رد فعل صحافة الحلفاء على البادرة البلشفية .

٦ ـ لتحليل هذه الثورات المجهضة ، انظر غروبر ، الشيوعية الاممية في عهد لينين ، تاريخ وثائقي .

٧ ـ لينين ، تقرير عن الوضع الدولي والمهام الاساسية للاممية الشيوعية ، ١٩ تموز ١٩٢٠ ، المؤلفات الكاملة (بالانجليزية) ، المجلد ٣١ .

المانيا ، احدى اكثر الامم تقدما تقنيا وثقافة وتنورا . واضاف لينين ان الحرب قد شنت لتقرير من من المجموعات الصغيرة من الدول الراسمالية المسيطرة ـ المجموعة البريطانية (التي دعمها الاميركيون فيما بعد) او الالمانية ـ سيحصل على موقع الهيمنة في النظام الامبريالي لاستغلال ثروات العالم . وقد هزمت المانيا في هذا الصدام ، وفرضت عليها في معاهدة فرساي « حالة من التبعية والفقر والمجاعة والخراب وفقدان الحقوق » وقيدت لاجيال قادمة ووضعت « في ظروف لم تعشها أمة متمدنة من قبل » .

ولم تكن المانيا البلد الوحيد الذي جر الصدام عليه الخراب وفرضت عليه حالة من التبعية ، فقد تضاعفت ديون الدول الاوروبية الرئيسية جميعا سبع مرات خلال الفترة ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩٢٠ . وظهرت الولايات المتحدة « المستفيد الوحيد من الحرب » ، فقد كانت في السابق مثقلة بالديون ، واصبحت الآن عبر الدمار الاوروبي المسلّف العام والقوة الراسمالية العالمية المسيطرة .

وكشاهد على عمق الخراب الذي لحق باوربا لا نتيجة الحرب وحدها فحسب بل ونتيجة شروط السلام التي فرضها المنتصرون ايضا ، استشهد لينين بجون كينز، الشخصية التي لمعت حديثا . كان كينز قد دعم الحرب واشترك في محادثات فرساي بصفته دبلوماسيا بريطانيا . لكنه توصل الى نتيجة هي أن اوروبا والعالم كله يتجهان الى الافلاس نتيجة لشروط السلام . ولذا استقال من منصبه وكتب كتابا (٨) قذفه،على حد تعبير لينين،في وجه الحكومة قائلا: ان ما تفعلون هو الجنون بعينه . ورأى لينين ان مثال كينز ، واستفاقته المتأخرة وشجبه لسياسة المنتصرين يشير الى ما يحدث وما سيحدث « في عقول الآلاف ومئات الالاف من الناس عندما يدركون أن كل الخطابات عن الحرب من اجل الديمقراطية ، الخ لم تكن غير خداع محض » وانه نتيجة للحرب « اثرت حفنة من الناس ، بينما لحق الدمار بالآخرين وفرضت عليهم العبودية (٩) » .

---

٨ ـ النتائج الاقتصادية للسلام .

٩ ـ «بالمناسبة ، لا اعتقد ان اي بيان شيوعي .. يمكن ان يقارن في قوته بتلك الصفحات من كتاب كينز التي يصف فيها ولسون والولسونية في الممارسة . لقد كان ولسون معبود السلاميين من أمثال كينز ... الذين هللوا للنقاط الاربع عشر .. لقد كانوا يأملون ان ينقذ ولسون (السلام الاجتماعي) ويوفق ما بين المستغِلين والمستغَلين ويحقق اصلاحات اجتماعية . بين كينز بوضوح كيف اصبح ولسون اضحوكة وكيف انهارت كل هذه الاوهام عندما جابه اول صدام له مع سياسة رأس المال العملية التجارية المساومة كما تتمثل بكليمنصو ولويد جورج . ان جماهير العمال ترى الان أوضح من اي وقت مضى ، وعبر تجربتها الذاتية ـ ويمكن للمتحذلقين المتعلمين ان يروا هم كذلك اذا قرأوا كتاب كينز ان جذور سياسة ولسون تعود الى الهذيان المنافق والاتجار البورجوازي الصغير بالكلام وعدم القدرة على فهم الصراع الطبقي اطلاقا» . لينين ، المصدر السابق. انظر كذلك وصف ميلز لليبرالية المعاصرة: «ان من المشكوك فيه ان تكون الليبرالية في موضع تستطيع معه تعيين الشروط التي يمكن بموجبها =

ورأى لينين ان الحرب الضارية والسلام الذي لحقها قد زادا من حدة « الازمة الثورية » للراسمالية ، وفاقما التناحرات الداخلية بين الطبقات المستغلة والمستغلة والتناحرات الخارجية بين الامم المضطهدة والامم المضطهدة .

« ان المانيا كلها تغلي ، وكذلك تغلي آسيا كلها... ففي المانيا هناك ... كراهية للمعاهدة لا يمكن ان يفهمها غير من رأى كراهية العمال الالمان للراسماليين الالمان . ونتيجة لذلك ، فقد جعلوا من روسيا الممثل المباشر لجمهرة البشر المضطهدين على الارض ، (أي) للطبقات المضطهدة وكذلك للشعوب المضطهدة (١٠) » .

وفيما بعد ، ادلى لينين بتوقعاته حول احتمالات انفجار هذه الازمات ، حول الصدامات الممكنة بين الامبريالية اليابانية والولايات المتحدة ، بين القوى الامبريالية الغربية وقومية شعوب الشرق الثورية الناهضة ، وحول نكبة المانيا وآثارها على الثورة الأشتراكية في اوروبا . وكان لينين حذرا في توقعاته على المدى القريب ، لكنه كان متفائلا بالنسبة للمستقبل . ففي التحليل الاخير ، سيقرر نتيجة الصراع « كون روسيا والصين والهند الخ تضم الاغلبية الساحقة من سكان المعمورة » وقد اندفعت هذه الاغلبية خلال بضع السنوات السابقة « الى حلبة النضال من اجل التحرر بسرعة فائقة » . وهذا يعني أنه ليس هناك « ظل من شك » حول النتيجة النهائية للصراع العالمي ، وان « الانتصار الكامل للاشتراكية ... مضمون تماما وبصورة مطلقة (١١) » . اما فيما يتعلق بالمدى القريب ، فعلى الرغم من أن لينين كان يدرك وجود مصاعب جمة وانه لا يمكن الجزم بشأن الشكل الذي ستتخذه الاحداث ، الا انه لم يتوقع قط ان تضطر الثورة الاشتراكية العالمية الى سلوك « طريق جانبي » . هكذا ، مثلا ، لم تتأخر الثورة في اوروبا المتقدمة مجرد تأخر فحسب . فعندما نضجت في النهاية أزمة الراسمالية الاوروبية والالمانية ، لم تسيطر على أوروبا والمانيا الاشتراكية الثورية على اليسار بل سيطرت عليها الرجعية الفاشية وحلفاؤها من القوى المعادية للشيوعية على اليمين ...

لقد مثل انتصار النازية وسط الانهيار الاقتصادي للراسمالية الالمانية وخراب جمهورية فايمار سقوطا في البربرية لم يتوقعه احد في اوائل العشرينات ، ولا حتى

للمثل التي ترفع لواءها ان تتحقق . فقد انعزلت ، ولا تزال ، عن اي نظرية مجتمعية واي وسيلة للفعل الفعال . ولذا ، ومهما كانت الليبرالية خلابة كمجموعة من المثل ، فان هذه المثل بحالتها المجردة الشكلية لم تعد ذات نفع .. كدليل لمن يريدون ان يعدلوا بارادة البشر سير الاحداث التاريخية» . ميلز «الماركسيون» .

١٠ ــ خطاب للينين في ٦ كانون الاول ١٩٢٠ . لقد بارك لينين ، اعترافا منه بأهمية النضال القومي ، تعديل الشعار المركزي في البيان الشيوعي ، ليصبح «يا عمال كل الاقطار ، ويا ايتها الامم المضطهَدة ، اتحدوا !» بدلا من «يا عمال كل الاقطار ، اتحدوا !» . المؤلفات الكاملة . المجلد ٣١ ، ص ٤٥٣ .

١١ ــ لينين ، «أفضل أقل ، ولكن افضل» ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ .

البلاشفة الروس . فتروتسكي مثلا ، وهو الذي ابدى فيما بعد بصيرة حادة في ما يتعلق بالنتائج المحتملة للانتصار النازي ، كتب في عام ١٩٢٣ (فيما يختص بايطاليا) انه اذا ظلت البورجوازية في السلطة ، فانها ستتخلص من الفاشية سريعا « ذلك أن البورجوازية لا تستطيع ان تتعايش طويلا مع نظام فاشي تماما ، كما أن البروليتاريا لا تستطيع أن تعيش عددا من السنين في حالة انتفاضة مسلحة (١٢) » . ولم يتضح الا فيما بعد أن الفاشية عموما ، والنازية على وجه الخصوص ، لا يمكن اعتبارها مجرد « ذريعة » تلجأ اليها بورجوازية مسيطرة لسحق اليسار الثوري ، بل انها بوصفها تلاحم قوى اجتماعية وثقافية رجعية تعمل في محيط غير بورجوازي أساسا (وان يكن رأسماليا) تملك دينامية خاصة بها (١٣) . ولم تدمر حملة هتلر المعادية للشيوعية اليسار في المانيا فحسب . بل ان هتلر ، بسحقه دون رحمة اطار النظام الذي وضعته معاهدة فرساي وتأكيده للقدر القومي للرايخ الالماني في مواجهة هذا الاطار ، جعل القوة الالمانية تصطدم اصطداما كاملا بالمنتصرين الاوروبيين كذلك، مما أدى الى قيام تحالف لم يتوقعه احد بين روسيا السوفياتية واعدائها الرأسماليين الاساسيين .

والعامل الآخر الاكثر أهمية في جعل الثورة العالمية تحيد عن مسارها المتوقع هو سير التطورات في الدولة السوفياتية الطفلة . فلو أن الثورة الاشتراكية الاولى انتصرت في أحد الاقطار الرأسمالية المتقدمة ، حيث القوى الانتاجية والثقافية متطورة تماما ، كما في الوصفة الماركسية الكلاسيكية ، لكان من المحتمل ان يأخذ تطور الثورة ، لا في الارض التي قامت عليها فحسب بل وفي الاقطار الاخرى كذلك، شكلا أقرب الى ما كان متوقعا . غير ان الثورة الاشتراكية في روسيا لم تستطع ، لعزلتها والارهاق الذي أصيبت به بسبب الوضع البدائي التعيس الذي وجدت نفسها فيه ، أن تبدأ بتحقيق التوقعات والآمال التي عقدت عليها في كل مكان .

وقد قال لينين اكثر من مرة في السنوات الاولى للسلطة السوفياتية : « انها لمصيبة رهيبة ان يقع شرف بداية أول ثورة اشتراكية على عاتق أكثر شعوب اوروبا تخلفا (١٤) » . ان لينين بملاحظته هذه انما يتنبأ بمرارة بالمصير غير المتوقع للثورة في نصف القرن الذي تلا ـ لا الثورة في روسيا المتخلفة فحسب ، بل عالميا كذلك . كتب لينين في آخر مقالة له يقول ان المهمة التي تواجه البلاشفة الروس هي الاحتفاظ بالسلطة حتى :

« الصدام العسكري التالي بين الغرب المضاد للثورة والشرق الثوري والقومي ، بين أكثر اقطار العالم تمدنا وبين اقطاره المتخلفة بطريقة شرقية التي تضم الاغلبية . (ان هذه الاغلبية) يجب ان تصبح متمدنة . ونحن ايضا نفتقر الى قدر كاف من

---

١٢ ـ تروتسكي ، بأي مرحلة نمر ؟ (نشرة) . ص ٢٣ .

١٣ ـ سنعالج هذه النقطة في نهاية هذا القسم .

١٤ ـ اوردها فكتور سيرج ، مذكرات ثوري ، ص ١١٣ .

المدنية يمكننا من الانتقال مباشرة الى الاشتراكية ، على الرغم من اننا نملك المتطلبات السياسية لذلك (١٥) » .

لم يكن في توقعات لينين والبلاشفة في ذلك الحين أدنى حدس بأن النظام السوفياتي يمكن أن يعيش طويلا دون أن يتلقى مساعدة من ثورات في الغرب . وفي عام ١٩٠٥ ، تنبأ تروتسكي بأنه اذا ما وجدت الطبقة العاملة الروسية نفسها في السلطة « فقط نتيجة تأزم مؤقت في ثورتنا البورجوازية » واذا لم تهب لنجدتها ثورات أخرى ، فان « الطبقة العاملة الروسية ستسحقها لا محالة الثورة المضادة لحظة يدير الفلاحون ظهرهم لها » (١٦) . وفي آذار ١٩١٨ اعلن لينين لكادرات الحزب :

« من وجهة نظر التاريخ العالمي ، ليس هناك دون شك اي امل في الانتصار النهائي لثورتنا اذا ظلت وحيدة ، اذا لم تكن هناك حركات ثورية في اقطار اخرى ».
وبشكل ملموس اكثر

« في اية حال ، وفي ظل كل الظروف الممكنة ، اذا لم تأت الثورة الالمانية ، فسيحكم علينا بالاخفاق . (ومع ذلك) فان هذا لا يهز اطلاقا قناعتنا بأننا يجب ان نكون قادرين على تحمل اصعب المواقف دون صخب » (١٧) .

وفي مقالته الاخيرة ، اكد لينين على ضرورة ابداء « الحذر الاقصى » ، للحفاظ على النظام وارساء اسس القاعدة الصناعية ، حتى يتعزز تقدم انتصار الثورة العالمية ويصبح ممكنا تقدم المشروع البلشفي تقدما حاسما. غير أن الاحداث دحضت بصورة قاطعة هذا المنظور العام الذي يتنبأ بالهزيمة من جهة أو بالتقدم المتواصل (وان تأخر في البداية) من جهة أخرى . ذلك ان الثورة في نهاية الامر ظلت على قيد الحياة ـ ولكن معزولة . وادار الفلاحون ظهرهم للنظام ـ لكن النظام لم ينسحق بل انشأ اقتصادا مجمعا . هكذا ، لم يكن غريبا ان تكون النتيجة غير متوقعة بقدر ما كانت مقدماتها غير متوقعة كذلك .

ومن بين الآثار الرئيسية لبقاء الثورة وتطورها في روسيا المتخلفة عامل التعقيد الذي أدخله ذلك على المواجهة المتوقعة بين ثورة اشتراكية اممية تقدمية ونظام

---

١٥ ـ لينين ، أفضل أقل ولكن أفضل .

١٦ ـ تروتسكي ، نتائج وتوقعات . عبرت هذه الصياغة بدقة عن المنظور ما قبل الثوري للبلاشفة الذي لم يطرأ عليه تحول حتى وفاة لينين . وحتى في نيسان ١٩٢٤ ، كان ستالين ما يزال يكتب « للاطاحة بالبورجوازية ، تكفي جهود بلد واحد : وهذا ما يثبته تاريخ ثورتنا . اما للانتصار النهائي للاشتراكية ، ولتنظيم الانتاج الاشتراكي ، فان جهود بلد واحد ، خاصة اذا كان بلدا فلاحيا كروسيا ، لا تكفي ، اذ يتطلب الامر جهود بروليتاريي عدد من الاقطار المتقدمة» . ستالين ، اللينينية .

١٧ ـ التقرير السياسي للجنة المركزية الى المؤتمر السابع الاستثنائي للحزب الشيوعي الروسي، ٧ اذار ١٩١٨ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، ص ٩٥ .

امبريالي عالمي رجعي ، تلك المواجهة التي كانت احد الملامح الاساسية للبرامج البلشفية والماركسية . لاحظ لينين عام ١٩٢٠ .

« بعيد انتصار الثورة البروليتارية في بلد متقدم واحد على الاقل بقليل ، سيحصل تغير حاسم : ستكف روسيا عن كونها الانموذج وتصبح قطرا متخلفا (بمعنى سوفياتي واشتراكي) » (١٨) .

غير أن هذه الثورة في قطر راسمالي متقدم لم تتحقق، وظلت روسيا، بعناصرها التقدمية والمتخلفة المتشابكة ، «النموذج» الوحيد للتقدم الاشتراكي على امتداد عدة عقود .

وكان عامل التعقيد الآخر الذي طرأ في الفترة التاريخية اللاحقة ، وعلى الاخص خلال العقدين الاولين من الحرب الباردة ، هو صعود الولايات المتحدة الاميركية الى قمة النظام الراسمالي العالمي . لقد كان باستطاعة الولايات المتحدة ، بوصفها أكثر القوى الراسمالية ديمقراطية وأقلها ارتباطا بامبراطورية استعمارية ، ان تتخذ لنفسها دور معارضة ليبرالية للامبرياليات الاوروبية الاقدم ، فبدت وكأنها تدفع الى الامام تلك القيم الديمقراطية التي ارتبطت بالثورات البورجوازية في العهد المنصرم . ولذا كان باستطاعتها ان تحبي النظام الراسمالي بهالة من التقدمية أعادت لهذا النظام المهزوز قدرا كبيرا من الثقة والمرونة ، وطمست خطوط المواجهة التاريخية .

وقد تجلت احدى الدلائل الاولى على هذا الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في رد فعل ولسون على مرسوم السلام البلشفي . فبينما رفضت القوى الاوروبية الاقدم في بادىء الامر الاعتراف بالتحدي البلشفي والقيام ببادرة التخلي عن مخططاتها الالحاقية ودبلوماسيتها السرية (١٩) ، تقدم ولسون بجواب جريء وتحد مضاد في نقاطه الاربع عشرة الشهيرة (٢٠) .

رفض « بيان ولسون المعاكس » الدبلوماسية السرية أيضا وتبنى مبدأ حق تقرير المصير (على الرغم من انه فعل ذلك بشكل مائع فيما يتعلق بالمناطق المستعمرة خارج اوروبا) وتخطى البلاشفة بالتقدم بمقترحات لنزع سلاح عام . ولقد قبلت هذه المبادىء الرفيعة بشكل عام من جانب القوى الراسمالية الاخرى ، بضغط من

---

١٨ ـ لينين ، مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية .

١٩ ـ كان الاشتراكيون والليبراليون الاوروبيون قد نادوا ، قبل الحرب وخلالها ، بالسيطرة البرلمانية على السياسة الخارجية . كذلك لم يقرر مرسوم السلام البلشفي ان الحكومة البلشفية «قد الغت الدبلوماسية السرية» فحسب ، بل وأبدى كذلك انها «تنوي بحزم الدخول في كل المفاوضات علنا بصورة مطلقة وأمام الشعب كله» . ماير ، ص ٢٦٤ .

٢٠ ـ في حين أن لويد جورج القى بيانا بدأ فيه انه يتوقع نقاط ولسون قبل ان تصدر ببضعة اسابيع ، فانه انما فعل ذلك جزئيا بضغط من اميركا ، وبطريقة ترك معها بعض المسائل الحاسمة ـ مثل السلامة الاقليمية لروسيا ـ غامضة تماما .

الولايات المتحدة (٢١) ، ولكن وبرغم ذلك تم التخلي عن هذه الالتزامات اللفظية ونسخها في التسوية الفعلية في فرساي . كذلك ، خرق ولسون نفسه مبدأ حق تقرير المصير (وهو المبدأ الذي شكل جوهر البرنامج الدولي لليبرالية الولسونية) علنا ، عندما تدخل ضد الثورة البلشفية بعد بيانه بقليل .

كان فشل الليبرالية الولسونية في تخطي حقل الخطابة الورعة نموذجا معبرا عن « التقدمية » التي كان لاميركا أن تبديها في المسرح الدولي في العقود اللاحقة . ولكن كما أن « الدبلوماسية الجديدة » بدت لكثيرين وكأنها تقدم افقا واملا في الاستنارة ضمن الراسمالية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى ، كذلك بدت السياسة الاقتصادية الاميركية (نيوديل) ، خلال عقد الانحطاط الاقتصادي في الثلاثينات ، لكثير من الليبراليين وكأنها تقدم ضمن الراسمالية طريقا الى الامام يتجنب طريق الفاشية الالمانية وطريق النظام السوفياتي في عهد ستالين . ومرة ثانية ، في فترة ما بعد الحرب ، ورغم الطبيعة المائعة لائتلاف « العالم الحر » والغموض الذي كان يلف دعم اميركا للاستقلال القومي في العالم المتخلف ، كانت بادرات واشنطن نحو سياسة دولية اكثر ليبرالية تحمل من علائم الصدق ما ساعد مؤقتا على احتواء معارضة القوى المعادية للراسمالية . لقد كان الامر يحتاج تغيرا في الميزان الدولي وتطورات جديدة في الجانب السوفياتي حتى يمكن ان تنزع عن التمثال الاميركي الضخم ونظامه الراسمالي هالتهما التقدمية ، ولم يبدأ هذا التغير وهذه التطورات الا في العقد الذي وقعت فيه الحرب العالمية الثانية ، حين دخل التطور التاريخي مرحلة ثورية جديدة .

---

٢١ – «في النهاية ، اجبرت ضرورات الحرب الحكومات المتحالفة على الاعلان عن التزامها اللفظي بالدبلوماسية الجديدة . وكان ولسون قد تنبأ في وقت مبكر يعود الى ٢١ تموز ١٩١٧ انه ما ان تنتهي الحرب ، حتى يصبح في استطاعتنا ارغامهم على اتباع طريقتنا في التفكير . ذلك انهم سيكونون في ذلك الحين تحت رحمتنا ماليا . وقد زاد اعتماد الحلفاء على الولايات المتحدة بفعل انهيار روسيا ونكبة كابوريتو» . ماير ، ص ٣٣٢ .

- ٢ -

الماركسية والثورة

« لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » .
لينين ١٩٠٢ .

ان البلشفية ، كي تفهم كمنظور ثوري ، يجب ان تميز عن صورة الماركسية التي رسمتها خلال نصف قرن اورثوذكسيات الامميتين الثانية والثالثة (١) ونقادهما المعادين للماركسية . هكذا فان الماركسية في صورتها الاورثوذكسية تبدو جبرية اقتصادية مباشرة ، التغيرات الثورية في بنية المجتمع تحدث بالنسبة لها كانعكاس بسيط لتغيرات ثورية في القاعدة الاقتصادية . ومع ذلك ، لو كانت هذه النظرة الى المنظور النظري لماركس دقيقة ومتوازنة بقدر ما هي مألوفة ، لوجد المرء نفسه مضطرا الى الاستنتاج ان البلاشفة لم يكونوا ماركسيين على الاطلاق . ذلك أن تأكيد البلاشفة على الحاجة الى خلق وعي ثوري ، وبناء حزب طليعي (مشكل بالتحديد للقيام بالنضال الثوري)، وفوق ذلك كله قرار البلاشفة الاستيلاء على السلطة عبر انتفاضة ثورية مخططة ، لا يمكن ان تجبر ، على الدخول في اطار نظرية حتمية تاريخية .

هناك بالفعل خيطان متميزان من الجبرية يمكن ان يستشفا في كتابات ماركس ، الاول هو الجبرية السببية المألوفة ، والثاني جبرية شرطية ، نظرية فعل اجتماعي بالعلاقة مع الممكن .

لقد عبر ماركس عن جوهر هذا المنظور الشرطي الذي استوعبه البلاشفة بايجاز بارع في مقالته التاريخية حول انقلاب لويس بونابرت :

«ان البشر يصنعون تاريخهم بأيديهم ، ولكنهم لا يصنعونه على هواهم ... في ظروف يختارونها هم انفسهم ، بل في ظروف يواجهون بها مباشرة ، ظروف معطاة ومنقولة لهم من الماضي » (٢) .

---

١ ـ بدا عدد من الكتاب الشيوعيين في السنوات الماضية يعدلون من اورثوذكسيتهم السابقة .

٢ ـ ماركس ، الثامن عشر من برومير لويس بونابرت . انظر مناقشة سارتر لملاحظة شبيهة ادلى بها انغلز وذلك في مقالة سارتر «البحث عن طريقة» عام ١٩٦٤ .

والمنظور الشرطي ذاته واضح لدى لينين . فقد لاحظ في واحدة من اولى مقالاته :

« ان فكرة الضرورة التاريخية لا تقلل على الاطلاق من دور الفرد في التاريخ... فالتاريخ كله مكون من افعال أفراد هم بلا شك كائنات فعالة . والسؤال الحقيقي (الذي يبرز) حين تقييم النشاط الاجتماعي لفرد ما هو : ما هي الشروط التي تضمن نجاح اعماله ، ما الذي يضمن أن لا تظل اعماله فعلا معزولا يضيع في خضم افعال معاكسة ؟ » (٣) .

ولربما كان لينين قد عبر عن موقفه من مسألة الجبرية بقدر اكبر من الوضوح في مقابلة جرت معه في لندن عام ١٩٠٢ .

« ان المناشفة يعتقدون ان التاريخ نتاج قوى مادية تعمل عبر عمليات التطور . اما انا فاعتقد مع ماركس ان الانسان يصنع التاريخ ، ولكن ضمن الشروط وبالمواد التي تعطيها الفترة المعنية من الحضارة . ويمكن للانسان ان يكون قوة اجتماعية عظيمة ! » (٤) .

واذا كان هناك من شك ، فان موقف لينين « الماركسي » يجد تأكيدا ودعما له في ملاحظات ماركس في مقدمته للمقالة ذاتها عن نابليون (٥) ، تلك المقدمة التي يجري تجاهلها عموما . فهنا يوضح ماركس بما لا يقبل الشك رأيه من أن الظروف الشرطية الخارجة عن الارادات الفردية للممثلين التاريخيين لا تحدد تفاصيل التطور المقبل للوضع التاريخي ، بل تحدد فقط امكانيات هذا الوضع .

ينتقد ماركس في هذه المقدمة دراستين للانقلاب معاصرتين له ، لانهما بالضبط وقعتا في المزلقين التوأم ، مزلق « الذاتية » او « القدرية (الطوعية) » من جانب ، ومزلق « الموضوعية » من الجانب الآخر . يقول ماركس ان فكتور هوغو في كتابه « نابليون الصغير » يصور الانقلاب وكأنه هبط من السماء . وهوغو لا يرى في الانقلاب

« غير فعل عنيف قام به فرد واحد . وهو لا يلاحظ انه يجعل من هذا الفرد عظيما بدل ان يجعله صغيرا ، فهو يعزو اليه قوة شخصية على المبادرة ليس لها مثيل في تاريخ العالم » .

اما برودون ، من جهة أخرى ، « فيسعى الى تصوير الانقلاب وكأنه نتيجة تطور

---

٣ ـ لينين ، ما هم اصدقاء الشعب ، وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الاول .

٤ ـ م. بير ، خمسون سنة من الاشتراكية الاممية .

٥ ـ كتب ماركس هذه المقدمة للطبعة الثانية عام ١٨٦٩ .

تاريخي سالف » ، اي نتيجة حتمية لاحداث سابقة . وفي النهاية « يصبح تصويره التاريخي للانقلاب اعتذارا تاريخيا لبطله » (هذه التهمة ذاتها تورد عموما ضد « الماركسيين » الستالينيين الذين سعوا بتبيان الضرورة المزعومة لاعمال معينة ان يحلوا الممثلين التاريخيين من مسؤولية هذه الاعمال) . ويلاحظ ماركس ان برودون « يقع بهذا في خطأ ما يسمى بالمؤرخ الموضوعي » . اما بصدد وجهة نظره هو ، فيقول « انا بالمقابل ابين كيف أن الصراع الطبقي في فرنسا خلق الظروف والعلاقات التي سمحت لانسان عادي مبتذل أن يلعب دور البطل » .

يورد ماركس في كتاباته حول الثورة من بين العناصر الشرطية المكيفة التي تحدد انعطافا تاريخيا معينا : التقاليد السابقة ، الايديولوجيا ، وحتى الوضع التاريخي لطبقة تحتل موقعا استراتيجيا (كالبورجوازية البروسية في عام ١٨٤٨) (٦) . لكن الاطار الاقتصادي للمجتمع وموقع الطبقات الاجتماعية الرئيسية ضمن هذا الاطار هي بالنسبة لماركس ما يحدد اساسا الاختيارات المتاحة لنظام اجتماعي معين .

فكلما كان الاطار الاقتصادي اكثر صلابة ، اي كلما كانت اجزاؤه اكثر اعتمادا على بعضها بعضا واكثر تداخلا بعضها ببعض بسبب التقدم التقني ، وكلما كانت هذه اكثر خضوعا في تناسقها وتنظيمها لحكم السوق الاقتصادي العالمي غير المخطط ، كانت الاختيارات المتاحة للبشر ضمن هذا الاطار اقل (٧) ، في حين تلعب الوجهات المادية لتطوره دورا أكبر بالتناسب . وبالعكس فان تطورا اقتصاديا وتقنيا اكثر بدائية ، وخاصة في محيط عالمي اكثر تقدما بشكل عام ، يفسح المجال أمام احتمالات تاريخية لا تقوم دون ذلك . ولذا فليس من الغريب ان يكون ماركس قد اعتبر ان روسيا المتخلفة تملك خيارات تاريخية متعددة من بينها « أبدع فرصة » وجدها أمامه شعب للانتقال مباشرة من تطور اقطاعي الى تطور شيوعي (٨) .

وهناك عرض مشوه آخر للماركسية يعرفها بأنها نظرية تاريخ ترى أن التطور الاجتماعي يسير حتما عبر مراحل محددة من الشيوعية البدائية الى الاقطاعية الى الراسمالية فالاشتراكية . ومن المشكوك فيه الى حد بعيد ان يكون ماركس قد اعتنق

---

٦ ـ سنبحث ذلك بعد قليل .

٧ـ «انالاقتصاد الراسماليالیوم یشکلکونا بالغالضخامةیولد فیهالانسانالفرد، ویقدمنفسهللانسان، على الاقلبصفته فردا، علىانه نظام لا يمكن تغييره وعليه ان يعيش فيه. وهو يجبر الفرد بقدر اشتراكه في نظام علاقات السوق على الامتثال لقواعد العمل الراسمالي . فالصناعي الذي يعمل على المدىالبعيد ضد هذه المعايير يجد نفسه وقد اقصي حتما عن المسرح الاقتصادي ، تماما كما يجد العامل الذي لا يتكيف مع هذه المعايير نفسه ملقى في الشارع بلا عمل» . ماكس فيبر ، الاخلاق البروتستانية والروح الراسمالية .

٨ ـ انظر رسالة ماركس الى هيئة تحرير «اوتيشستيفنه زابسكي» ، في المراسلات المختارة ، ص ٢٧٦ ، ومقدمة الطبعة الروسية من البيان الشيوعي عام ١٨٨٢ .

نظرية فوق تاريخية كهذه (٩) ، ومن المؤكد ان البلاشفة لم يفعلوا ذلك (١٠) . ذلك ان قبول عقيدة مراحل تاريخية محتومة لا يستتبع قبوله ظهور الراسمالية ونموها نموا بعيد المدى في روسيا بصورة حتمية فحسب ، بل يستتبع ايضا انكار امكانية استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية مباشرة .

غير ان احدى مدارس الماركسية في روسيا في ذلك الحين كانت تعتنق نظرية تاريخية كهذه ، فقد كانت تنظر الى روسيا عبر المنظور الذي كان يعرف اذ ذاك بأنه المنظور الماركسي . وطبقا لوجهة النظر «الاورثوذكسية» هذه ، كان لا بد للمرحلة التالية من الثورة الروسية من ان تكون تحت سيطرة البورجوازية الناشئة التي ستقود النضال للاطاحة بالحكم المطلق القيصري وتقيم الديمقراطية وتطور اقتصادا صناعيا راسماليا . عند ذلك ، وعند ذلك فقط ، وكنتيجة للتناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الذي يخلقه التطور الراسمالي ، تحل مرحلة جديدة من الثورة : ثورة اشتراكية بقيادة البروليتاريا . كان هذا هو المنظور الذي اعتنقه بصلابة الماركسيون المناشفة ، ألعقيديون (الدوغمائيون) الحقيقيون للثورة الروسية.

الا ان تفحصا دقيقا لكتابات ماركس نفسه يبين انه كان لديه اكثر من تصور للثورة الاجتماعية (١١) . وأشهر هذه التصورات ، الذي يقترن في العادة بالماركسية «الاورثوذكسية» والذي تبناه المناشفة الاورثوذكسيون ، يقوم على وجهة نظر ماركس في الوجهات التاريخية للتطور في انجلترا وفرنسا وكل منهما كانت قد دخلت حقبة الراسمالية الصناعية . لكن ماركس ركز اهتمامه ايضا على الصراع الطبقي في موطنه المانيا الاكثر تأخرا خلال فترة حياته الاولى وكذلك في وقت الهزائم الثورية عام ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ . وقد ركز البلاشفة على هذا التحليل الماركسي ودروسه بدل ان يركزوا على التحليل الاول .

هكذا ، اورد لينين ، في كتيب بالغ الاهمية قيم فيه ثورة عام ١٩٠٥ في روسيا واستخلص فيه دروسا مناسبة للمستقبل ، تحليل ماركس لاحداث عام ١٨٤٨ وكتب

---

٩ ــ ان شجب ماركس الصريح لاي محاولة لصياغة نظرية عامة في التطور التاريخي معبر عنه في رسالته الشهيرة الى هيئة تحرير «اوتيشستيفنه زابسكي» حول مراجعة ميخائيلوفسكي «لراس المال». وقد كان يتوجب ان يحول عدم التوافق الواضح ما بين نظرية عامة مجردة كهذه وبين نظرة ماركس المنهجية (الميثودولوجية) الاساسية دون نشوء اي تخبط حول هذه المسألة . غير ان الكثيرين من الكتاب ، ماركسيين وغير ماركسيين ، اصروا ولا يزالون على اعتبار ملاحظات ماركس في «مقدمةالمساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» عرضا لنظرية عامة ، ولا شك في ان التشوش سيظل قائما ما دام هذا الاصرار قائما .

١٠ ــ انظر رد لينين على ميخائيلوفسكي في «ما هم اصدقاء الشعب الخ» في المؤلفاتالكاملة ، المجلد الاول . يهاجم لينين بشكل محدد اشارة ميخائيلوفسكي الى ان ماركس ادعى انه قام بصياغة نظرية عامة للتاريخ .

١١ ــ انظر اوسكار برلاند ، قيود راديكالية : المفهوم الماركسي للرسالة البروليتارية ، في «دراسات حول اليسار» ، المجلد ٦ ، العدد ٥ ، ١٩٦٦ .

يقول : «اذا اخذنا بالاعتبار الخصوصيات القومية العيانية واحللنا القنانة محل الاقطاع ، فان كل هذه الاقتراحات تنطبق تمام الانطباق على روسيا عام ١٩٠٥» . اضافة الى ذلك «ليس هناك من شك في ان» البلاشفة الروس يستطيعون «بالتعلم من تجربة المانيا كما اوضحها ماركس» الوصول الى خط ثوري صحيح (١٢) .

لم تكن المانيا الامبراطورية ، مثلها مثل روسيا القيصرية ، قد شهدت ثورة بورجوازية ، ولكن كانت صناعات حديثة قد ادخلت ضمن اطارها الاقطاعي ، وكانت البروليتاريا فيها في طور التكوين . اضافة الى ذلك ، وبسبب الخصائص المميزة للثورة البورجوازية المتأخرة التي كانت تعتمل في رحم المجتمع الالماني ، اقترح ماركس لتطور المانيا مسارا يختلف بصورة جذرية عن مسار الدول التي سبقتها . فأعلن ماركس في البيان الشيوعي :

«ان انتباه الشيوعيين يتوجه اساسا الى المانيا ، لان المانيا تقف على اعتاب ثورة بورجوازية ستقوم في ظروف المدنية الاوروبية فيها اكثر تقدما ورقيا ومع بروليتاريا متقدمة نامية اكثر مما كان الحال بالنسبة لانجلترا في القرن السابع عشر وفرنسا في القرن الثامن عشر . ومن هنا فان الثورة البورجوازية الالمانية لن تكون الا تمهيدا لثورة بروليتارية تليها مباشرة» .

وقبل ذلك بأربع سنوات كان ماركس قد تنبأ بثورة بروليتارية في أعقاب الثورة البورجوازية – اي تنبأ بتطور متصل من «المرحلة» الرأسمالية الى اتمامها الاشتراكي . لكن الاحداث اثبتت خطأ هذا التنبؤ بالنسبة لالمانيا ، حيث لم تنكفىء الثورة البورجوازية فحسب بل وهزمت أيضا ، واثبتت بالمقابل صحته بالنسبة لروسيا عام ١٩١٧ . كان ماركس قد كتب «ان المانيا لن تستطيع تحرير نفسها من العصور الوسطى الا اذا حررت نفسها في الوقت ذاته من الانتصارات الجزئية (١٣) على العصور الوسطى» ، اي من الثورة البورجوازية كذلك ، «فألمانيا ... لا تستطيع القيام بغير ثورة تقلب الامور جميعا» (١٤) .

كانت مقالات ماركس وخطاباته بصدد الصراعات الطبقية في المانيا بين عام١٨٤٨ وعام ١٨٥٠ تشكل ، بالنسبة للبلاشفة ، بذور تحليل مسألة الثورة البورجوازية المتأخرة . وقد اكد ماركس في هذه المقالات مرة أخرى على الفارق ما بين الثورة الانجليزية في القرن السابع عشر والثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر وبين الثورة البروسية في آذار عام ١٨٤٨ . ففي الثورتين الاوليين «كانت البورجوازية هي الطبقة التي شكلت طليعة الحركة حقا» و«كان انتصار البورجوازية ... انتصارا

---

١٢ – لينين ، خطتان للاشتراكية الديمقراطية (١٩٠٥) ، المؤلفات الكاملة ، المجلد التاسع، ص ١٣٥ – ١٣٦ . انظر كذلك الثورة الروسية ومهمات البروليتاريا (١٩٠٦) ، المؤلفات الكاملة ، المجلد العاشر .

١٣ – جزئية لان الثورة البورجوازية وان حققت المساواة الحقوقية ابقت على اللامساواة والعبودية الاقتصادية .

١٤ – ماركس ، مقدمة نقد فلسفة الحقوق لدى هيغل (١٨٤٤) ، كما ورد في برلاند .

لنظام اجتماعي جديد» (١٥) .

وبالمقارنة لم تكن البورجوازية الالمانية ، نتيجة للتطور المتأخر للمجتمع الالماني ، قادرة نفسيا على لعب دور ثوري حقيقي ولا كانت اجتماعيا في موقع تستطيع معه لعب مثل هذا الدور : فقد تطورت البورجوازية الالمانية تطورا «ناعسا» و«جبانا» الى درجة انها «في اللحظة التي واجهت فيها الاقطاعية والحكم المطلق بالتهديد ، وجدت نفسها مواجهة بالتهديد من البروليتاريا» . لقد مثلت البورجوازية الفرنسية كطبقة كل المجتمع الحديث في مقابل المجتمع القديم . على العكس من ذلك ، رأت البورجوازية البروسية «في موقف معادٍ لها لا طبقة تقف خلفها فحسب بل واوروبا كلها امامها ايضا» . وفي ظل هذا الوضع لم تكن البورجوازية قادرة على ان تصبح الطليعة ، فلعبت بدلا من ذلك دورا متذبذبا . لقد كانت تريد التغيير ، ولكن عن طريق المساومة والحلول الوسط ، وقد جعلت منها مصالحها في البداية حليفا للبروليتاريا والفلاحين ضد الاقطاع الرجعي ، ولكنها كانت تسعى باستمرار الى التصالح مع قوى النظام القديم المحافظة من ملكية وجيش للحيلولة دون قيام البروليتاريا بثورة ضدها هي .

«لقد كانت تفتقر الى الحزم تجاه كل من خصميها ... ذلك انها كانت دوما تراهما اما أمامها واما خلفها . كانت تميل منذ البداية الى خيانة الشعب والتصالح مع الممثل المتوج للمجتمع القديم ، ذلك انها هي ذاتها كانت تنتمي الى المجتمع القديم ، اذ لم تكن تمثل مصالح المجتمع الجديد ضد المجتمع القديم بل مصالح متجددة ضمن المجتمع الذي عفا عليه الزمن . كانت مقود عجلة الثورة لا لان الشعب كان يقف وراءها بل لان الشعب كان يدفع بها أمامه ... كانت ثورية بالعلاقة مع المحافظين ومحافظة بالعلاقة مع الثوريين .. كانت تساوم بصدد رغباتها هي ذاتها ، تفتقر الى المبادرة ، لا تثق بنفسها ولا تثق بالشعب ، كانت بلا رسالة تاريخية ... هكذا كانت البورجوازية البروسية التي وجدت نفسها على سدة السلطة في الدولة البروسية بعد ثورة آذار » .

لم تكن هذه الطبقة البروسية فريدة في نوعها ، فقد كانت مثالا نموذجيا على البورجوازية في البلدان ذات التطور الراسمالي المتأخر . ذلك ان الليبراليين المعتدلين اصبحوا في كل الثورات البورجوازية بعد عام ١٧٨٩ يتقهقرون الى الوراء او ينتقلون في مرحلة مبكرة الى المعسكر المحافظ (١٦) . لقد تميزت الثورةالفرنسية بأن قطاعا من الطبقة الوسطى «ظل على استعداد للبقاء ثوريا حتى شفا الثورة المضادة للبورجوازية بل والى ما بعد ذلك» . ذلك ان البورجوازية الفرنسية ، بعكس الليبراليين اللاحقين ، لم تكن اسيرة ذكرى الثورة الفرنسية ذاتها . فبعد عام

---

١٥ ـ ماركس ، البورجوازية والثورة المضادة ، المؤلفات المختارة (بالانجليزية) ، المجلد الاول ص ٦٧ ـ ٦٨ .

١٦ ـ تشكل الحرب الاهلية الاميركية استثناء جزئيا .

١٧٩٤ ، اصبح واضحا للمعتدلين «ان النظام اليعقوبي قد دفع بالثورة أبعد من توقعات البورجوازية وابعد مما يسمح برفاهها ، تماما كما اتضح للثوريين انه اذا كان لشمس عام ١٧٩٣ ان تبزغ ثانية فانها لن تشرق الا على مجتمع غير بورجوازي » (١٧) .

لقد اصبح احتمال الثورة القادمة واضحا رهيبا في اذهان الطبقات المالكة ، الى درجة أصبح معها الهجوم على الليبرالية ذاتها يقوم اكثر فأكثر على القول بأن الايديولوجية الديمقراطية والاصلاح يعبدان الطريق أمام هذه الثورة . هكذا شجب المؤرخ الالماني المحافظ سوم العقيدة الليبرالية في عام ١٨٦٢ بالكلمات التالية :

«من الطبقة الثالثة انبثقت تلك الافكار ... التي تحرض الان جماهير الطبقة الرابعة على الطبقة الثالثة ذاتها .. ان التربية التي تسيطر على مجتمعنا هي التي تحض على تحطيمه . فالتربية الراهنة ، مثلها مثل تربية القرن الثامن عشر ، تحمل بذور الثورة في قلبها . وعندما تلد هذه التربية ، فان الطفل الذي أرضعته دمها سيعمد الى قتل أمه» (١٨) .

ان الصورة التي رسمها ماركس لبورجوازية التطور الالماني المتأخر المذهولة المتذبذبة المساومة ــ البعيدة كل البعد عن سابقتها اليعقوبية والممثلة كل التمثيل للبورجوازيات اللاحقة ــ تعود الى الظهور في نقطة المركز من تحليل لينين للقوى الطبقية في روسيا . اذ يرى لينين ان البورجوازية في روسيا ليست ثورية على الدوام ، وهي كمثيلتها البروسية لا يمكن ائتمانها على اتمام الثورة البورجوازية الديمقراطية ، بل انها ستتحالف وقت الازمة مع الرجعية الاقطاعية . وعلى اساس هذا التحليل الذي ثبتت صحته فيما بعد اقام لينين البرنامج البلشفي : الاستيلاء على السلطة من جانب البروليتاريا والفلاحين «لسحق معارضة الاوتوقراطية بالقوة وشل تذبذب البورجوازية» . وعندئذ ، واذ تستولي البروليتاريا على المبادرة وعلى السلطة من البورجوازية ضمن الثورة البورجوازية ذاتها (وذلك امر يجعله ممكنا فشل البورجوازية في تنفيذ ثورتها هي وخيانتها لبرنامجها ذاته ولحلفائها وعلى الاخص الفلاحين) تصبح في موضع تستطيع منه القيام بنضالها من اجل الاشتراكية ضد الطبقات المالكة المتبقية (١٩) .

كان تقييم لينين لدور البورجوازية وعلاقتها بالفلاحين في الثورة القادمة يقوم على تحليل ماركس للوضع المماثل عام ١٨٤٨ (٢٠) ، كذلك كانت استراتيجيته العامة للبروليتاريا . كتب ماركس يقول أنه بانتصار الحكومة البورجوازية الجديدة ، يجب على العمال في الوقت ذاته ان ينشئوا حكوماتهم «العمالية الثورية» على شكل

---

١٧ ــ هوبسبوم ، عصر الثورة ١٧٨٩ ــ ١٨٤٨ .

١٨ ــ ورد في فرانز نيومان ، العملاق .

١٩ ــ لينين ، خطتان ، ص ١٠٠ .

٢٠ ــ مفهومة بالطبع على ضوء الاحداث الروسية عام ١٩٠٥ .

مجالس . (كانت مجالس كهذه ، سوفيتات ، قد ظهرت في روسيا عفويا عـــام ١٩٠٥) . وعليهم ان ينشئوا تنظيما مستقلا ويمركزوا تنظيمهم «وعليهم بدءاً من لحظة النصر ان يوجهوا شكهم لا ضد الحزب الرجعي المقهور بل ضد حلفاء العمال السابقين ، ضد الحزب الذي يريد ان يستغل النصر المشترك لصالحه هو وحده»(٢١) (ذلك انه ما ان عقدت البورجوازية الليبرالية سلامها مع السلطة الاقطاعية ــ العسكرية في بروسيا ، حتى صار ثقل هذه السلطة كله يستخدم لاجبار العمال على اتخاذ «موقعهم السابق المضطهد» (٢٢)) .

وقال ماركس انه ليس هناك من حزب بورجوازي يرغب في الواقع في تثوير المجتمع كله ، فكلما يريدونه هو تحسين موقعهم وتعزيز شروط الحكم البورجوازي. والمطالب «الثورية» التي يتقدمون بها لا تكفي حزب البروليتاريا اطلاقا . واستخدم ماركس في تحديده للمطالب التي يجب ان يتضمنها البرنامج البروليتاري ضـــد البورجوازية خلال ثورتها المجهضة مفهوما كان لصداه ان يتردد عبر تاريخ التطور اللاحق في روسيا .

«بينما ترغب البورجوازية الصغيرة الديمقراطية في انهاء الثورة بأسرع ما يمكن بانجاز المطالب السالفة الذكر (مطالب البورجوازية الصغيرة الديمقراطية) كحد اقصى، فان من مصلحتنا ومن واجبنا ان نجعل الثورة دائمة الى ان تجبر كل الطبقات المالكة بهذا القدر او ذاك على مغادرة مواقع السلطة ، والى ان تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة ، والى ان يتقدم ائتلاف البروليتاريين ، لا في بلد واحد بل وفـــي بلدان العالم المسيطرة ، الى حد يتوقف معه التنافس بين البروليتاريين وتتركـــز القوى الانتاجية ، الحاسمة على الاقل ، في ايديهم . فالمسألة بالنسبة لنا لا يمكن ان تكون تحويل الملكية الخاصة بل القضاء عليها ، لا يمكن ان تكون تسوية التناحرات الطبقية بل القضاء على الطبقات ، لا يمكن ان تكون تحسين المجتمع القائم بل بناء مجتمع جديد » (٢٣) .

ان مفهوم «الثورة الدائمة» هذا ، حتى بالشكل البدائي الذي وضعه به ماركس، يرمز الى كل العناصر الرئيسية في النظرية البلشفية (٢٤) : التقدم المتواصـــل للتطور الثوري ، برنامج اكمال التحرير الجزئي في المرحلة البورجوازية ، و«ادامة» اصلاحاتها ، ادراك الافق العالمي للسيرورة الثورية . وقد طوّر هذا العنصر بصورة خاصة من جانب الماركسيين اللاحقين ــ ولاسيما البلاشفة ــ بالعلاقة مع نظرية

---

٢١ ــ ماركس ، بيان اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين ، المؤلفات المختارة ، المجلد الاول .

٢٢ ــ المصدر ذاته .

٢٣ ــ المصدر ذاته .

٢٤ ــ اشار لينين الى الثورة «المتواصلة» او «غير المتقطعة» بدلا من الثورة الدائمة ، امـا بارفوس وتروتسكي فقد أحييا هذا الاصطلاح . ولكن كما بين كار وغيره ليس هناك فارق اساســي ما بين المفهومين . انظر كار ، الثورة البلشفية ١٩١٧ ــ ١٩٢٣ ، المجلد الاول ص ٥٦ .

الامبريالية وتداخل المستويات المتفاوتة للتطور الراسمالي ، وتداخل الآليات الثورية والمضادة للثورة على نطاق عالمي .

فكما ان ماركس أدرك تداخل التطورات الثورية في فرنسا والمانيا وتوقع ان تكون احداهما شرارة بدء الاخرى او يؤدي تدخل التحالف المقدس الى اشعال حريق ثوري ، كذلك اعتبر لينين الثورة الروسية حافزا للثورة الاوروبيـــة . كما ان تروتسكي هو الآخر توقع في وقت مبكر التدخل الدولي ضد الثورة المحلية وبالمقابل اثر روسيا العالمي . وبينما كان ماركس واثقا من ان الانتصار الاولي للبروليتاريا في باريس المتقدمة سيسرّع التطور الالماني المتأخر ، كانت حسابات لينين والبلاشفة تقوم على ان انتصار الثورة في المانيا الصناعية سيعزز المكاسب الروسية «المبتسرة» ويدفع بها الى الامام .

- ٣ -

الامبريالية والثورة

« ان الحرب الامبريالية تبشر بحقبة الثورة الاجتماعية » لينين ١٩١٥ .

لم يكن توقع الثورة في اوروبا ، الذي بنى البلاشفة عليه حساباتهم الى حد بعيد والذي كلفهم فشله في التحقق الكثير ، لم يكن مجرد صياغة افتراضية اتى بها المنظرون البلاشفة لتبرير محاولة ادخال الاشتراكية الى روسيا المتخلفة . بل كان ينبثق عن منظور ثوري شامل ، كان هو نفسه توسيعا لتحليل ماركس للراسمالية ليشمل حقبة التوسع الامبريالي . اقام البلاشفة تحليلهم على اساس تجربة الراسمالية في اوروبا الغربية ، فركزوا انتباههم على تطور الاطار الاقتصادي للمجتمع وعلى الاخص الطريقة التي كان يصطدم بها ، وبطريقة ثورية ، النمو السريع لقوى الانتاج في ظل ظروف احتكارية متزايدة باستمرار ببنية العلاقات الاجتماعية والدولية .

أدخل نمط الانتاج الرأسمالي اساسا ضمن الاطار الثابت للمجتمع الاقطاعي، ولكنه سرعان ما كشف عن كونه قوة مقلقلة تدفع باتجاه التحلل . «فالتثوير المستمر للانتاج» و«الازعاج المتواصل للشروط الاجتماعية جميعا» يميز الحقبة البورجوازية عن كل الحقبات التي سبقتها (١) .

وفي حين كان نمط الانتاج الرأسمالي يقدم دفعا مثورا يبعث على التحلل ، الا انه كذلك قوة تبعث على التماسك . فالعملية ذاتها التي حطمت خصوصية وتقليدية

---

١ ـ «ان البورجوازية لا يمكنها العيش الا اذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على ادوات الانتاج ، وبالتالي على علاقات الانتاج ومعها العلاقات الاجتماعية بأسرها . على العكس من ذلك ، كانت المحافظة على أسلوب الانتاج القديم الشرط الاول لوجود كل الطبقات الصناعية السالفة» . البيان الشيوعي .

اشكال الانتاج والاشكال الاجتماعية الاقطاعية واستبدالها بعلاقات السوق الرأسمالي العقلانية، انهت كذلك العزلة المحلية للمجتمع الاقطاعي بفتحها وسائل للاتصال جديدة وخلقها لتفاعل تجاري وتقني لم يسبق له مثيل. ان الرأسمالية ما وحدت الدول القومية(٢) الا لتبشر بتخطي الدولة القومية وظهور علاقات دولية على نطاق شامل حقا .

ذلك ان الرأسمالية تقيم سوقا عالميا يستدعي تطورات ضخمة في وسائط النقل والمواصلات ، وهذه بدورها تحفز توسيع الصناعة وزيادة راس المال والطلب . «ان الحاجة الى سوق يتسع باستمرار لمنتجات البورجوازية ، انما يطارد البورجوازية على سطح الارض كلها» . والاسعار الرخيصة للسلع البورجوازية هي «المدفعية الثقيلة التي تقوض بها كل الاسوار الصينية» وتجبر بها كل الامم «تحت طائلة الفناء» على تبني نظامها هي .

في التحليل الاخير ، تنبثق حركية الرأسمالية عميقة الجذور وميولها التوسعية عن نمط الانتاج ذاته : المراكمة الخاصة لرأس المال على اسس تقنية متسعة (٣) . فقانون نمط انتاج كهذا هو بالنسبة للرأسمالي الفرد : زد (راكم) او فلتمت . ويضطر الرأسمالي الفرد او المؤسسة الرأسمالية الى السعي وراء غزو اسواق جديدة وتطوير تقنيات جديدة وزيادة العوائد باستمرار ، والا فني هذا الرأسمالي بفعل المنافسة . هذا هو القانون الحديدي للنظام الرأسمالي ، وهو قانون لا يمكن تغييره الا بتثوير النظام نفسه : تشريك عملية التراكم وتنظيمها حسب خطة عامة .

ومع تطور الرأسمالية ، يدخل التوسيع والتكامل (التشريك) المستمر لقوى الانتاج وعملياته اكثر فأكثر في صدام مع التنظيم «الخاص» للانتاج الذي لم يتغير، مع التراكم المتمركز باطراد لرأس المال (الاجتماعي) والقوة الاقتصادية . ويتجلى هذا الصدام بين وسائل الانتاج ونمط الانتاج اكثر ما يتجلى في الازمات الاقتصادية التي يتسع مداها باستمرار حتى يؤدي تخلخل الانتاج الرأسمالي في النهاية الى انهيار حاد وبطالة وتعاسة لا توصف . وهذا لا يحدث في مصنع واحد او صناعة واحدة ، ولا حتى في امة واحدة ، بل على امتداد العالم الرأسمالي كله .

ولا شك في ان الصدام في اطار الازمة بين الحاجة الانسانية الضخمة من جهة والخمول المفروض على وسائل اشباع هذه الحاجة من جهة أخرى يبين الى اي مدى اصبح المجتمع ذاته مجرد وسيلة للمراكمة الخاصة لرأس المال ، بدل ان يكون تراكم

---

٢ - يرى ماركس وانجلز ان الانتاج الرأسمالي مركز السكان والصناعة وجعل الملكية تتركز في أيد قليلة . وكانت «النتيجة الضرورية» لذلك التمركز السياسي . «فأصبحت المقاطعات المستقلة او المرتبطة بشكل فضفاض ذات المصالح والقوانين والانظمة الضريبية والحكومات المختلفة مجتمعة في أمة واحدة ذات حكومة واحدة وقوانين موحدة ومصلحة طبقية واحدة وحدود واحدة وتعرفة جمركية واحدة» . المصدر ذاته .

٣ - ان نمطا كهذا يتطلب تاريخيا وجود سوق للعمل المأجور الحر ، وماركس يعرّف «نمط الانتاج» على اساس علاقة رأس المال - العمل .

راس المال وسيلة لاشباع الحاجات الاجتماعية (٤) . كذلك يبدو التناقض بشكل لا يقل وضوحا في الفقر والحرمان اللذين يستمران في اوقات «الازدهار»الراسمالي وسط التبديد الرهيب للموارد الانسانية والمادية في انتاج زائد عن الحاجة وقدرات لم تستثمر بشكل كامل (٥) .

ومع الاتساع المستمر في قوى الانتاج وتقدم المنافسة الراسمالية ، تسيطر في النهاية ظاهرتا الاحتكار والامبريالية على اقتصاد النظام الراسمالي في الاقطار المختلفة وعلى امتداد العالم . وهنا يختلف المنظور البلشفي عن منظور ماركس بالتركيز على هاتين الظاهرتين اللتين تسمان المرحلة المحافظة من التطور الراسمالي.

يجب عند تحليل هذا المنظور ان يلاحظ منذ البداية ـ خاصة وان الكثير من الاخطاء قد وقع بصدد هذه النقطة بالذات ـ ان حركة الاستعمار ، اي «تقسيم العالم» الذي يسم بميسمه نهاية القرن التاسع عشر (ويشكل بالتالي موضوع معظم النظريات البلشفية) ، لا تمثل غير مرحلة واحدة من مراحل التطور الراسمالي وكذلك التطور الامبريالي معا . وبكلمات أخرى ، ان الاشكال السياسية المخصوصة التي اقترنت بالامبريالية الكلاسيكية لم تنشأ تماما في المرحلة المحافظة من التطور الراسمالي ولا هي بالضرورة تستنفد كل امكانيات هذا التطور .

أدرك ماركس ان الاحتكار والامبريالية ، اي تمركز القوة داخل الاقتصاد السياسي المحلي وتوسع راس المال (واشكال سيطرته) خلف الحدود القومية، كامنان في عملية التطور الراسمالي ذاتها : التثوير الدائم لقوى الانتاج ، التوسع المستمر لقاعدتها ، الامتداد الدائب للتجارة ، وفوق كل شيء الصراع بين الوحدات الاقتصادية الراسمالية على السيطرة والتحكم بأسواق العالم الراسمالي المتسعة . فالراسمالية حتما قوة توسعية ، وليس ذلك فحسب بل انها ايضا قوة مسيطرة عالميا وكذلك محليا . ذلك ان راس المال لا يسعى فحسب الى دخول الاسواق بل والسيطرة عليها كذلك . وهو مضطر الى ذلك بفعل الصراع التنافسي الذي شكل القوة الدافعة لتراكمه واتساعه منذ البداية :

«كي يكون الاحتكار كاملا ، لا يتوجب القضاء على المنافسين في السوق المحلي (سوق البلد المعني) فحسب ، بل وفي السوق الاجنبي كذلك ، في العالم كله ... والوسائل التي تحقق هذه الغاية هي .. التبعية المالية وتجميع مصادر المواد الخام وشراء مشاريع المنافسين» (٦) .

---

٤ ـ انظر راس المال ، المجلد الثالث ، ص ٢٤٥ . وبصدد نظرية الازمات لدى ماركس انظر سويزي، نظرية التطور الراسمالي وموريس دوب ، الاقتصاد السياسي والراسمالية .

٥ ـ بصدد الانتاج المهدور والقدرات غير المستثمرة في الراسمالية المعاصرة ، انظر ج.ك. غالبريت «مجتمع الوفرة» . وكذلك بول باران «تأملات حول نقص الاستهلاك» ، وكذلك باران وسويزي «اقتصاديات العالمين» ، وكذلك باران وسويزي «الراسمال الاحتكاري» .

٦ ـ لينين ، «كاريكاتور الماركسية والاقتصادية الامبريالية» كما ورد في بريوبراجنسكي ، الاقتصاد الجديد ، ص ١٥٤ .

تستخدم البورجوازية العملية ذاتها التي اخضعت بها الريف للمدينة الصناعية بعملها المتفوق وانتاجيتها المرتفعة وسلعها الرخيصة ، تستخدمها لتجعل «البلدان البربرية وشبه البربرية تابعة للبلدان المتحضرة ، لتجعل أمم الفلاحين تابعة لامم البورجوازية ، والشرق تابعا للغرب» (٧) .

ولذا فان الامبريالية ، اذا نظر اليها نظرة صحيحة ، هي ظاهرة العلاقات الرأسمالية وقد اعيد انتاجها على نطاق عالمي او بالاحرى نطاق يتخطى الحدود القومية ، حيث الصراع على السيطرة بين الامم يحل محل الصراع بين الطبقات الاقتصادية ويتقاطع معه . ان حرب السيطرة على الاسواق العالمية (في الاقطار النامية والمتخلفة معا (٨)) تشن بوسائل مختلفة ويمكن ان تتحقق بطرق اقتصادية غالبة او مزيج من الوسائل الاقتصادية والسياسية و/ او العسكرية ، وذلك تبعا للفترات التاريخية المختلفة واختلاف ميزان القوى الدولية .

وعندما تكون سيادة احدى القوى الامبريالية مطلقة ، كتلك التي تمتعت بها انجلترا من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٧٠ ، فان ذلك يؤدي بالطبع الى حل مشاكل السيطرة بطرق سلمية نسبيا . ولكن عندما تكون القوة المسلحة لاحدى الدول القومية ضرورية للحصول على اسواق عالمية ، فان تاريخ الراسمالية يبين عموما ان القوة المسلحة تستخدم حينئذ . فالبورجوازية تستطيع ان تستخدم الدولة لضمان السوق المحلي عن طريق التعرفة وما شابهها ، وبالطريقة ذاتها تستخدم قوة الدولة لضمان توسعها وظمأها الى السيطرة فيما وراء البحار . وهي تستطيع ذلك اولا بسبب موقعها المسيطر داخل الاقتصاد السياسي المحلي وثانيا لان الازدهار المحلي يتقرر ، طالما ظل الاطار الاقتصادي القومي راسماليا ، حسب موقع الدولة في تراتب السوق العالمي (٩) ، ومن هنا تبدو المصالح الامبريالية والقومية وكأنها متطابقة . هكذا فان تاريخ الرأسمالية الاحتكارية هو في الوقت ذاته تاريخ تقوية الدولة وامتداد ذراعها العسكرية .

وفي حين ان الكثيرين من الناطقين باسم الامم الراسمالية الاكثر تقدما والاكثر توسعية كانوا يعون توافق المصالح هذا ويفهمون حق الفهم العلاقة الكامنة بين منطق التجارة الرأسمالية وضرورة السيطرة الاقتصادية في ما وراء البحار ، الا ان قلة منهم عبرت عن ذلك بصورة أوضح مما فعل السياسي الاميركي «المثالي» وودرو

---

٧ ـ البيان الشيوعي . سنبحث نتائج الاخضاع الاقتصادي فيما بعد . انظر الملاحظة التالية .

٨ ـ ان هذه نقطة هامة . فقد عرف كاوتسكي مثلا الامبريالية على انها سيطرة البلدان الصناعية على البلدان الزراعية فحسب ، غافلا عن الصراع من اجل الهيمنة على السوق بين القوى الصناعية. وقد انتقده لينين لذلك . من جهة اخرى ، عزا بعض النقاد الى لينين نظرة كاوتسكية خطأ ، وافترضوا ان مجرد وجود استثمارات امبريالية في مناطق متقدمة نسبية يدحض نظرية لينين في الامبرياليـة .

٩ ـ بصدد مفهوم التراتب ، انظر باران وسويزي ، رأس المال الاحتكاري ، ص ١٧٨ .

ولسون ، فقد قال في عام ١٩٠٧ «ما دامت التجارة تتجاهل الحدود القومية وما دام الصناعي يصر على ان يكون العالم كله مسوقا له ، فان على راية أمته ان تتبعه ، ويجب ان تحطم ابواب الامم المغلقة» (١٠) .

لا شك ان السمة الاساسية للعلاقات الدولية كانت ، حين صاغ البلاشفة تحليلهم ، التقسيم الاستعماري السريع للعالم المتخلف . وكانت هذه الحركة الضخمة للحصول على مستعمرات جديدة بمثابة قلب للاتجاه السياسي السابق للقوى الراسمالية المسيطرة ، وعلى الاخص انجلترا (١١) . وفي هذا توكيد للحقيقة التي سبق ان ذكرناها والتي يجري تجاهلها باستمرار وهي ان السيطرة السياسية المكشوفة ، مهما كانت سمة مميزة لمرحلة معينة من مراحل التطور الامبريالي ، ليست اداة لا غنى عنها للقوى الامبريالية الراسمالية في سعيها الى اسواق تابعة ومصادر للمواد الخام . وقد ادرك لينين نفسه ذلك وأشار في وقت مبكر يعود الى عام ١٩١٦ الى ان تغيرا في العلاقات الاستراتيجية بين القوى الراسمالية قد يسمح مثلا للهند بالحصول على استقلالها في المستقبل . وعبر عن ذلك بقوله «ان سيطرة رأس المال المالي ورأس المال بشكل عام لن تلغى عن طريق اية اصلاحات في حقل الديمقراطية السياسية» (١٢) .

---

١٠ ــ ومضى ولسون شارحا : «يجب على وزراء الدولة ان يصونوا الامتيازات التي يحصل عليها المتمولون ، حتى ولو ادى ذلك الى خرق سيادة الدول غير الراضية» . ورد في وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ، ص ٦٦ . رغم خطابية النقاط الاربع عشرة ، ظل ولسون ملتزما بوجهة النظر هذه طيلة مدة رئاسته ولم يكن وزير خارجيته ، المصلح وليام بريان ، مرائيا ولا منافقا عندما قال لجماعة من كبار رجال الاعمال : «استطيع القول ــ لا مجاملة ولكن كحقيقة واقعة ــ ان وزارتي وزارتكم وكذلك كل سفرائها ووزرائها المفوضين وقناصلها . وواجب هؤلاء جميعا ان يرعوا مصالحكم ويصونوا حقوقكم» . المصدر ذاته ، ص ٧٨ ــ ٧٩ . لقد كان الدفاع عن مصالح المؤسسات الاميركية فيما وراء البحار ضد دعاوى الحكومات الاجنبية ، مهما كان ذلك غير مشروع طبقا للقانون لدولي (وفيما بعد طبقا لمبادىء الامم المتحدة) حجر الاساس في سياسة كل الادارات الاميركية المتعاقبة حتى يومنا هذا .

١١ ــ هكذا ادلى دزرائيلي بملاحظته الشهيرة عام ١٨٥٢ «ان هذه المستعمرات ستحرز استقلالها بعد بضع سنوات وتصبح كحجر الرحى يثقل اعناقنا» . بينما اعلن بعد ذلك بعشرين سنة تحوله الى سياسة تعزيز التوسع الامبريالي .

١٢ ــ لينين ، الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير مصيرها ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ . انظر هيوبرمان وسويزي ، الامبريالية والاستقلال القومي ، في «منتلي ريفيو» ، كانون الاول ١٩٦٣ . «ان اي قطر متخلف ، ما دام أسير السوق الرأسمالي العالمي ، سيظل خاضعا في الواقع للاستغلال الامبريالي (اسعار متلاعب بها لصادراته واسعار احتكارية لوارداته) . وفي احسن الحالات يظل عرضة لخطر دائم هو الوقوع مجددا تحت ربقة السيطرة السياسية» . بصدد دراسات عن وسائل السيطرة الاستعمارية الجديدة ، اي الوسائل غير السياسية المكشوفة، انظر ميكائيل كيردون «التوظيفات الاجنبية في الهند» . وكذلك غاندر فرانك «الامبريالية والتخلف في اميركا اللاتينية» . وكذلك ق. نكروما : «الاستعمار الجديد» . وكذلك حمزة علوي «الامبريالية الجديدة» (منشورات دار الطليعة) .

ان المنابع الفعلية لهذا التحول الدرامي الى الاستعمار السياسي المكشوف في أواخر القرن التاسع عشر متعددة الجوانب ، ولا يمكن ان تحل المسألة التاريخية المعقدة التي تمثلها هذه الظاهرة بمجرد الاشارة الى «الاسس» الاقتصادية للفعل الاجتماعي ، ومن جهة أخرى ليس هناك من شك في ان الاطار الاقتصادي للعلاقات الدولية في ذلك الحين لعب دورا هاما في اعطاء هذه التطورات شكلها . وبدون الدخول في التفصيلات المعقدة لتأثيرات هذا الاطار (نمو اشكال الاحتكار العالمي ، الركود الاقتصادي في الاسواق المحلية الخ) ، يمكن عزل ظاهرة رئيسية واحدة من ظواهر التطور في الصورة الدولية هو الذي كان بمثابة الاساس الذي عملت عليه كل التأثيرات الاخرى . كانت بريطانيا حتى ذلك الحين وعلى الاقل منذ عام ١٨١٥ القوة الصناعية والبحرية السائدة ، وكانت باطراد تذود عن مبادىء التنافس الحر في الاسواق العالمية ــ وهذا موقف طبيعي لمنافس يتمتع بمثل هذه السيادة المطلقة. ولكن مع صعود عملاقين صناعيين آخرين ، المانيا والولايات المتحدة ، اصبحت بريطانيا فجأة عرضة للتحدي الاقتصادي .

واذا اخذنا هذا التحدي بعين الاعتبار ، يمكننا ان نفهم الاندفاع العام نحو الحصول على مستعمرات في ذلك الحين (١٣) . ففي عالم يحفل بالانداد الذين يزدادون تنافسا فيما بينهم ويوجهون انظارهم نحو آفاق عالمية ، لا بد ان تؤدي اية حركة من جانب احدهم للحصول على اسواق جديدة او مصادر مواد خام جديدة بالوسائل السياسية (سواء أكان الاندفاع نحو اقامة امبراطورية كهذه ناجما عن دوافع اقتصادية ام لم يكن) الى استثارة تدافع «وقائي» عام للحصول على أسلاب استعماريةللحيلولة دونخسارة اسواقراهنة او اسواق يمكن ان تكون ذات قيمةفي المستقبل (١٤) . ويبدو اليوم ومن منظور السنوات الماضية ان هذا كان عاملا هاما ــوحتى حاسماــ في انتاج هذه الظاهرة .

وهناك سمة أخرى هامة لهذه المرحلة الخاصة والعرضية في التطور الراسمالي ــ الامبريالي التي سيطرت على العلاقات الدولية في مطلع القرن . تتمثل هذه السمة في الدور الذي لعبه تصدير فائض رأس المال في السعي نحو اسواق فيما وراء البحار . وهذا أيضا امر نسب عن خطأ وتشوش الى النظرية البلشفية العامة

---

١٣ ــ في عام ١٨٧٥ كان ١٠ بالمئة فقط من افريقيا مقتسما ، وفي نهاية القرن لم يبق مستقلا منها غير ١٠ بالمئة .

١٤ ــ في الواقع يبدو أن منافسا أضعف هو فرنسا كان الحافز على هذا التدافع . وبالضبط لان التدافع كان وقائيا في طبيعته الى حد بعيد ، لم يكن الكثير من المستعمرات التي تم الحصول عليها يساوي الثمن الذي دفع لقاء ذلك اذا قيس الامر بالعائدات المباشرة ، وتلك حقيقة كثيرا ما تستخدم عن خطأ للتقليل من اهمية الاطار الاقتصادي في فهم الظاهرة . وقد بحث الطابع الوقائي لجزء كبير من هذا التوسع الاستعماري في سويزي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٣ ، وفي لينين ، الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية .

في الامبريالية . فالمفهوم الذي ينص ان فائض التوفيرات او الافتقار الى الطلب على الاستثمار في الاسواق المحلية (وبالمصطلحات الماركسية الكلاسيكية ، صعوبة «تحقيق فضل القيمة»)) هو الآلية التي تدفع بالرأسماليين الى الخارج وتجعل التوسع الامبريالي امرا لا غنى عنه للرأسمالية بشكل عام يعود الى روزا لوكسمبورغ والليبرالي ج. هوبسون (١٥) . وقد دحضه لينين وغيره من المنظرين البلاشفة صراحة (١٦) .

هذه نقطة هامة . ذلك ان الموضوعة الهوبسونية كنظرية بصدد الظاهرة العامة للتوسع الامبريالي يمكن ان يثبت خطؤها على أسس تجريبية ثم تستخدم بعد ذلك لتكذيب النظرية الاقتصادية بشأن الامبريالية . ان من المستحيل القول بأن عدم كفاية الاسواق المحلية ومشكلة التخلص من راس المال الفائض لا تلعب دورا ، بل وحتى دورا هاما ، في انتاج ظاهرة التوسع الرأسمالي. فحتى نقاد التحليل الماركسي يعترفون بأنها كانت عاملا هاما في أحداث مطلع القرن ، في حين ان المكان الذي يعطى لها في المنظور الايديولوجي للامبرياليين انفسهم يعطيها اهمية حاسمة (١٧) . اما ان يقال ان ذلك سبب اساسي في الاندفاع التوسعي العام للرأسمالية ، فذلك امر غير مبرر تجريبيا وخاطىء نظريا . ذلك ان أسس التوسعية الرأسمالية تكمن في ان الرأسمالية تطور سوقا سلعيا «يتخطى حدود الدولة» (١٨) وانها تمد العلاقات الراسمالية بما لها من ميول احتكارية وتسلطية ، الى حقل العلاقات بين الدول . ولذا فان الامبريالية هي ببساطة رأسمالية اخترقت حدود الدولة القومية ، كما تغلبت في البداية على عزلة القرية في الحقبة الاقطاعية ويترتب على ذلك ان الظاهرتين لا يمكن فصلهما : لا يمكن ان تنتهي الامبريالية دون انتهاء الرأسمالية .

لا شك في ان احد المصادر الاساسية للخلط بصدد هذه المسائل (وهو في الواقع خلط بين احدى مراحل التطور الرأسمالي وبين ظاهرة الراسمالية الامبريالية ذاتها) يكمن في النظريات الماركسية ذاتها وعلى الاخص في النظريات البلشفية . ذلك ان البلاشفة اعتبروا سيطرة «راس المال المالي» والاستعمار السياسي على انهما المرحلة «العليا» النهائية في التطور الرأسمالي والامبريالي (١٩) ، وأن هذه

---

١٥ ـ طبقا لهوبسون «الامبريالية هي سعي المسيطرين الكبار على الصناعة الى توسيع قناة تدفق ثروتهم الفائضة بالحصول على اسواق اجنبية واستثمارات اجنبية تستوعب راس المال والبضائع التي لا يستطيعون بيعها محليا» .

١٦ ـ انظر مثلا : بوخارين ، الامبريالية والاقتصاد العالمي . لينين ، تطور الرأسمالية في روسيا، الفصل الاول ، القسم الثامن «لماذا تحتاج الدولة الرأسمالية الى سوق اجنبية ؟» .

١٧ ـ انظر بحثنا لايديولوجية الامبريالية الاميركية فيما بعد .

١٨ ـ لينين ، المصدر ذاته ، ص ٤٤ .

١٩ ـ للاطلاع على وجهة نظر ماركسية بشأن عدم انطباق التصور «اللينيني» على المرحلة المعاصرة من التطور الامبريالي ، انظر ميكائيل كيردون «الامبريالية ، المرحلة العليا ما قبل الاخيرة» .

المرحلة المخصوصة من مراحل تطور العلاقات الاجتماعية الامبريالية هي شكل الانتقال الى نظام اشتراكي عالمي . ولذا فقد اكد البلاشفة في كتاباتهم اكثر مما يجب على اهمية هذه المرحلة وسماتها ، وكانوا يميلون الى استثناء اي تطور ممكن لاشكالها ضمن الاطار الراسمالي (٢٠) . وادى هذا بالماركسيين اللاحقين الى مماثلة الخاص بالعام : الامبريالية ، وهي اعلى مراحل التطور الراسمالي ، ليس لها هي ذاتها مراحل . وتضاعف هذا التشويه للواقع الى درجة كبيرة بفعل عبادة شخصية لينين في العهد الستاليني التي اعطت فيما بعد عصمة مطلقة لكتيب لم يكن يدعي اطلاقا انه يقدم نظرية رسمية بصدد الامبريالية (٢١) . وبسبب هذا الاحترام شبه الديني للينين لم تكرر اخطاؤه فحسب بل زوّر الكثير من آرائه الصحيحة بتطبيقها على ظروف مغايرة . واكثر من ذلك ، اصبح من المستحيل تطوير اي منظور بصدد النظرية اللينينية او البلشفية ذاتها ، ومنظور كهذا ضروري لتقييم النجاح والفشل البلشفيين وكذلك لتحليل السبيل الذي سارت عليه التطورات التاريخية اللاحقة .

***

لربما كانت فكرة مرحلة «نهائية» للتطور الراسمالي مصدر تشوش نظري لعدد من الاجيال اللاحقة ، ولكنها كانت بالنسبة للبلاشفة تؤطر منظورا لرؤية آفاق الثورة العالمية ، وكان لهذا اهمية بالغة على نتيجة نضالهم ذاته في روسيا . وقد وضع البلاشفة قدرا كبيرا من التأكيد على تمركز وتركز وسائل الانتاج ، وربطوا تحليلهم عن وعي بوصف ماركس للكيفية التي نضج بها التناقض «الثوري» داخل الاقتصاد الراسمالي الوطني المعزول (٢٢) .

وذهب التحليل البلشفي الى القول ان الراسمالية في البداية شقت طريقها الى العالم باسم الحرية ضد احتكارات الاقتصاد الاقطاعي القائمة على الحماية (٢٣) . ومع ذلك فقد ظهر الاحتكار ، او تمركز القوة الاقتصادية ـ وذلك هو النقض المباشر للتنافس الراسمالي ـ كنتيجة حتمية للراسمالية . ولذا فان الراسمالية بعد ان قضت على السيطرة الاقطاعية مضت بفعل منطق تطورها ذاته الى الغاء الحرية الراسمالية وحتى الملكية الراسمالية (عندما صار تركز القوة الاقتصادية يفصل باطراد

---

٢٠ ـ على الرغم من ان لينين كان كما رأينا على وعي لاحتمالات كهذه .

٢١ ـ حتى ان كتيب لينين «الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية» لم يدع انه مبتكر، بل كان كما اشار لينين نفسه مستقى من اعمال الليبرالي هوبسون والماركسي هيلفردينغ . ومقارنة كتيب لينين هذا مع كتيب بوخارين الذي يماثله صغرا «الامبريالية والاقتصاد العالمي» يكشف في الحال الفارق ما بين معالجة نظرية للامبريالية وكتيب سياسي حولها .

٢٢ ـ انظر رأس المال ، المجلد الاول ، الميل التاريخي للتراكم الراسمالي .

٢٣ ـ من الواضح ان هذه الصياغة بحاجة الى اثبات في حالة المانيا واليابان .

الملكية عن الادارة) (٢٤) . لكن الاحتكارية الجديدة لم تكن مجرد نسخة عن الاحتكارية القديمة . ذلك ان هذه الاحتكارية ، اذ قامت على اساس تقني أرفع الى حد بعيد، أنما مهدت السبيل امام اطار اجتماعي «أرفع» وأكثر عقلانية . كان هذا هو منظور ماركس الثوري : ان تمركز الانتاج هو ايضا تشريك الانتاج ، هو تطويـــر أسس متداخلة وتعاونية بشكل متزايد للعمل الاجتماعي . لكن الاحتكارية الرأسمالية في الوقت الذي تقضي فيه على الطابع المستقل الخاص للانتاج تحافظ على تنظيمــه المحدود . ويتجلى هذا التناقض ما بين الطابع الاجتماعي للانتاج والاساس«الخاص» له في ازدياد الركود والفقر الاجتماعي وسط ازدياد القدرة الانتاجية والوفــــر الخاص (٢٥) ، وهذا يوفر الارض الثورية لتحويل المجتمع الى نظام صناعي عقلاني واجتماعي تماما (٢٦) .

بالطبع ، لم تكن هذه العملية ، التي بدا للبلاشفة انها نضجت في نهاية القرن التاسع عشر رغم ارتفاع مستويات المعيشة (٢٧) ، مقتصرة على الاقتصاد الوطني . فقد كرر تركز راس المال العالمي انتاج الظاهرة المحلية . وفضلا عن ذلك ، فكما ان مثل النظام البورجوازي وسيطرة السوق التي تؤدي الى التناغم والتساوق قــد دمرت محليا ، كذلك على المستوى العالمي قضي على سيادة السلام البورجوازي في الخارج وانبعثت شرور المركنتيلية الاقطاعية : تجارة تتمتع بالحماية ، امبراطورية سياسية وحرب امبريالية (٢٨) . ويكمن اساس هذا التحول ، طبقا لرأي البلاشفة، في التناقض الاساسي النظام الرأسمالي العالمي : عدم توافق توسع قوى الانتاج خلف الحدود القومية مع الاستملاك المحدود «القومي» للثروة العالمية . وبدا ان التناقض الداخلي بين تشريك قوى الانتاج وبين السيطرة الخاصة المحدودة ، التي

---

٢٤ ــ انظر راس المال ، المجلد الثالث ، الفصل السابع والعشرون .

٢٥ ــ للاطلاع على مراجعة ما بعد كينزية واعادة صياغة لهذا المنظور ، انظر باران وسويزي ، رأس المال الاحتكاري . وللاطلاع على نقد ماركسي لعقيدة الافقار المتزايد ، انظر ميك ، الاقتصاد والايديولوجيا .

٢٦ ــ انظر راس المال ، المجلد الاول .

٢٧ ــ ادرك البلاشفة ان تحسنا قد طرأ على حالة الطبقات العاملة الغربية وعزوا ذلك الى الاستغلال الامبريالي . لقد نضجت الشروط الموضوعية للتحول ، لكن الشروط الذاتية للثورة لم تتوفر بعد.

٢٨ ــ انظر هيلفردينغ ، رأس المال المالي ، ١٩١٠ : « ان مطلب التوسع السياسي يثور نظرة البورجوازية الى العالم بأكملها ... ان دعاة حرية التجارة القدماء كانوا يؤمنون بالتجارة الحرة لا على انها افضل سياسة اقتصادية فحسب ، بل وكذلك على انها بداية حقبة السلام . اما راس المال المالي فقد تخلى عن مثل هذه المفاهيم منذ أمد . انه لا يؤمن بتناغم المصالح الرأسمالية ، بل يعرف ان الصراع التنافسي يقترب اكثر من اي وقت مضى من معركة سياسية على السلطة . لقد اندثر مثال السلام ، وحل محل مثال الانسانية مثال قوة الدولة وجبروتها» . انظر كذلك برتراند رسل ، الحرية مقابل التنظيم .

تتركز باستمرار ، عليه يقوم الاساس لازمات اقتصادية محلية تزداد عمقا (وبالتالي الى تزايد التوسع الخارجي) ، وكذلك كان التناقض بين تدويل الانتاج واطاره المحلي المحدود يؤدي حتما الى حروب بين القوى الامبريالية (٢٩) .

وما ان حلت نهاية القرن التاسع عشر ، حتى كانت هذه العملية قد نضجت بعدة طرق مدهشة . فقد كان تقسيم العالم سياسيا بين عدد من القوى العظمى يقترب من الكمال ، واصبح من الواضح ان هذا التقسيم لا يمكن ان يكون نهائيا ، بل هو فحسب مدخل لصراعات عسكرية من اجل اعادة التقسيم . ذلك ان اساس اي «اقتسام» كهذا ، ضمن اطار الرأسمالية العالمية ، لا يمكن ان يكون اكثر من انعكاس تقريبي لنسبة القوى الراهنة بين الدول المشتركة فيه . غير ان القوة «تتغير مع تغير التطور الاقتصادي» ، فكان ان ادى تفاوت التطور الراسمالي تفاوتا عميقا الى قلقلة هذا التوازن . فالمانيا التي لم تكن شيئا قبل خمسين عاما اذا ما قورنت بانجلترا اصبحت الان تبرز بوصفها القوة المسيطرة في اوروبا دون ان تتمتع بأي حصة مناسبة في التقسيم العالمي الذي كان قد تم قبل ذلك . وفي هذا الوضع ، كانت بذور الصدام واضحة (٣٠) .

وهناك تعبير آخر عن الكيفية التي نضجت بها التناقضات الثورية للرأسمالية العالمية ، ذلك هو نمو ظاهرة العسكرية في تلك الفترة على نطاق لم يسبق له مثيل. وكان هذا جزئيا نتيجة تراكم مشاكل الاقتصاديات الراسمالية الناضجة المحتكرة. فالصناعات الحربية لا تقدم فرص استثمار مربحة لمجموعة من المصالح الراسمالية تزداد شوفينية باستمرار فحسب ، ولكنها كذلك توفر وسيلة لرفع مستوى الطلب في الاقتصاد ككل (٣١) . وفي اقطار كالمانيا واليابان كان نمو العسكرية مرتبطا

---

٢٩ ــ يبدو ان هذا التصور قد نشأ مع بارفوس ، ولكنه يتخلل الكتابات البلشفية جميعا . والفقرة التالية من كتاب بوخارين نموذج على ذلك : «ان الانتاج ذو طبيعة اجتماعية ، وتقسيم العمل العالمي يجعل الاقتصاد «الوطني» الخاص جزءا من عملية عملاقية شاملة تشمل الانسانية بأسرها تقريبا . غير ان التملك يتخذ طابع تملك «وطني» (دولة) حيث المستفيد شركات ضخمة تملكها بورجوازية رأس المال المالي. ويتحرك تطور القوى الانتاجية ضمن حدود ضيقة هي حدود الدولة ، في حين انه قد نما متخطيا هذه الحدود . وفي ظل هذه الظروف ، ينشأ حتما صدام يسوّى، في اطار الرأسمالية القائمة ، بتوسيع حدود الدولة عبر صراعات دموية . لكن هذه التسوية تحمل في باطنها صراعات اضخم وأضخم باستمرار» (ص ١٠٦) .

٣٠ ــ لينين ، الاشتراكية والحرب ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، ص ٣٤١ . وأيضا الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية ، الفصل السادس والفصل السابع . وايضا برتراند رسل ، المصدر السابق، ص ٢١٠ ــ ٢١١ .

٣١ ــ انظر روزا لوكسمبورغ ، تراكم رأس المال . وكذلك سويزي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

بحلول التطور الرأسمالي الصناعي في وقت متأخر (٣٢) . ومع ذلك كله فلا شك في ان احد المصادر الاخرى لهذه الظاهرة هو الحاجة الى القوة العسكرية لاخضاع الاقطار المستعمَرة التابعة ولدعم الصراع الدبلوماسي بين القوى العظمى على هذه الاقطار وعلى السيطرة على الاسواق العالمية وكذلك للاعداد لعسكرة هذا الصراع التي تزداد حتمية باطراد .

ويرتبط ارتباطا وثيقا بنمو النزعات العسكرية المشؤومة في عهد الرأسمالية الاحتكارية والتوسع الامبريالي انبعاث القومية وتحولها . لقد كانت القومية قوة تقدمية اساسا في المراحل الاولى للتطور الرأسمالي في الغرب . فقد خلقت الثورة البورجوازية في فرنسا مفهوم السيادة القومية (سيادة الشعب داخل الامة وعبرها) فألغت بذلك مفهوم الدولة كحقل سيطرة شخصي للملك . حرية القن من طغيان الاقطاعي ، حرية الشعب من طغيان الحاكم ، حرية الامة ذاتها من طغيان الامبراطورية كل هذه الحركات كانت تنضوي بدرجة او بأخرى تحت لواء تقرير المصير القومي .

لكن تغيرا دراميا طرأ على محتوى القومية الغربية بحلول راسمالية الاحتكار والتوسع الاستعماري . فكفت القومية عن تجسيد اهداف تقرير المصير وتحرير الشعوب المضطهَدة ، واصبحت بدلا من ذلك ايديولوجية التوسع والسيطرة ، وهكذا حملت تلك المشاعر الشوفينيةوالعرقية التي ارتبطت بها منذ ذلكالحين(٣٣). حلل الماركسي الالماني هيلفردينغ في مطلع القرن العشرين الجذور الاجتماعية لهذا التحول الكامنة في تطورات الحقبة الرأسمالية :

«تنعكس المنافع الاقتصادية للاحتكار ويجري تصورها في افضل مكان ، وهذا المكان يجب ان يعزى لأمة المرء ذاتها . ومن هنا تبدو هذه الامة وكأنها فوق الامم الاخرى . وبما ان اخضاع الامم الاخرى يتمبالقوة ... يبدو للأمة المسيطرة ان تفوقها عائد الى خواصها الطبيعية المميزة ، وبكلمات اخرى الى خصائصها العرقية».

ولذا يظهر في الايديولوجية العرقية :

«اساس مموه علميا لشهوة راس المال المالي الى السيطرة ، وبهذه الطريقة يجري تبيان اسباب وضرورة عملياته (عمليات رأس المال المالي) » .

هكذا يستبدل في المرحلة الامبريالية مثال المساواة الديمقراطي ، الذي كان

---

٣٢ ـ بصدد العلاقة بين العسكرية وتضافر البنى الاقطاعية والتقنية الحديثة ، انظر فيلن ، المانيا الامبريالية والثورة الصناعية . وكذلك تانين ويوهان ، العسكرية والفاشية في اليابان .

٣٣ ـ انظر برتراند رسل ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ . وعلى المستوى الداخلي ايضا ، اصبحت القومية قوة رجعية في عهد تعزيز المكاسب الرأسمالية ، فقد اصبحت تزود البورجوازية الحاكمة بمصدر تماسك محافظ في وجه الثورة الدائمة المتضمنة في البرنامج البورجوازي والتي تسعى الطبقات الادنى الى دفعها باستمرار .

يشكل حتى ذلك الحين المحتوى الاجتماعي للقومية، بمثال السيطرة الاوليغاركي (٣٤).

وبالنسبة لالمانيا ، حيث القومية الشوفينية تظهر وتعاود الظهور بشكل خبيث بصورة خاصة يمكننا ان نضيف الى العوامل الواردة في تحليل هيلفردينغ تراث التطور المتأخر بأشكاله المختلفة . فقد دخلت التقنية الصناعية والعلاقات الاقتصادية الرأسمالية ، بقوتها الموحّدة العارمة ، في اطار بنى وعلاقات اقطاعية . واذ حرمت المانيا من الآثار المحررة المطهرة لثورة بورجوازية ناجحة ، انتقلت اشكال الخنوع والولاء المتأخرة ، خلال التوحيد ، مباشرة من البلديات المحلية الى الدولة القومية «الملكية» (٣٥) . كذلك ادى تقارب مرحلة التوحيد مع مرحلة التوسع الامبريالي في المانيا الى تعزيز وتكثيف قوى الشوفينية الالمانية ، كما فعل الامر ذاته ظهورها بعد ذلك كفوة عالمية مما اعطاها شعورا «بالضيم»القومي ضد القوى الامبريالية المسيطرة. (ويمكن القول ان عوامل مشابهة لعبت دورا مماثلا في تطور اليابان الحديثة) .

ان النزعات التوسعية والعسكرية والقومية الشوفينية ، التي تجذرت بعمق في بنية العلاقات الرأسمالية العالمية وعملت على ارض التطور الرأسمالي غير المتناسق ، مهدت السبيل في مطلع القرن لحرب عالمية امبريالية . وفي عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٢ ، ادركت الامية الثانية ، التي كانت مشكلة من احزاب ومنظمات اشتراكية ، ان الحرب ازمة من ازمات الرأسمالية ودعت الاشتراكيين الى النضال ضد الاعداد لها ، او استخدامها في حالة نشوبها للاطاحة بالنظام ذاته . ولكن عندما اندلعت الحرب ، لم يف احد غير البلاشفة بالتزاماته ، اما الاحزاب الاخرى فقد تدافعت لدعم حكوماتها القومية .

اعتقد لينين انه على الرغم من ان الحركة الاشتراكية الاوروبية خانت الطبقة العاملة العالمية (٣٦) ، الا ان الشعوب عندما ترى الخراب والدمار اللذين الحقهما بها حكامها الضارون ــ لا من اجل «السلام» او حق «تقرير المصير» او «الديمقراطية» كما كانت الحكومات تدعي بل من اجل اقتسام الغنائم (٣٧) ــ فانها ستستخلص

---

٣٤ ــ هكذا يتساءل دارس حديث لمذاهب الامبريالية مقارنا الامبراطورية البريطانية بالرايخ الالماني الثالث : «لقد كان سلوكهما مختلفا ، فهل كانت ايديولوجيتاهما كذلك حقا ؟ ألم تزودهما الامبريالية بالقوة الدافعة والهدف ؟ ألم يعتبرا مذهب عرق سيد ونظام متفوق وفعالية اكبر وقراءة أصح لخارطة الحياة امرا بديهيا ؟» ثورنتون ، مذاهب الامبريالية .

٣٥ ــ انظر فيبلن ، المصدر السابق .

٣٦ ــ «تقدم القادة العسكريون من البروليتاريا بالتهاني ، وامتدحت الصحافة البورجوازية بحرارة ما اسمته انبعاث روح الامة . لقد كلفنا هذا الانبعاث ثلاثة ملايين جثة» . بول غولاي ، كما اورده لينين ، الاشتراكية والحرب ، المجلد ٢١ ، ص ٣٥٠ .

٣٧ ــ لا الاراضي فحسب ، بل والفائض الذي يعود الى من يحتلون موقعا مسيطرا في السوق الرأسمالي العالمي .

الدرس الثوري : «ان ثورة اجتماعية تقوم بها البروليتاريا هي وحدها التي تفتح السبيل نحو السلام والحرية» (٣٨) .

كانت هذه الثورة امكانية حقيقية في ذهن لينين ؛ ذلك ان الحرب «ربطت الازمة الروسية الثورية ، الناجمة عن ثورة بورجوازية ـ ديمقراطية ، بأزمة الثـــورة الاشتراكية البروليتارية المتنامية في الغرب» . ولذا فان الثورة الروسية «ليست مقدمة» لثورة اوروبية عامة فحسب ، «بل هي جزء لا يتجزأ منها» (٣٩) .

لكن هذا التوقع لم يتحقق . فالثورات التي نجحت في الغرب بعد الحرب لم تكن اشتراكية ، اما الثورات الاشتراكية فقد سحقت . وقد كان لهذا الفشل ، الذي مزل البلاشفة والذي لم يتوقعوه اثر كبير على محاولتهم خلق نظام اجتماعي جديد على انقاض امبراطورية القياصرة . غير ان هذا الفشل لم يخطىء المنظور العـــام للبلاشفة بصدد الراسمالية والثورة ، ذلك انهم لم يفترضوا حتمية الثورة في ازمة هذه الحرب الامبريالية بالذات ، بل افترضوا فقط ضرورتها . كتب لينين « ان واجبي كممثل للبروليتاريا الثورية هو الاعداد لثورة بروليتارية عالمية بوصفها المنفذ الوحيد لتجنب رعب الحرب العالمية» (٤٠) . وكان يعتقد ان هذا الرعب سيزيـــح الغشاوة عن أعين الجماهير ويجذبها الى النضال الثوري الضروري ضد طبقاتهـــا الحاكمة ـ ذلك النضال الذي سيحدث «ان لم يكن اليوم فغدا ، ان لم يكن خلال الحرب فبعدها ، ان لم يكن في هذه الحرب ففي الحرب التي ستليها» (٤١) .

اما بصدد المستقبل القريب فقد كان البلاشفة يعتقدون انه على الرغم من ان اعادة التوازن الراسمالي (عبر الانتعاش الاقتصادي والاصلاح السياسي) بعد الحرب امر ممكن ، بل ومحتمل ، الا ان هذا التوازن لا بد ، في رأيهم ، من ان يكون مؤقتا كما كان التوازن الذي سبق الحرب . ذلك انه لا الازدهـــار الاقتصادي «الموضعي» ولا التغييرات السياسية باستطاعتها القضاء على تفاوت التطور الراسمالي وضراوة الصراع التنافسي او «عدم التوافق الاساسي بين القوى الانتاجية وبين حدود الدولة التي يجري استغلال هذه القوى ضمنها» ، اي انه ليس باستطاعتها القضاء على الاسباب الاساسية لاندلاع الحرب :

«ان القوى الانتاجية لا تزال مقيدة ، اكثر مما كانت قبل الحرب ، ضمن حدود الدول التي اقامها سلم فرساي والعلاقات الجديدة بين القوى العالمية . وينشأ عن

---

٣٨ ـ لينين ، الاشتراكية والحرب ، ص ٣٥٥ .

٣٩ ـ نفس المصدر ، ص ٣٧٩ .

٤٠ ـ لينين ، الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي ـ١٩١٨ـ .

٤١ ـ لينين ، موقع ومهام الاممية الاشتراكية ـ١٩١٤ـ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ . « ان الامبريالية تتهدد بالخطر مصير الحضارة الاوروبية : فسرعان ما يتبع هذه الحرب حروب اخرى ، الا اذا قامت سلسلة من الثورات الناجحة . ان القول بان هذه هي الحرب الاخيرة لهو خداع فارغ وخطر وخرافة مرائية» .

هذا ازمة للرأسمالية بعيدة الغور طويلة المدى ومزمنة» (٤٢) .

واليوم يبدو هذا المنظور صحيحا تماما . فقد اثبته تسلسل الازمات السياسية والاقتصادية التي هزت العالم الرأسمالي وقوضت سلامه في فترة ما بين الحربين وأدت في النهاية الى صدام عسكري آخر . اما في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد اصبحت بنية السياسة الدولية اكثر تعقيدا . فقد تم الوصول الى توازن مؤثر في اقطار الغرب الرأسمالية المتقدمة بينما تفاقم عدم الاستقرار في العالم المتخلف . وفي الوقت ذاته نما التوتر بين الاتحاد السوفياتي غير الرأسمالي وبين القوى الرأسمالية الى حدود اصبح معها اشبه بالحرب .

ان مفتاح فهم هذه التطورات يكمن في سلسلة من الظواهر لم تقدم التصورات الماركسية والبلشفية في كثير من الاحيان غير نقطة بدء تحليلها . وأهم هذه الظواهر تطور الثورة الاشتراكية في روسيا المتخلفة وبروز الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية في عام ١٩٤٥ . ذلك ان التطور السوفياتي لم يؤثر على سياسات الدول الرأسمالية فحسب ، بل أثر كذلك على ميزان القوى الطبقية الداخلية ، وبالتالي على احتمالات ثورات اشتراكية اخرى . غير ان هذه التأثيرات لم تكن متوازية في كل مكان .

والظاهرة الثانية المتعلقة بالامر هي المصير المعقد الذي آلت اليه الثورة البورجوازية بعد نجاحاتها الاولية في انجلترا وفرنسا . فكما لاحظنا سابقا ، أثر مسار الثورة في البداية ، وخاصة في فرنسا ، تأثيرا عميق الغور على تطورها في اماكن اخرى ، كما أثر في ذلك ايضا توسع اشكالها الاقتصادية ومؤسساتها وما تبع ذلك من اختراق الدول الرأسمالية المتطورة للمجتمعات الاكثر تخلفا . لقد قام البرنامج البلشفي على ادراك حاد لاهمية التطور الرأسمالي المعاق وعلى الاخص اهمية الوهن الذي يلحقه هذا التأخر بقوة البورجوازية الناشئة وتصميمها الثوري. فنتيجة للتوسع الامبريالي في أواخر القرن التاسع عشر ، اصبحت مناطق شاسعة من العالم المتخلف اسيرة علاقات اقتصادية واجتماعية تقترب من تلك التي كانت تسود روسيا قبل الثورة. ولهذا السبب بالذات تظل البلشفية الكلاسيكية منظورا مناسبا جدا بل وحتى اساسيا لفهم هذه المناطق وحركيتها (ديناميتها) الثورية التي تلعب دورا فائق الاهمية في الحرب الباردة (٤٣) .

غير اننا في حالة الاقطار ذات التطور المتأخر التي لم تقع اسيرة الاستعمار والسيطرة ، وأبرزها قاطبة المانيا واليابان ، والتي حدث فيها بالتالي تصنيع حقيقي،

---

٤٢ ــ لينين ، بأي مرحلة نمر؟ ، ص ٢٧ . انظر ايضا تقرير تروتسكي الى الجلسة الثانية للكومنترن في ٢٣ حزيران ١٩٢١ «تقرير عن الازمة الاقتصادية العالمية والمهام الجديدة للاممية الشيوعية» في «السنوات الخمس الاولى من الاممية الشيوعية» .

٤٣ ــ سنبحث ذلك فيما بعد ، انظر فصل «الاطار الثوري الحديث» .

نجد طريقا ثالثا (٤٤) لا تملك الماركسية الكلاسيكية والبلشفية ما تقوله بصدده من منظور عيني الا القليل ، في حين يتهاوى في هذا الشأن النموذج الماركسي «الاورثوذكسي» ، نموذج البنية التحتية ـ البنية الفوقية . ذلك انه في حين يسير التطور الاقتصادي الرأسمالي في هذين البلدين بخطى وثابة ، لا تنجح الثورة البورجوازية الديمقراطية في ايهما (٤٥) ، الا كاصلاح فرضته خارجيا الهزيمة العسكرية والاحتلال (الى حد ما في المانيا عام ١٩١٨ ، وبدرجة اكبر في المانيا واليابان عام ١٩٤٥) (٤٦) . هكذا ، وعلى مدى فترة تاريخية حاسمة ، تتطور اثنتان من اهم القوى العالمية على اساس اقتصادي رأسمالي ولكن مع «بنية فوقية» سياسية واجتماعية غير بورجوازية وغير ديمقراطية اساسا (٤٧) . ويؤدي هذا التطور شبه الاقطاعي ـ شبه الراسمالي الى توسعية عسكرية حادة ترتبط على نحو مباشر بظهور الفاشية في هذين البلدين خلال فترة ما بين الحربين وكذلك بصدامات الحرب العالمية الثانية وما بعدها (٤٨) .

والعامل الثالث الرئيسي في تشكيل بنية علاقات ما بعد الحرب هو احتلال الولايات المتحدة لموقع السيطرة بلا منازع في النظام الرأسمالي العالمي . فعلى الرغم من ان الولايات المتحدة ظهرت كقوة في وقت متأخر ، الا انها لم تعان تطورا متأخرا

---

٤٤ ـ تبحث هذه الطرق الثلاث الى التطور الصناعي من وجهة نظر مختلفة نوعا ما في بارينجتون مور ، الاصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية . (من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر) .

٤٥ ـ من المستحيل بالنسبة لليابان الكلام حتى عن محاولة للقيام بثورة اجتماعية من جانب البورجوازية اذا عني بذلك الاطاحة بطبقة حاكمة . لقد قامت الثورة اليابانية ، التي شكل تحالف القوى العسكرية ـ الاقطاعية والقوى التجارية رأس حربتها ، تحت راية احياء الامبراطورية . وقد تحدد اتجاه هذه الثورة بفعل خطر التغلغل الغربي وتصميم جناح من الطبقة الحاكمة اليابانية على مقاومة هذا الخطر بادخال الوسائل والاشكال الاقتصادية الغربية ، والحث على تطور صناعي عبر توسط الدولة الامبراطورية . للاطلاع على تحليل ماركسي من الطراز الاول للتطور الياباني ، انظر نورمان ، ظهور اليابان كدولة حديثة .وكذلك تانين ويوهان ، المصدر السابق .

٤٦ ـ انظر فصل «الحرب العالمية والحرب الباردة» من هذا الكتاب .

٤٧ ـ بالطبع نفذ الكثير من الاصلاحات العقلانية والمركزة الضرورية للتطور الرأسمالي والصناعي حتى خلال الثورة اليابانية من فوق (انظر مور ، ص ٢٤٨) وذلك كجزء من جهد الطبقة الحاكمة اليابانية الواعي للحصول على قاعدة لدولة حديثة . غير ان السلطة داخل الدولة ظلت تتمثل في النهاية في الملك الحاكم المطلق ، وذلك نتيجة لغياب اي ثورة بورجوازية ديمقراطية . ومما يدل على النحو الذي عولجت به مسألة ادخال دستور «حديث» نصيحة ايوكورا ، احد قادة حركة الاحياء ، «بتشكيل حكومة دون اعتبار للبرلمان ، على غرار بروسيا» .

٤٨ ـ انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب .

على غرار المانيا واليابان . ان انعزال الولايات المتحدة جغرافيا وبعدها عن اوروبا وامتلاكها لحدود شاسعة ، بما لذلك من اثر مهدىء على الصراع الطبقي الداخلي ، وافتقارها الى ارستقراطية عقارية اقطاعية ، ادت جميعا الى تطور الولايات المتحدة كدولة بورجوازية ديمقراطية اكثر من اي من منافساتها الاوروبيات . وقد كان ما نجم عن ذلك من ظهور سياسات الولايات المتحدة وكأنها تقدمية في طابعها ونظرتها، رغم محتواها المحافظ ، عاملا هاما في اعادة التوازن الى النظام الراسمالي المهزوز الى حد بعيد في فترة ما بعد الحرب .

سنبدأ في تحليلنا اللاحق بسياسات الولايات المتحدة ، لا لأن «نقاوة» تطورها البورجوازي تجعل فهمها امرا سهلا ضمن الاطار النظري الذي عرضناه فيما سبق فحسب ، بل ايضا لان الولايات المتحدة والنظام العالمي الذي قيض لها ان تسيطر عليه يلعبان دورا مقررا الى حد بعيد في التجربة التاريخية الفعلية . هكذا واجهت الثورة الروسية الطفلة في عام ١٩١٧ سلسلة اختيارات صعبة لم يضعها امامها تخلف محيطها القومي وحده ، بل كذلك دول النظام الرأسمالي العالمي المعادية . وكان الوضع شبيها بذلك عام ١٩٤٥ ، عندما برز الاتحاد السوفياتي في النهاية قوة دولية حقيقية . فقد كان عند ذاك مواجها بولايات متحدة اقوى بكثير قادرة على ان تمارس تأثيرا مقررا على علاقات الاتحاد السوفياتي بباقي العالم وعلى مدى الاختيارات السياسية المتاحة للقادة السوفيات .

القسم الثاني

الاحتواء والثورة

- ٤ -

امبراطورية الباب المفتوح

«ان سياستنا الخارجية في الحـــرب الباردة القائمة على الاحتواء هي في الاساس رد فعل لكون الحضارات غير الغربية تتهدد للمرة الاولى باحتوائنا ومقاومـــة الانقضاض التوسعي طويل المدى للغرب على الشرق ، الذي يشكل الجذر البعيـد للتاريخ الحديث كله ، او بالحد منه» .

كارل اوغلسبي

ان النزعة الشاملة والميل المضاد للثورة اللذين يسمان سياسة الولايات المتحدة الخارجية في الحرب الباردة (١) يردان في التحليل الاورثوذكسي (ان وردا علـى الاطلاق) في شكل احجيات تستدعي حلا ، بدلا من ان يكونا نتيجة واضحة بذاتها لتطورات سابقة . ذلك انه يقال ان الاصول الثورية للولايات المتحدة ، وغنى مبدأ حق تقرير المصير في اكثر حلقات تراثها القومي مركزية ، وافتقارها الى اي تقليد ثابت في السيطرة الامبريالية ، تشير جميعا الى اتجاه معاكس لاتجاه التوسع فيما

---

١ ـ ان عدم قابلية سياسات الاحتواء التي تمارسها الولايات المتحدة ضمن الحرب الباردة للفهم الا باعتبارها سياسات احتواء للثورة الاجتماعية بدل ان تكون توسعا قوميا ، هو احدى الدعـــاوى الرئيسـية في كتاب «عملاق العالم الحر من يالطا الى فيتنام» . ولذا ، لن نحاول في هذا الكتاب اثبات هذه الموضوعة بالتفصيل .

وراء البحار والاحتواء المضاد للثورة اللذين سيطرا على سياستها في سنوات ما بعد الحرب (٢) .

ومع ذلك ، اذا نظرنا الى سياسة الولايات المتحدة الخارجية ضمن اطار النظرية الماركسية في الامبريالية ، فان هذه التطورات لا تكاد تبدو غامضة او مستعصية على الفهم . غير ان المؤرخين الاورثوذكسيين بدلا من ان يقيموا تحليلهم على هـــذه الخطوط يميلون الى اعتبار الولايات المتحدة قوة مضادة للامبريالية ، وفي أسوأ الاحوال يعمدون الى القول انها تبدي احيانا «ورغما عنها» ميلا امبرياليا . واذ يماثل هؤلاء المؤرخون بين الامبريالية والكولونيالية السياسية ، فانهم يشعرون انهم غير مجبرين على الاعتراف بغير مرحلة «استثنائية» واحدة في التاريخ الاميركي ، عندما سارت الولايات المتحدة في طريق امبريالي مكشوف ، وبالتحديد فيما يخص الحرب الاسبانية ــ الاميركية وغزو الفليبين . غير ان الكولونيالية ليست الشكل الوحيد الذي يمكن للسيطرة الامبريالية ان تتخذه ، ومجرد كون الولايات المتحدة قد وجدت شكلا غير كولونيالي اكثر ملاءمة لاغراضها لا يشكل اطلاقا سببا للفشل في تحليل الظاهرة .

ان فشل الاورثوذكسيين في رؤية الولايات المتحدة كقوة امبريالية يعكس اكثر من مجرد عدم القدرة على قبول حقائق علاقات الولايات المتحدة بالاقطار التابعة والمستغَلة التي تدور في مدارها . فهو في الجانب الايجابي يعكس ادراكا للمثالية المعادية للامبريالية التي تعبر عن صدام حقيقي في المصالح بين الولايات المتحدة كقوة عالمية صاعدة وبين القوى الامبريالية الاقدم .

لم تبدأ واشنطن الا مؤخرا ، وبعد ان تسنمت الولايات المتحدة سدة الهيمنة في النظام الرأسمالي العالمي واصبحت وصية عليه ، في استعمال لغة القوة الحاكمة والتحدث رسميا عن برامجها «المضادة للانتفاضة» . فقد كانت في السابق تقدم سياساتها على انها تتجه اساسا ، ان لم يكن اطلاقا ، نحو الدفاع عن الامم الاصغر ضد التوسع الامبريالي من جانب الدول العظمى الاخرى الاكثر تأخرا . ومـــن الواضح انه كي نبدأ بفهم طابع الدبلوماسية الاميركية وبنية موقفها الراهن مـــن الثورات القومية والاجتماعية لا بد من وضع هذه الدبلوماسية ضمن اطار يمكن فيه فهم هذا التطور الاخير ــ اي ضمن اطار يرى فيه على انه نتيجة منطقية لسياسات واحداث سبقته .

ان تفحص الماضي الاميركي يكشف ان غياب تقليد امبريالي ، بالمعنى الاوروبي، ليس الا نتيجة مباشرة للجغرافيا وحلول التطور الصناعي في وقت متأخر ، وليس اطلاقا خاصة مميزة للرأسمالية الاميركية تدفع بها الى الاكتفاء الذاتي . هكذا وكما

---

٢ ــ هكذا فان من سخريات التدخل الاميركي في فيتنام ان يكون اعلان الاستقلال الذي اصدرته حكومة فيتنام الديمقراطية عام ١٩٤٦ مبنيا صراحة على غرار اعلان الاستقلال الاميركي عام ١٧٧٦ .

لاحظ احد اهم دارسي التاريخ الاميركي قبل سبعين عاما : «على مدى قرابة ثلاثة قرون ، كانت الحقيقة المسيطرة في الحياة الاميركية هي التوسع» (٣) . وقد استمر هذا التوسع حتى نهاية القرن التاسع عشر ضمن الحدود الجغرافية للقارة الاميركية الشمالية . فقد دمرت الامم الهندية الاصلية وقضي عمليا على افرادها ودمجت الاراضي التي استحوذ عليها حديثا ضمن الاطر القومية والدستورية . ولذا كانت آثار ومضاعفات هذا التوسع في المناطق المقتطعة مختلفة في طابعها عن تلك الآثار والمضاعفات التي نجمت عن توسع القوى الاوروبية القديمة الذي كان يستتبع استمرار اخضاع الشعوب المستعمرة .

ومع ذلك فقد تركت « حقيقة التوسع المسيطرة » اثرا عميقا على وعي قادة الجمهورية الثورية (الذين كانوا بالفعل ينظرون الى دولتهم بوصفها « امبراطورية ناهضة » (٤)) وحددت نظرة صانعي السياسة الخارجية الاميركية منذ ذاك وحتى يومنا هذا (٥) . وقد قامت هذه النظرة على الافتراض ، الذي يشترك في حمله كثيرون (والذي كانت اطروحة فريدريك جاكسون تيرنر الشهيرة أول صياغة متبلورة له)، بان ازدهار اميركا وديمقراطيتها نتائج فريدة لتوسع حدودها الجغرافية باستمرار ، وبأن هذا التوسع زود الصناعة الاميركية بأسواق حيوية جديدة وعزز الفردية واخمد الصراع الفئوي الخطر في الداخل . ولم تكن هناك غير خطوة واحدة تفصل هذه الافتراضات الاساسية الكامنة في موضوعة الحدود المتسعة عن النتيجة التي تخلص الى القول بأن التوسع المستمر بشكل أو بآخر ضروري اذا كان للحرية المحلية والازدهار الاقتصادي أن يصانا . ولقد خطيت هذه الخطوة في وقت مبكر جدا في التاريخ الاميركي ، ولكنها وضحت على نطاق واسع وبصورة درامية أول مرة خلال ازمة العقد الاخير من القرن التاسع عشر .

كانت تقف خلف هذه الازمة عدة عقود من التغير الاقتصادي المحلي والاضطراب في الولايات المتحدة حملت نذرا للمستقبل بدت مشؤومة . فقد وصل اكمال الخطوط الحديدية ، وحركات الاندماج في الصناعة والزراعة ، والتوسع الهائل في الانتاج مصحوبا بالهلع والكساد في عامي ١٨٧٣ و ١٨٩٣ ، وتكدس الفائض في المخازن ، والقلاقل العمالية المتزايدة في المدن ، وصلت هذه جميعا الى قمتها في المرحلة الاخيرة من اغلاق الحدود الجغرافية . وبدا تسلسل الاحداث هذا لكثيرين

---

٣ ـ وردت هذه الملاحظة في مقالة لفريدريك جاكسون تيرنر نشرت في «اطلانتيك منتلي» عام ١٨٩٦ .

٤ ـ استخدم جورج واشنطن هذا الاصطلاح . حول هذا الموضوع انظر ر.ف. آلستاين «الامبراطورية الاميركية الصاعدة» . وكذلك وليم أ. وليمز «آفاق التاريخ الاميركي» وخاصة الصفحات ١١٤-١١٧ .

٥ ـ للاطلاع على تحليل قاطع للسياسة الخارجية الاميركة في هذا الشأن انظر وليم.أ. وليمز «مأساة الدبلوماسية الاميركية» . وكذلك «الشركات والحرب الباردة» (تحرير هورويتز) .

بداية لمرحلة من الاستنقاع الاقتصادي العميق والهياج الاجتماعي الخطر . فكان الحل المشترك الذي اقترح لهذه الازمة المتعددة الجوانب ، التي ازدادت حدة في المجال الدولي بتدافع القوى الاوروبية الى اغلاق اسواق العالم الحرة الباقية ، هو سياسة توسع اقتصادي فيما وراء البحار (٦) طبقا لاستراتيجية «الباب المفتوح» .

كانت هذه الاستراتيجية تتحاشى امبراطورية رسمية من اجل امبراطورية غير رسمية (٧) ، وفي الواقع تم طرحها في البداية كمحاولة لاحتواء التوسع الكولونيالي في الصين . فقد كانت « ملاحظات الباب المفتوح » ، التي وزعها في مطلع القرن وزير الخارجية الاميركية ، تدعي انها تسعى الى الحيلولة دون اقتسام القوى الامبريالية الاقدم للصين ، ولكنها كانت أساسا تسعى الى اقامة مبدأ حرية الوصول الى السوق الصيني للجميع . وقد وصف ويدرود ولسون هذا الباب المفتوح وصفا محقا عندما قال انه « ليس بابا مفتوحا لحقوق الصين بل باب مفتوح لبضائع اميركا » (٨) . وقد عكست سياسة الباب المفتوح هذه كاستراتيجية التناقض بين تراث اميركا الديمقراطي ودورها الجديد الذي بدأت تلعبه في التوسع والسيطرة فيما وراء البحار ، وحاولت حل هذا التناقض . كان كذلك يملي تلك السياسة وصول الولايات المتحدة المتأخر الى المسرح الدولي . ذلك ان هذا جعل محاولة الحصول على اراض بصورة رسمية مشروعا صعبا يحفل بمخاطر الصدام المسلح (كما كانت الحرب مع اسبانيا قد اوضحت للعيان) .

ولكن الاهم من ذلك أن توسع « الباب المفتوح » مثل السياسة الطبيعية لقوة

---

٦ ـ كانت المصالح الاقتصادية المنظمة في ذلك الحين ، بما فيها الجمعية الوطنية للصناعيين والشعبيين الزراعيين وفيدرالية العمل الاميركية وجمعيات رجال الاعمال الصغار ، تروج جميعها تقريبا لفكرة ان التوسع الاقتصادي فيما وراء البحار شرط ضروري للازدهار المحلي والسلام العمالي . وبالطبع كان ربط التوسع فيما وراء البحار بحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المحلية امرا نموذجيا بالنسبة للامبرياليين الاوروبيين كذلك . هكذا قال سيسل رودس لصديق له عام ١٨٩٥ : «البارحة كنت في ايست اند في لندن وحضرت اجتماعا للعاطلين عن العمل ، أصغيت للخطابات الهائجة التي لم تكن غير صرخة من اجل الخبز ! الخبز ! وفي طريقي الى البيت فكرت بما رايت ، وأصبحت اكثر اقتناعا من اي وقت مضى بأهمية الامبريالية ... ان فكرتي المأثورة هي حل للمشكلة الاجتماعية ، اي كي ننقذ الملايين الاربعين من سكان المملكة المتحدة من حرب اهلية دموية ، يتعين علينا ، نحن الساسة الاستعماريين ، الحصول على اراض جديدة لاسكان فائض السكان والحصول على اسواق جديدة للبضائع المنتجة في المصانع والمناجم . ان الامبراطورية ، كما قلت على الدوام ، مسألة خبز وزبدة . اذا اردتم ان تتجنبوا الحرب الاهلية ، عليكم ان تصبحوا امبرياليين» . ورد في لينين ، الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية .

٧ ـ نشأ هذا الاصطلاح (امبراطورية غير رسمية) مع مؤرخي الامبريالية البريطانية غير الكولونيالية (او الكولونيالية الجديدة) في بلاد مثل الارجنتين .

٨ ـ ورد في جون غتنغز ، أصول السياسة الخارجية للصين .

اقتصادية كبرى حديثة وعت (كما وعت انجلترا من قبل في عهد سيطرتها) ان التنافس في الاسواق الاجنبية كما في الاسواق المحلية ليس الا اكثر السبل فعالية لضمان النصر ، وما يأتي به من امتيازات ، للاقوى . فكما قالت صحيفة التايمز عندما اعلنت هذه السياسة : « حتى هيئات الحماية الجمركية في الولايات المتحدة تذود عن التجارة الحرة في الصين، حيث الحرية لمصلحة الصناعيين الاميركيين»(٩). وكما حاجج الصناعي الاميركي اندرو كارنيجي عام ١٨٩٨ :

« لن تعرف الولايات المتحدة القدر الملقى تحت قدميها ، الا اذا استدارت بعيدا عن...المخططات الوهمية لالحاق شعوب بربرية في مناطق بعيدة ونظرت قريبا ... لترى ما وضعته الآلهة في متناول قبضتها : السيطرة الصناعية في العالم » (١٠) .

طمأن كل من الرئيس ماكنلي ووزير الخارجية هاي ، مؤلف ملاحظات الباب المفتوح ، كارنيغي ، إنه ليس هناك من خلاف بينهم حول مسألة الامبراطورية الكولونيالية مقابل الامبراطورية الاقتصادية . وبعد اقتطاع الفيليبين ، الذي بدا مؤقتا (١١) انه يناقض هذا الموقف ، ابدى قادة الولايات المتحدة بشكل واضح الثبات انهم يفهمون جيدا « ما وضعته الآلهة في متناول قبضتهم » .

ومهما بدت الحرب مع اسبانيا على كوبا والفيليبين غير ممثلة في هذا المضمار لموقف اميركا ، الا انها ابرزت على السطح مجموعة من ردود ألفعل كان لها ان تظل فيما بعد سمة دائمة من سمات دبلوماسية الولايات المتحدة . واحد ردود الفعل هذه هو ميل الايديولوجية التوسعية الكامن الى أن ينسب الخير والشر الى عوامل خارجية . هكذا اعتبر الرئيس ماكنلي عجز اسبانيا عن ضبط الاضطراب الثوري في كوبا ، حيث كان للشركات الاميركية مصالح ضخمة ، حالة « تسبب اضطرابا في الحالة الاجتماعية والاقتصادية لشعوبنا ... وتميل الى تأخير الازدهار الذي يحق لهذا البلد ان يتمتع به » (١٢) . وقد ترددت هذه المماثلة بين السلامة الداخلية للمؤسسات والاسواق الاميركية والسلامة الخارجية لها في كل التدخلات الاميركية اللاحقة فيما وراء البحار . وفي الواقع ما دام حل مشاكل اميركا المحلية يعرّف بلغة حدود تتسع باستمرار والى ما لا نهاية ، فقد كان من الطبيعي اعتبار أن هذه

---

٩ ــ ورد في وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ، ص ١٨ .

١٠ ــ ورد في جون رولينز ، المعادون للامبريالية والسياسة الاميركية الخارجية في القرن العشرين.

١١ ــ في الواقع كان اقتطاع الفليبين وقائيا في طبيعته. فقد كانت مانيلا تعتبر باب سوق الصين . وفي خضم التدافع الكولونيالي الشامل بدا ان الضمان الوحيد لوصول الولايات المتحدة الى هذا المرفأ في ذلك الوقت هو الاقتطاع السياسي للبلاد .

١٢ ــ ورد في وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ، ص ٣٤ . وكذلك ، تضاريس التاريخ الاميركي ، ص ٣٦٥ وما بعدها . انظر مثلا والتر لافيبر ، الامبراطورية الجديدة ، تفسير للتوسع الاميركي ١٨٦٠ ــ ١٨٩٨ ، ص ٣٥٥ وما بعدها .

المشاكل ناجمة عن نشاطات الامم الاخرى التي تمثل عوائق امام التوسع المنتظم للنفوذ الاميركي والسلطة الاميركية عبر العالم .

وبموازاة ذلك كان النزوع الى رؤية امتداد سلطة اميركا ونفوذها أمرا مفيدا للشعوب الخاضعة والمسيطر عليها ، ما دام ذلك يمد « حدود الحرية » لتشملها . وكان هذا ، جزئيا ، اسقاطا طبيعيا لتجربة اميركا التوسعية الاولى ، التي كان لهذا الادعاء بعض الحق بالعلاقة معها (هذا اذا استثنينا الهنود الذين ابيدوا في الغالب والذين لم توضع بقاياهم داخل الاطار الدستوري بصورة فعلية) . من جهة أخرى ، كان اسباغ مظهر اخلاقي على الحملات الامبريالية امرا معتادا بالنسبة للقوى الاوروبية الاقدم التي سيطرت على الشعوب الخاضعة تحت الراية المقدسة«للمدنية» و «المسيحية» وغيرية « عبء الانسان الابيض » المميتة .

اضافة الى ذلك أن الحرب الاميركية ـ الاسبانية كشفت عن وجه آخر هام من وجوه الايديولوجية التوسعية الاميركية . ذلك انه عندما اصبح واضحا عجز الحكومة الاسبانية عن ضبط التمردات في امبراطوريتها ، دخلت الولايات المتحدة حلبة النزاع بحجة احتواء الخطر الاسباني الخارجي على الشعبين الكوبي والفيليبيني لتتحكم هي بمصيريهما من بعد و «لمصلحتهما» . هكذا ، بعد ان دخلت واشنطن الفيليبين تحت راية انقاذ البلد من عسف الامبراطورية الاسبانية ، ادارت قواها لتحارب الثوار الفيليبينيين أنفسهم . وبعد سنتين من القمع ألدموي لحركة التمرد المحلية علي ايدي ستين الفا من جنود الاسطول الاميركي ، وقف الرئيس ماكنلي ليقول بلهجة اصبحت اذ ذاك مألوفة « ان الفيليبين لنا لا لنستغلها بل لنطورها ونمدنها ونثقفها وندربها على علم الحكم الذاتي » . وفي الواقع كانت الفيليبين ، مثلها مثل كوبا التي ظلت مستقلة اسميا ، ملكا للولايات المتحدة لتمتص ثروتها الطبيعية وفائض منتجاتها ولتقيدها بقيود الادقاع الدائم والتخلف والخضوع القومي حتى بعد أن تم التخلي عن السيطرة السياسية الرسمية بعد ذلك بنصف قرن (١٣).

وفي الحقيقة أصبح التوسع الاقتصادي والسيطرة الاقتصادية تحت راية احتواء التوسع السياسي والسيطرة السياسية طابعا عاما لسياسة الولايات المتحدة

---

١٣ ـ «تطورت الفيليبين اقتصاديا بطريقة كولونيالية نموذجية . فقد تم تشجيع المحاصيل التي لا تفرض عليها عوائد جمركية في السوق الاميركية باستعمال رأس المال الاميركي . وقضي على الموارد الغذائية اللازمة للاستهلاك المحلي ، ولم تتلق الصناعات المحلية قدرا كبيرا من التشجيع» جينكنز، السياسة الاقتصادية الاميركية تجاه الفيليبين . وفي عام ١٩٤٥ ، قبيل «الاستقلال» مباشرة ، كان راس المال الاميركي يملك ٣٠ بالمئة من مصانع ومزارع السكر في الجزيرة ، ٧٠ بالمئة من مصادر القوة الكهربائية ، ٤٠ بالمئة من صناعة المناجم ، بينما كان اكثر من ٧٠ بالمئة من تجارة الفيليبين مع الولايات المتحدة . غاردنر ، المناحي الاقتصادية لدبلوماسية الصفقة الجديدة ، ص ١٧٩ . اما المعلومات عن فقر كوبا وخمول تطورها ابان السيطرة الاميركية فمتوفرة في مصادر كثيرة . انظر مثلا، نلسون ، كوبا الريفية .

الخارجية في القرن العشرين ، سواء انظر المرء شرقا أم غربا ، الى منطقة المحيط الهادي التي تمت السيطرة عليها بموجب سياسة الباب المفتوح أم الى اقطار نصف الكرة الغربي التي تمت « حمايتها » وصيانتها لاستغلال المصالح الاميركية بموجب المعادلة التي وضعها مبدأ مونرو .

وبعد الحرب مع اسبانيا لم تواجه الولايات المتحدة غير خطرين جديين على امبراطوريتها غير الرسمية يستدعيان ردود فعل عسكرية كاملة . الاول مثلته دول المحور في الثلاثينات وعلى الاخص محاولة اليابان اغلاق الباب المفتوح في آسيا . والثاني ، وهو الاكثر جدية لكونه اكثر ديمومة وانتشارا ، هو الخطر الذي مثلته الثورات الشيوعية والقومية . وبالفعل ، بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٧ فقط ، تدخلت الولايات المتحدة عسكريا ، في بلاد اجنبية من كولومبيا الى الصين ، أكثر من عشرين مرة لاحتواء اخطار تهددت الممتلكات الاميركية خلال الانفجارات الثورية وللمساعدة على اقامة انظمة مستعدة لمنح الحماية لهذه المصالح ورعايتها (١٤) .

غير أن أهم محاولة احتواء مضاد للثورة في تلك الفترة حصلت عندما انضمت الولايات المتحدة الى دول التحالف في تدخلها في روسيا بعد انتصار ثورة اكتوبر البلشفية عام ١٩١٧ . وكان وودرو ولسون ، وهو المسؤول عن قرار التدخل ، متفقا تمام الاتفاق مع نظرة سلفائه التوسعية ، لكنه اعطاها مسحة ليبرالية اكثر تنميقا . فقد اكد مثلهم على اعتماد الازدهار المحلي على توافر الاسواق العالمية (« لقد تطورت صناعاتنا الى حد ستفجر معه غلافها اذا لم تجد لنفسها منفذا حرا الى اسواق العالم ») وكان مثلهم ايضا يعتبر السياسة والاقتصاد ظاهرتين متداخلتين («اذا لم يكن لاميركا اقتصاد حر ، فانها لن تعرف أية حرية من اي نوع») ونقل مثلهم كذلك حملة الحفاظ على المؤسسات « الحرة » الى المستوى العالمي (« يجب ان يجعل العالم مكانا امينا للديمقراطية ») .

كذلك حل ولسون بطريقة تقليدية المعضلة السياسية والاخلاقية التي مثلها تدخله في روسيا ـ التناقض بين التزام الدبلوماسية الجديدة بمبدأ حق تقرير

---

١٤ ـ انظر مثلا «استعمال القوات المسلحة الاميركية في الخارج ١٧٩٨ـ١٩٤٥» ، وهي قائمة اعدتها وزارة الخارجية الاميركية ، ونشرت في «دراسات حول اليسار» ، المجلد الثالث ، رقم ٢ ، ١٩٦٣ . بالطبع لم تكن هذه العمليات العسكرية غير اتمام للسياسات القائمة بوسائل اخرى . هكذا عندما قام السناتور هيرام جونسون باستقصاء شامل لعمليات الاقراض الاميركية في اميركا اللاتينية في أوائل العشرينات ، توصل الى استنتاج هو ان النقود الاميركية تستخدم «للابقاء على حكومات دكتاتورية في السلطة» وان الولايات المتحدة «شريك في قمع كل الحقوق الطبيعية لمواطني الجمهوريات الاميركية الجنوبية» (وليامز ، المصدر السابق ، ص ١١٩) . وبالطبع كانت هذه الحكومات الدكتاتورية اكثر من مضيافة بالنسبة لرأس المال الاميركي الشمالي . للاطلاع على تدخلات الولايات المتحدة سياسيا واقتصاديا وعسكريا في اميركا اللاتينية خلال تلك الفترة ، انظر ، نيرنغ وفريمان ، دبلوماسية الدولار .

المصير وبين التدخل ذاته . فقد برر ولسون ومستشاروه عملهم باللجوء الى الادعاء بأن القادة البلاشفة عملاء لالمانيا ، رغم معرفتهم الكاملة بخطل ذلك كله ، ولـــذا فالعدوان الاميركي والغربي لم يكن في رأيهم تدخلا مضادا للثورة بل خطوة ضرورية لاحتواء التوسع الامبريالي الالماني (١٥) .

لكن التدخل نفسه سرعان ما كشف عن طبيعته الحقيقية كمحاولة لسحق القوى الثورية في روسيا . لقد اتخذ الاحتواء الآن ابعادا جديدة . لا شك في أن الدوافع التقليدية « للحفاظ على القانون والنظام » لم تكن غائبة ، ذلك ان اربعين بالمائة مــن راس المال في روسيا القيصرية كانت تملكه مصالح خارجية (مصالح تابعة بصــورة رئيسية لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا ، التي تدخلت جميعا ، بيد ان بعضها تابع ايضا لالمانيا وللولايات المتحدة) (١٦) . لكن التهديد الذي مثلته الانتفاضة البلشفية كان مختلفا نوعا عن كل التهديدات السابقة لمصالح اميركية محددة .

فبالمقارنة مع الخطر الذي مثلته سابقا جميع الثورات القومية والاضطرابات في المناطق المستغلة ، كان التهديد الذي مثلته الثورة البلشفية على مصالح الملكية تهديدا عاما شاملا لا تحده حدود . فقد كان انتصار البلاشفة بطبيعته وبمقاصده بمثابــة تحريض للطبقات والامم المضطهدة في كل مكان على الانتفاض ضد حكامها وقاهريها. وقد وصف وزير خارجية الولايات المتحدة التحدي في ذلك الــوقت بقولــه : ان البلاشفة « يسعون الى « جعل جمهرة الانسانية العاجزة والجاهلة تسيطر عــلى الارض » انهم يتوجهون « الى طبقة بعينها وليس الى كل طبقات المجتمع ، طبقــة ليس لديها ملكية ولكنها تأمل بالحصول على نصيب عن طريق الحكومة وليس عــن طريق المشاريع الفردية . وهذا بالطبع تهديد مباشر للنظام الاجتماعي القائم في كل البلــدان » (١٧) .

ليس من العجيب ، ما دام هذا هو مفهوم قادة الولايات المتحدة للخطر الــذي يتهددهم ، أن يعمد هؤلاء بعد تردد أولي الى الانضمام الى الدول الرأسمالية الاخرى في تدخلها العسكري ضد النظام الثوري . وليس من العجيب كذلك ان يمنحــوا دعمهم في الحرب الاهلية الروسية الى الجنرال كاليدين الذي سرعان ما أصبــح «الامل الرئيسي للطبقات المالكة والعسكرية في روسيا» (١٨) .

لقد فشل التدخل في روسيا في تحقيق هدفه النهائي الا وهو تحطيم الثــورة البلشفية . غير ان البرنامج المضاد للثورة كان اكثر نجاحا في بلدان أخرى . فمثــلا

---

١٥ ــ انظر ، وليامز ، التدخل الاميركي في روسيا ١٩١٧ ــ ١٩٢٠ ، في «الاحتواء والثورة» .

١٦ ــ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، المجلد الاول .

١٧ ــ ورد في وليامز ، المصدر السابق . بالطبع لم يعبر وزير الخارجية لانسنغ عن هذه المشاعر الا في رسائل خاصة الى ولسون ، اما في تصريحاته العلنيــة فقد كان اكثر حرصا على سكب اعتراضاته على البلشفية في قالب اكثر ملاءمة ايديولوجيا .

١٨ ــ وليم تشمبرلين ، الثورة الروسية ، المجلد الاول ، ص ٣٤٨ .

في هنغاريا التي كان ينخرها الجوع، استطاعت الولايات المتحدة ، عن طريق التلاعب بالامدادات الغذائية عبر الارسالية الاميركية **American Food Relief Mission** المساعدة على هزيمة نظام بيلاكون الثوري وضمان النصر للقوى المحافظة . وبالمثل في بولندا ، استطاع هوفر وولسون استخدام سيطرة الولايات المتحدة على الامدادات الغذائية للمساعدة على مجيء المحافظين الى السلطة ، وفيما بعد اعطيت لهم النقود والاسلحة وشجعوا على مد حدود بولندا شرقا الى روسيا ودول البلطيق (١٩) .

كان احد الاسباب الرئيسية لفشل التدخل في روسيا هو التنافس بين « القوى المتدخلة » (٢٠) ذاتها ، أما السبب الثاني فهو المعارضة الداخلية التي لقيها في الاقطار الغربية ذاتها (على الاخص بين المجموعات العمالية) . ولكن رغم فشل التدخل في تحقيق اهدافه النهائية ، الا انه نجح في تحطيم اية اسس كان يمكن ان تسمح بتطور الثورة تطورا صحيا مطردا في محيطها المتخلف المدقع (٢١) .

ان انتفاضة ٧ نوفمبر البلشفية في بتروغراد لم تؤد الى مقتل أكثر من عشرة اشخاص ، طبقا لشهادات أكثر شهود العيان عداء . وكان السبب في ذلك تاكتيكات القيادة وانضباط الاعضاء والدعم الشعبي الساحق (٢٢) . وقد كانت هيئة الاركان الروسية وخصوم البلاشفة عموما على وعي حاد لافتقارهم الى الدعم ، فكانوا بالتالي يعانون من معنويات منحطة وميل الى قبول الهزيمة . وعندئذ بدأ الممثلون الرسميون للتحالف تسليح وتحريض وتعبئة المعارضة وبشكل عام اشعال نيران الحرب الاهلية . وفي الواقع ، حقن الوعد بالتدخل الاحزاب المهزومة بالشجاعة . يقول

---

١٩ ـ وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ، ص ١١٣ .

٢٠ ـ انظر لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٣١٨ وما بعد ، للاطلاع على تحليله لهذا التنافس .

٢١ ـ «لقد فعلت القوى الاوروبية الغربية ، جزئيا عن تعمد وجزئيا بلا وعي ، كل ما في وسعها للالقاء بنا الى الخلف واستخدام عوامل الحرب الاهلية في روسيا لنشر اكبر قدر ممكن من الدمار.. لقد كانت حجتهم هي التالية على وجه التقريب : اذا فشلنا في الاطاحة بالنظام الثوري في روسيا، فاننا في كل الاحوال سنعيق تقدمه نحو الاشتراكية . ولم يكن باستطاعتهم من وجهة نظرهم هم ان يأتوا بأي حجة أخرى . في النهاية .. فشلوا في الاطاحة بالنظام الذي خلقته الثورة ، ولكنهم نجحوا في منعه من قطع مسافة الخطوة الواحدة التي كان يمكن لها أن تبرر تنبؤات الاشتراكيين» . لينين في مقالته الاخيرة . لقد كانت هذه الاستراتيجية ، ولا تزال ، عنصرا ثابتا من عناصر سياسة الولايات المتحدة تجاه الثورات عموما ، وهي على وجه الخصوص تفسر العنصر الذي يبدو «غير عقلاني» في الحصار الاميركي الطويل لكوبا والصين .

٢٢ ـ كار ، الثورة البلشفية ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ ، المجلد الاول ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

تشمبرلين ، الثورة الروسية ، المجلد الاول ، ص ٣١٣ .

اسحق دويتشر ، في مقدمته لكتاب «عصر الثورة الدائمة» .

اسحق دويتشر :

« لم تبدأ صفوف الحرس الابيض بالتضخم ونيران الحرب الاهلية بالاشتعال الا بعد ان قطع الوعد ، وبعد أن ظهر ضباط الارتباط الفرنسيون والبريطانيون والاميركيون في مقر قيادة الجنرالات البيض ووصلت اولى شحنات الاسلحة والذخائر الاجنبية الشواطىء الروسية » (٢٣) .

وبعكس الانتفاضة البلشفية ، لم تقض الحرب الاهلية والمجاعة التي تلتها على حفنة من الارواح بل على بضعة ملايين . وكان لهذا الصدام الوحشي الذي لا يعقل والذي حرضت عليه وغذته ديمقراطيات الغرب الراسمالية آثار قاسية على تطور الثورة البعيد المدى في روسيا . فالحرب الاهلية وعنفها لم يدمرا الاقتصاد الذي كان مصابا من قبل فحسب ، بل وايضا حطا من معنويات السكان وحطما نظام الحزب وجعلا الارهاب اداة رسمية من ادوات الدولة (٢٤) ، وبشكل عام مهدا السبيل امام ظهور النظام الستاليني .

خفتت حدة عداء الدول الراسمالية باضمحلال التدخل العسكري وفشل القوى المضادة للثورة ، لكن هذا العداء لم يتوقف . وبالطبع شهدت نهاية العداء المكشوف علاقة أكثر تعقيدا وغموضا بين النظام الجديد والنظام الراسمالي . فقد مثلت النوايا التي وقفت خلف الاعتراف الدبلوماسي والتجارة وحتى المساعدة التي تبعت السلام دوافع معقدة (٢٥) وكثيرا ما مثلت ضغوطا محلية متعاكسة . فمثلا كان بعض الفئات المحلية يرى في التجارة سبيلا الى تعاون حقيقي ، واما البعض الآخر فقد رأى فيها اداة للنفوذ الغربي المعادي للبلشفية في وقت كان فيه النظام البلشفي يواجه مصاعب داخلية جمة ، والبعض الثالث رأى فيها مجرد تبادل اقتصادي من اجل المنفعة المتبادلة .

لكن الواقع ان كل هذه المبادلات المحدودة ظلت ضمن نطاق أشمل يتسم بالعداء، له من الاهمية أكثر مما لاي عمل معين من أعمال التعاون الظاهري . وبرزت احدى اهم بنى هذا العداء في السلام الذي عقد مع المانيا على شكل خطة وضعها المنتصرون الاوروبيون للحجر على النظام البلشفي واحتواء الثورة البلشفية .

في عام ١٩١٩ ومع معاهدة فرساي ، خلقت خمس دول من اجزاء الامبراطورية الروسية القديمة وهي : فنلندا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا . واعتبرت القوى

---

٢٣ ـ دويتشر ، النبي مسلحا ، ص ٤٤٨ .

٢٤ ـ كار ، الثورة البلشفية ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ ، المجلد الاول ، الفصل السابع .

٢٥ ـ بالطبع يمكن دوافع معقدة كهذه ان تقف وراء السياسة في اي وقت . فمثلا في الفترة التي جرى فيها بحث التدخل ، اقترح وزير الخارجية الاميركية لانسنغ ان يراس هربرت هوفر بعثة اقتصادية يمكن ان تستخدم كغطاء للتدخل . وقال «ان تدخلا عسكريا لحماية العمل الانساني الذي تقوم به البعثة سيكون افضل بكثير من تدخل مسلح قبل ان تبدأ عملها». ورد في وليامز ، التدخل الاميركي في روسيا .

الغربية ان هذه الدول مع الدول الاخرى الواقعة على قوس واحد من فنلندا الـــى رومانيا (بما فيها تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا) تشكل « حزاما واقيا » يحول دون توسع البلشفية ، أي الايديولوجية والثورة البلشفية . وسرعان ما قامت في غالبية هذه الدول انظمة رجعية تسلطية (زودت رومانيا وهنغاريا هتلر فيما بعد بمليــون جندي ، على جبهته الشرقية) ، لكن ذلك لم يفعل اكثر من تزيينها في أعين قـادة الديمقراطيات الغربية الذين رأوا في ذلك دليلا على ثبات وصمود هذه الدول كقلاع للنظام القائم .

وفي الواقع لم يكن بالامكان تثبيت النظام الاجتماعــي القائم ، لا في اوروبـــا الشرقية وحدها بل في العالم الراسمالي كله ، عن طريق الاجراءات التي اتخذت في فرساي . ذلك ان النظام الذي تم وضعه في فرساي كان مصمما كي يكرس الوضع الراهن بعد الحرب ويقويه ، ولكن كما كان هذا الوضع الراهن يبدو من موقع الدول الراسمالية المنتصرة . غير أن كون هذا الوضع الراهن قد حرم أقـوى دولتـــين صناعيتين على صعيد الامكان في اوروبا وآسيا ، وهما المانيا واليابان ، من مكان مناسب جعله ترتيبا غير متوازن . اضافة الى ذلك كان النظام الراسمالي العالمي ، الذي بنيت تسوية فرساي على أساسه ، يفتقر الى التوازن الداخلي . فالحرب لم تفشل في حل تناقضات نظام ما قبل الحرب فحسب ، ولكنها ايضا زادت هـــذه التناقضات حدة بكثير من الطرق ، فمهدت السبيل بذلــك أمــام صــدام عالمـــي متجـــدد (٢٦) .

عاد قدر محدود من الازدهار الى اوروبا ، وان يكن بصورة متناثرة ومؤقتـــة ، وادخلت مؤسسات الديمقراطية السياسية الشكلية الى الكثير من البلدان . لكــن هذه الظواهر لم تنفذ الى أعمق من سطح المجتمع . فتحتهـــا كانت التناقضـــات الاساسية ـ بين القدرة الانتاجية والاسواق المتوفرة ، بين القومية الاقتصاديـــة والتداخل الاقتصادي بين الدول ، بين التشريك والتدويل المتزايد للانتاج وقاعدته القومية الخاصة ـ تزداد حدة باستمرار مؤدية الى هزات متقطعة في البداية حتى

---

٢٦ ـ في عام ١٩٣٤ ، كانت العلائم تبدو واضحة لكاتب مثل برتراند رسل : «لقد كانت الحرب الكبرى في بعض المناحي نهاية لحقبة ، بينما كانت في مناحي اخرى مجرد حادث في عملية مستمرة.. لقد كانت الحرب في المناحي السياسية التي تعتمد على التطور الاقتصادي الحديث اول تعبير واسع النطاق عن قوى كانت تعمل طيلة خمسين عاما ولا تزال تزداد قوة باستمرار . ذلك ان تطور الاحتكارات القومية ، خاصة في حقلي الحديد والصلب ، وعلى الاخص بالعلاقة مع مناجم اللورين ، كان ولا يزال عاملا في السياسة العالمية اهم بكثير مما يدرك العديد من الناس ومما يعترف به الساسة . ان الاسباب التي أدت الى حرب عام ١٩١٤ لا تزال فعالة ، وما لم يكبح جماحها عن طريق سيطرة عالمية على الاستثمار والمواد الخام ، فانها ستؤدي حتما الى النتيجة ذاتها ولكن على نطاق أوسع . ليس بالمشاعر السلامية ، بل بالتنظيم الاقتصادي على مدى العالم ، يمكن للجنس البشري المتمدن ان ينقذ نفسه من الانتحار الجماعي» الحرية مقابل التنظيم ، ص ٢٣٨ .

استجمعت مع عام ١٩٢٩ من القوة ما جعلها تحطم الاسس الاقتصادية وتهز البنى السياسية لعالم ما بعد الحرب الرأسمالي كله (٢٧) .

ادت هذه الازمة الاقتصادية والاجتماعية ، بما صاحبها من تطورات سياسية ، جزئيا الى اضعاف جبهة القوى الرأسمالية الكبرى المعادية لروسيا السوفياتية . فقد حملت التحالفات المحلية بين اليسار والقوى الليبرالية ضد النزعة المحافظة الاقتصادية والفاشية السياسية لليمين ، حملت بعض القوى الرأسمالية على تبني موقف أقل عداء تجاه الدولة الشيوعية . كذلك عملت في الاتجاه ذاته الضغوط الاقتصادية لفتح اسواق جديدة ممكنة في روسيا ، وهي البلد الوحيد الذي لم يصبه الركود . وفي عام ١٩٣٣ اعترفت الولايات المتحدة في النهاية رسميا بالنظام الذي بلغ اذ ذاك ستة عشر عاما من العمر (وكانت آخر الدول الكبرى في ذلك) ، وأكد الرئيس روزفلت في تفسيره لذلك على أهمية الاتحاد السوفياتي كسوق للتصدير (٢٨) .

ومهما كانت الاسباب الكاملة لهذه الخطوة ، فان تأخر اعتراف الولايات المتحدة يشير بالتأكيد الى عدم كفاية تلك التفسيرات لسياسة الولايات المتحدة تجاه الاتحاد السوفياتي التي تؤكد على أن المسألة الاخلاقية عامل حاسم فيها . ذلك أن اعتراف الولايات المتحدة بروسيا الستالينية وتقبل الديمقراطيات الرأسمالية لها لم يأت الا بعد عنف ومذابح التجميع في فترة ١٩٢٩ ــ ١٩٣١ وعشية حملات التطهير ، بينما كانت هذه الدول ذاتها قد حيت بالرصاص والحراب الثورة الطفلة الشعبية الديمقراطية والبريئة من الدم عمليا .

واذا كانت الازمة الاقتصادية والسياسية قد ساعدت على اضعاف الجبهة المعادية لروسيا ، الا ان الانهيار المطرد للرأسمالية الاوروبية ، بالاستقطاب السياسي المحتوم الذي رافقه ، واجه الاتحاد السوفياتي بخطر متجدد . ففي المانيا ، ادت الازمة العامة الى القضاء على التوازن الاجتماعي المخلخل الذي كان قائما على اساس جمهورية فايمر . وتقدمت القوى المضادة للثورة تحت راية النازية لتسحق احزاب الطبقة العاملة ومنظماتها وتحاول السير من جديد في طريق التوسع الامبريالي

---

٢٧ ــ في الدول الاضعف ، كان الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي قد ادى قبل ذلك ، في عام ١٩٢٨ ، الى تحطم النظام البرلماني في ايطاليا واسبانيا والبرتغال وهنغاريا والنمسا ويوغوسلافيا وبولندا ورومانيا .

٢٨ ــ وليامز ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ وما بعدها . غاردنر ، المصدر السابق ، ص ٣٣ــ٣٥ . رغم عدم اعتراف الولايات المتحدة الطويل بالنظام البلشفي ، الا انها كانت بين الدول الرأسمالية الكبرى جميعا اقلها عداء لروسيا واكثرها تقبلا لفكرة التعايش . ومن بين اهم اسباب اختلاف هذا الموقف عن موقفها بعد الحرب هو ان قيادة النظام الرأسمالي العالمي والمسؤولية الرئيسية في الدفاع عن الوضع الراهن كانت لا تزال بيد انجلترا (والى حد ما فرنسا) في فترة ما بين الحربين ، وبالمقابل كان تحريض الكومنترن يوجه ثقله ضد الامبراطورية البريطانية اكثر من الاميركية .

الالماني الذي كانت دول فرساي قد احبطته . وفي عام ١٩٣٦ خلق هتلر مع الدول الفاشية الاخرى ، ايطاليا واليابان ، محورا عالميا « معاديا للكومنترن » يهدد روسيا من جبهتين . ولذا حاول ستالين خلال الفترة اللاحقة كلها تأمين الحماية لروسيا بالدخول في اتفاقات أمن جماعية مع الغرب الرأسمالي . غير أن مناوراته في هذا السبيل لم تسفر عن شيء .

فمن جهة، رحبت بعض عناصر المجموعات الحاكمة في الديمقراطيات الرأسمالية بصعود هتلر (كما فعلت بالنسبة لموسوليني من قبل) (٢٩) الذي رأت فيه سدا منيعا ضد الخطر البلشفي (الداخلي) الصاعد الذي يواجهه النظام الرأسمالي باطراد (٣٠) . وكان تشرشل ولويد جورج من بين هؤلاء ، كما كان منهم اللورد هاليفاكس ، أحد متخاذلي ميونيخ الرئيسيين ، الذي قال لهتلر في تشرين الثاني ١٩٣٧ :

« انه وغيره من اعضاء الحكومة البريطانية يعون تمام الوعي أن الفوهرر لم يحقق الكثير داخل المانيا وحدها فحسب ، بل وانه بتدميره للشيوعية في بلده انما قطع عليها الطريق الى اوروبا الغربية ، وأن المانيا يمكن ان تعتبر عن حق قلعة الغرب ضد البلشفية » (٣١) .

ومن جهة اخرى ، كان هناك من كانوا يعتقدون مخلصين أن تلبية مطالب هتلر « المشروعة » كفيلة باحلال السلام في اوروبا دون الاضطرار الى دفع ثمنه تحالفا مع روسيا السوفياتية . واخيرا ، كانت هناك أقلية تخشى حقا خطر التوسعية الالمانية على الغرب نفسه وترى ان النكبة التي ستحل لا يمكن تجنبها الا بعقد اتفاقية أمن جماعية كتلك التي كان ستالين يروج لها . ولكن بالضبط لان النزوع الاساسي للطبقات الحاكمة في هذه الانظمة الرأسمالية كان معاديا للبلشفية وليس للفاشية ، لم تستطع هذه الاقلية ، التي كان تشرشل المتأخر واحدا منها ، أن تلعب دورا حاسما الا بعد أن كانت الحرب قد بدات بالفعل .

وفي آب ١٩٣٩ ،وبعد أن شعر ستالين بالضيق تجاه سياسات الاسترضاء التي

---

٢٩ - «ان مؤرخ الجيل اللاحق لا يسعه الا ان يلاحظ الفارق بين الاستقبالين المختلفين اللذين حظيت بهما التغييرات التي كان لينين وموسوليني قائدين لها . فبينما كسب نظام لينين لنفسه نبذا عالميا وتدخلا مسلحا ، كان نظام موسوليني موضع حماسة واسعة . فقد قلدت حكومات الدول الكبرى موسوليني نفسه العديد من الاوسمة واستهلك السفراء لغة المديح كلها في المآدب الرسمية ، ولم يتردد كبار رجال الاعمال في القول انه ما من شيء يمكن ان يعيد الطبقات العاملة الى صوابها غير محاكاة اساليبه . ومع ذلك فلم يكن ، غير الشدة ، اي فارق بين الوسيلة التي اتبعها كل من الرجلين . ومن الصعب ان يتعامى المرء عن ان هذا الاستقبال المختلف لم يكن غير نتيجة لموقفهما المتعاكس من الملكية» . هارولد لاسكي ، لينين وموسوليني .

٣٠ - تايلور ، أصول الحرب العالمية الثانية ، ص ١١١ وما بعدها .

٣١ - وثائق ومواد متعلقة بعشية الحرب العالمية الثانية ، المجلد الاول ، ص ١٩ - ٢٠ .

تمارسها القوى الاوروبية الكبرى واحس بالخوف نتيجة رفض بولندا وفنلندا ودول البلطيق التعاون في الدفاع عن المنطقة ضد الغزو النازي الماثل ، اتفق مع هتلر وخطا للمرة الاولى ، وان لم تكن الاخيرة ، داخل الحزام الوقائي (غير أنه ، اذ فعل ذلك ، خطا ابعد بكثير مما كانت تمليه اعتبارات «السياسة الواقعية» . فقـد اعلن ان حلفه مع هتلر لم يكن ضروريا تاكتيكيا فحسب ، بل امرا مرغوبا به كذلك ، ووافق على تقسيم سري لاوروبا الشرقية شمال هنغاريا) .

وعندما ارسل ستالين قواته « لتحرير » فنلندا ، هبت الدول الغربية ، التـي كانت قد ابدت الكثير من التقاعس في الوقوف في وجه توسع هتلـر ، لتعلـن في الحال استعدادها للدفاع عن الفنلنديين ضد العدوان السوفياتي . ولكن عندمـا هوجمت روسيا نفسها عام ١٩٤١ ، بعد سقوط فرنسا والمعركة مع بريطانيا ، تمت اقامة تحالف مصلحي بين المتعادين سابقا مكن روسيا مؤقتا من الدخول ثانية الـى التحالف الذي كانت قد غادرته عام ١٩١٧ .

وخلال الحرب مع المانيا النازية ، حصل تغير في الوضع الاوروبي ، رغم كـل جهود تشرشل لمنع ذلك (ولكن ايضا ، وبا للسخرية ، بسبب هذه الجهود) (٣٢) . وقد بشر بهذا التغير تقدم ستالين في دول البلطيق والتخوم الشرقية لبولنـدا ، الذي أثر بصورة درامية على الترتيبات القديمة لاحتواء الثورة البلشفية . وعـلى امتداد المنطقة المتخلفة والمعادية لروسيا بشدة (ان لم نقل معادية للشيوعية) التي كانت حتى ذاك تشكل « الحزام الواقي » ، تقدم جيش ستالين الاحمر أولا كقـوة محررة ومن ثم كقوة محتلة .

---

٣٢ ـ ادى تأخير تشرشل لفتح الجبهة الثانية الى تحميل الروس العبء الرئيسي للحرب ، ففي عام ١٩٤٣ واجهوا ١٨٥ فصيلا المانيا بينما كان الحلفاء يواجهون ست فصائل فقط . غير ان هذه التاكتيكات التأخيرية ادت في النهاية الى تحرير اوروبا الشرقية على يد الجيش الاحمر ، وذلك امر لم يكن ليقع لو فتحت الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، اي في الوقت الذي كان محددا لها . انظر باغولي ، الحرب العالمية (الحرب الباردة) .

- ٥ -

الراسمالية والحرب الباردة

« كل مرة يمد فيها الاتحاد السوفياتي سلطته على بقعة او دولة أخرى ، تخسر الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سوقا طبيعيا آخر» اول سفير للولايات المتحدة لدى الاتحاد السوفياتي ، وليام بوليت ، ١٩٤٦ .

مع اقتراب نهاية الحرب ، وجد الاتحاد السوفياتي نفسه للمرة الاولى يعامل القوى الراسمالية الغربية بوصفه دولة لها منطقة نفوذ تتخطى حدودها الجغرافية . صور المؤرخون الارثوذكسيون الحرب الباردة التي نمت نتيجة التحدي الغربي لمنطقة النفوذ هذه على انها نتيجة حتمية للسياسات التوسعية للدولة الروسية التي قضي على القوى الغربية ، بسبب من عدم استعدادها ، أن تواجهها في البداية برد فعل ضعيف غير مجد في جوهره. وهذه الصورة الاورثوذكسية لا تنطبق على حقائق القوى في عام ١٩٤٥ ولا على توالي الاحداث الواقعية . ففي الواقع لم تكن الدولة الروسية المعزولة شبه المتخلفة التي دمرتها الحرب هي التي شنت الحملة الاولى ، بل خصمها بالغ القوة الذي لم تخدشه الحرب هو الذي فعل . اضافة الى ذلك ، لم تنبثق حملة الحرب الباردة ، التي عبىء هذا الهجوم تحت رايتها ، عن « الازمة » التي خلقتها الهيمنة القومية للاتحاد السوفياتي على اوروبا الشرقية فحسب ، بل كانت ايضا رد فعل مدروس تجاه الازمة الشاملة في النظام الراسمالي ذاته .

قبل تشرشل وروزفلت انهيار « الحزام الوقائي » من حيث المبدأ (مهما كان

ذلك بصورة غامضة) خلال السنة الاخيرة للحرب الاوروبية . فكي يستطيع تشرشل وروزفلت ضمان هزيمة المانيا ويد طليقة في احتواء الامكانية الحقيقية لقيام الثورة في اوروبا الغربية (حيث كانت الاحزاب الشيوعية المسلحة بين القوى الدافعة للمقاومة ، في حين كانت احزاب اليمين قد تعرضت للشبهة بفعل تعاونها مع النازية) تفاهما مع ستالين واعترفا بالتقسيم الواقعي للقارة الى مناطق نفوذ . وتم تسجيل الاعتراف بمنطقة نفوذ ستالين في اوروبا الشرقية التي يحتلها الجيش الاحمر في سلسلة من الاتفاقيات توجت باتفاق يالطه في شباط ١٩٤٥ وتضمنت اتفاقيات الهدنة لهنغاريا وبلغاريا ورومانيا وحلف تشرشل ـ ستالين في تشرين الاول السابق (١) .

ومهما كانت نوايا اطراف هذه الاتفاقيات (وقد كان هناك الكثير من التشوش وكذلك من الغموض المتعمد على عدة مستويات وفي الجانبين عند صياغتها) (٢) ، فانها عمليا أفسحت المجال للاتحاد السوفياتي كي ينظم حكومات المنطقة بطريقة توافق المصالح القومية السوفياتية وطبقا لممارسة الولايات المتحدة وبريطانيا ، سابقا وفي ذلك الحين ، في ايطاليا واليونان (٣) واوروبا الغربية بشكل عام (وفيما بعد في منطقة المحيط الهادي) (٤) . ووافق الروس على اقامة حكومات « ديمقراطية » وكذلك « صديقة » ، ولكنهم ما فعلوا ذلك الا بتفاهم ضمني على أن يعطى للعملية الديمقراطية من المجال ما يتفق مع مصالحهم الامنية . وطبقا لذلك تم الاتفاق على الا

---

١ ـ بموجب هذا الحلف ، الذي يصفه تشرشل في كتابه «النصر والمأساة» ، اتفق الرجلان بناء على اقتراح من تشرشل على تقسيم البلقان الى منطقتي نفوذ على ان تشكل يوغوسلافيا فاصلا بين منطقة النفوذ السوفياتية ومنطقة النفوذ الغربية .

٢ ـ انظر ، دويتشر ، ستالين : سيرة سياسية ، الفصل الثالث عشر .

٣ ـ بصدد سابقة الولايات المتحدة في ايطاليا من حيث فرض القوى العسكرية «المحررة»لحكومات غير شعبية من طرف واحد ، انظر باغولي ، الحرب العالمية والحرب الباردة .

٤ ـ ادرك وزير الحرب الاميركي هنري ستمسون ، وهو الشخصية بالغة الاهمية ، التوازي الواضح بين منطقة الامن التي منحت لروسيا ومنطقة أمن الولايات المتحدة في اميركا اللاتينية . وقد كان ستمسون ينظر بعين النقد الى دبلوماسية ترومان بصدد اوروبا الشرقية ، فلاحظ لاحد مساعديه : «ان بعض الاميركيين يتوقون الى التمسك بوجهات نظر مبدأ مونرو المبالغ فيها وفي الوقت ذاته يريدون التدخل في كل مسألة تنشأ في اوروبا الوسطى» . ورد في غاردنر ، الاوجه الاقتصادية لدبلوماسية الصفقة الجديدة ، ص ٣٠٨ . مع تطور الحرب الباردة ، بدأ المحافظون في الولايات المتحدة وفي سواها من اقطار الغرب يهاجمون اتفاقيات يالطه على اساس انها اعطت لستالين منطقة نفوذ . فكان رد روزفلت الليبرالي هو انه لم يعترف للروس بامتيازات غير تلك التي كانوا سيحصلون عليها في اية حال بوصفهم القوة المحتلة في تلك المنطقة . لكن هذا «النزاع» المحلي لم يحل دون اتحاد الليبراليين والمحافظين في الغرب لشجب ستالين عندما حاول ممارسة هذه الامتيازات ذاتها .

تشمل الحقوق الديمقراطية الاحزاب « الفاشية » ، بينما لم يحتفظ الغرب عامدا بأية وسيلة تسمح له بوضع تفسيره للفقرات المتعلقة بالمناهج الديمقراطية موضع التنفيذ (٥) .

ومع هزيمة المانيا في أيار ١٩٤٥ والتجربة الناجحة للقنبلة الذرية في تموز من العام نفسه ، طرأ تحول على الموقف الانجلو ـ اميركي من منطقة نفوذ روسيا في اوروبا الشرقية . فقد اعتقد الحلفاء انهم يملكون « قوى لا تقاوم » (تشرشل) وانهم في موضع يستطيعون منه « املاء شروطهم » (وزير الخارجية الاميركي براينز) (٦) ، فاصبحوا يديرون ظهرهم باطراد لتلك الاوجه من اتفاقيات الحلفاء التي تعترف بامتيازات روسيا . وبدأوا حملة لمنعها من تعزيز منطقة نفوذها ، واجبارها على تقليصها (٧) ، وبالتالي اعادة فتح الباب امام السيطرة الغربية في المنطقة الاوروبية الشرقية . وقد وصف ديفول هذه الحملة فيما بعد بدقة واستخفاف بقوله : « امل الاميركيون والبريطانيون في ان يستعيدوا في الممارسة ما تخلوا عنه في المبدأ « في بالطه) » (٨) .

وخلال بضعة اسابيع من مؤتمر بوتسدام وفي أعقاب هيروشيما ونغازاكي مباشرة ، خرجت هذه الحملة الى العلن عندما هاجم وزير الخارجية الاميركي براينز حكومتي بلغاريا ورومانيا باعتبارهما لا تمثلان كفاية « العناصر الديمقراطية الهامة ». وكان لهذا الهجوم ، مصحوبا بالرفض الاميركي السابق لمنح النظامين الاعتراف الدبلوماسي ، مغزى خطير بالنسبة للاستقرار الداخلي للمنطقة السوفياتية ، خاصة وأن « قادة المعارضة السياسيين في طول البلقان وعرضه كانوا قد اتصلوا بالممثلين الاميركيين يسألونهم الدعم » (٩) . وكذلك القى هذا الهجوم ضوءا كاشفا على السياسة الاميركية الجديدة .

مثلا كانت رومانيا ، المحتلة من جانب السوفيات ، تدور في السابق ، في المدار النازي ، وكانت قد ارسلت ستة وعشرين فصيلا للمشاركة في التدمير النازي للاتحاد السوفياتي . وكان تشرشل في اجتماعه مع ستالين في موسكو في تشرين الاول عام ١٩٤٤ قد وافق على نفوذ سياسي للاتحاد السوفياتي في رومانيا يبلغ ٩٠ بالمئة بموازاة نفوذه هو البالغ ٩٠ بالمئة في اليونان. ولم تكن واشنطن قد اصدرت اي

---

٥ ـ انظر غار البيروفيتز ، الدبلوماسية الذرية : هيروشيما وبوتسدام ، ص ١٣٥ .

٦ ـ البيروفيتز ، المصدر السابق ، ص ١٣ ، ٢٥ ، ٨٦ ، ٨٧ . وكذلك وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ؛ الفصل السادس بصدد سيادة وجهة النظر هذه في واشنطن في ذلك الحين.

٧ ـ ليبمان ، الحرب الباردة .

٨ ـ ديغول ، الخلاص ١٩٤٤-١٩٤٦ . انظر ايضا بحث ديغول ليالطه وفيه يقول ان البريطانيين والاميركيين عقدوا اتفاقية «عنت في الممارسة ترك السوفيات يستخدمون وسائلهم هم» ص ٨٧-٨٩ .

٩ ـ البيروفيتز ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

احتجاج على تدخل بريطانيا العسكري حديثا في اليونان (١٠) ولم تتحد النظام التابع الذي نجم عن هذا التدخل على اساس طابعه غير الديمقراطي، كما انها منحت اعترافا فوريا لنظام بادوغليو ، الذي قام بطريقة لا تقل في لا ديمقراطيتها ، في ايطاليا قبل ذلك بسنة (١١). ومع ذلك رفضت الاعتراف بالحكومة التي تبناها السوفيات في رومانيا وفعلت ذلك باسم المبدأ ، أي باسم الدفاع عن الحرية وتقرير المصير . وفيما بعد اثبت هذا فعاليته كراية لبرنامج الحرب الباردة في الغرب . لكن عواقبه بالنسبة الى اقطار اوروبا الشرقية ، الواقعة في الجانب السوفياتي من خط الهدنة وفي أكثر مناطق أمن الاتحاد السوفياتي حساسية ، كانت عكس ما يعد به هذا البرنامج . ذلك أنه بازدياد حدة التحدي الغربي لنفوذ روسيا ، وجدت موسكو نفسها مجبرة بالضرورة على مواجهته بشد اعنة سيطرتها . ولا شك في ان قادة الولايات المتحدة كانوا يفهمون ذلك ، ولكنهم لم يكونوا اساسا مهتمين بتأمين أكبر قدر من الحرية ضمن دائرة النفوذ السوفياتي ، بل بطرد النفوذ السوفياتي بأكمله واعادة تأكيد السيطرة الغربية (١٢) .

كذلك كانت بادرة واشنطن في البلقان بالغة الدلالة بالعلاقة مع الدور الذي لعبته توسعية الباب المفتوح في تطورها . وكان قادة الولايات المتحدة ، في ذلك الحين ، يعيدون التأكيد بقوة على سياسة الباب المفتوح هذه . فقد كان هؤلاء يؤكدون ضرورة اعادة فتح المنافذ القديمة وايجاد منافذ جديدة « لفائض انتاجنا » (وزير الخارجية هل) (١٣) ، وذلك على أساس الخوف من حدوث كساد بعد الحرب . هكذا ، في الوقت الذي كانت فيه واشنطن تؤكد علنا على أهمية قيام انتخابات حرة لتشكيل حكومة رومانية ممثلة بصورة كافية ، كانت وزارة الخارجية

---

١٠ ـ وفي الواقع قدمت الولايات المتحدة طائرات وطيارين لدعم هذا التدخل . اما ستالين فقد بقي من جانبه صامتا التزاما بنص اتفاقه مع تشرشل في الوقت الذي سحقت فيه القوة المتدخلة الشيوعيين اليونانيين .

١١ ـ خلف المارشال بادوغليو ، قائد حملة الحبشة ، موسوليني نتيجة لانقلاب «من فوق» .

١٢ ـ شرح بول نتز ، احد اعضاء هيئة تخطيط السياسة وفيما بعد مديرها ، الامر بقوله : «كان هدفنا عام ١٩٤٨ ان ... تصبح في المنطقة انظمة مستجيبة لارادة شعوب اوروبا الشرقية ـ وبكلمات اخرى ان تكون المنطقة ضمن منطقة سلطة العالم الحر ...» . ورد في كلاوس نور (محرر) ، حلف شمال الاطلسي والامن الاميركي .

١٣ ـ كان هل قد صاغ الاختيارات المتاحة ، في وقت مبكر يعود الى عام ١٩٣٣ ، بصورة صارخة: «يستطيع اي بلد كان ان يتدبر امره بطريقة ما بالاعتماد تماما على السوق المحلي . غير ان عملية كهذه تعني اعادة بناء اقتصاد البلد المحلي بأكمله . وهذا يعني بالنسبة للزراعة الحد من المساحة المزروعة وبالنسبة للصناعة الحد من الانتاج ...» . ورد في تشارلز بيرد ، فكرة المصلحة القومية ، ص ٥٣٧ . وبصدد الاجماع في واشنطن حول هذه المسألة ، انظر وليامز ، المصدر السابق ، الفصل السادس .

الاميركية تنصح ترومان بصورة سرية بالا يمنح الاعتراف حتى يصبح ممكنا « الحصول على فرصة مساوية لمصالح الولايات المتحدة في هذه المناطق واتفاقية تصون حقوق الملاك الاميركيين » (١٤) (على سبيل المثال ، كانت الشركات الاميركية تملك ٨٥ بالمئة من النفط الروماني قبل الحرب) اضافة الى ذلك لم تكن هذه نقطة ثانوية في الصدام، اذ ان الروس لم يكونوا اطلاقا مستعدين لفتح الباب امام تدفق راس المال والنفوذ الاميركي الى اوروبا الشرقية التي كانت بالنسبة لهم منطقة أمن بالغة الاهمية (١٥) .

وفي النهاية ، فشلت محاولة واشنطن لاعادة الوضع الذي كان سائدا قبل الحرب في بلدان « الحزام الواقي » ، فميزان القوى الذي اعترفت به اتفاقيات يالطا . وعكسته لم يتغير بما يكفي لاجبار الاتحاد السوفياتي على الانسحاب من خط الهدنة من طرف واحد . لقد استطاعت واشنطن تعبئة قواها الدبلوماسية والاقتصادية والذرية الطفلة لتعزيز المجابهة السياسية التي خطط لها عام ١٩٤٥ ؛ لكن عاملا حاسما هو القوة المسلحة التقليدية كان غائبا . فحاول ترومان ضمان قوة مسلحة كافية لدعم دبلوماسيته ، حتى أنه اعلن نيته (بعد استسلام اليابان بثلاثة أيام فقط) للضغط في اتجاه تدريب عسكري شامل وتجنيد اجباري في وقت

---

١٤ ــ مذكرة لوزارة الخارجية الاميركية ، وردت في غاودنر ، المصدر السابق ص ٣١٠ . في هذا المضمار ، من المتع ان نلاحظ ان هاريمان ، سفير الولايات المتحدة الى روسيا واحد مخططي سياسة واشنطن المقبلة في اوروبا الشرقية بعد الحرب ، هو ذاته هاريمان الشركة الشهيرة ، احدى اكبر المجموعات المالية في الولايات المتحدة وصاحبة مصالح واسعة في حقل المواد الخام في اوروبا الشرقية قبل الحرب . وعلى الرغم من ان دور رجل في موقع نافذ كهاريمان ليس بغير ذي بال ، الا انه يجب ان لا يضخم . ففي المقام الاول ، كان معظم صانعي السياسة المهمين رجال اعمال من طراز او آخر . وفي المقام الثاني ، كان افراد النخبة السياسية بشكل عام يشتركون في حمل ايديولوجية الباب المفتوح . فقد ظن التقدميون من أمثال هنري والاس ان من الممكن جعل روسيا تعين اميركا على توسيع امبراطورية الباب المفتوح ، بينما ظن المحافظون ان ذلك غير ممكن .

١٥ ــ ادلى وزير الخارجية السوفياتي مولوتوف بالملاحظات التالية : «مؤخرا اصبح مبدأ ما يسمى «الفرص المتساوية» موضوعا مفضلا . اذ يقال : أهناك ما هو أفضل من هذا المبدأ الذي سيعطي فرصا متساوية لكل الدول دون تمييز ؟.. دعنا نبحث مبدأ التساوي هذا بجدية واخلاص .. خذ رومانيا ، التي انهكتها الحرب ، ويوغوسلافيا ، التي دمرها الفاشيون الالمان والايطاليون ، والولايات المتحدة التي نمت ثروتها خلال الحرب نموا ضخما ، ترى في الحال ما الذي سيعنيه وضع مبدأ «الفرص المتساوية» موضع تطبيق . تخيل في ظل هذه الظروف ان مبدأ «الفرص المتساوية» هذا اعطي في رومانيا او يوغوسلافيا أو اي دولة اخرى انهكتها الحرب لرأس المال الاميركي ــ اي اعطيت له الفرصة لاختراق الصناعة الرومانية والصناعة اليوغوسلافية دون عوائق ، فما الذي كان سيظل من صناعة رومانيا الوطنية او من صناعة يوغوسلافيا الوطنية ؟» . مشاكل السياسة الخارجية ، موسكو ١٩٤٩ ، ص ٢٠٧ ــ ٢١٤ .

السلام مما لم يسبقه مثيل في تاريخ الولايات المتحدة . لكن هذه المبادرة اثبتت فشلها (١٦) .

وخلف هذا الفشل ، كانت تقف عدة عوامل لم يستطع القادة الغربيون التغلب عليها الا بعد ذلك بأربع سنوات حينما اصبحت اقامة حشد معاكس في الشرق امرا مستحيلا . لم يكن ممكنا الحصول على دعم شعبي لمواجهة مباشرة مع الاتحاد السوفياتي وذلك لعدة عوامل : وخاصة بسبب الدور الذي لعبه الاتحاد السوفياتي خلال الحرب (وكذلك الدعاية المحبذة للسوفيات وستالين التي نشرتها حكومات الغرب وصحافته ، وفيها بالطبع الكثير من عناصر الكلبية) ، وايضا بسبب الحرية النسبية التي منحها ستالين لاوروبا الشرقية في عام ١٩٤٥ والكبح الذي فرضه على الاحزاب الشيوعية في اوروبا الغربية . وقد رفض الكونغرس الاميركي خطة ترومان للتدريب العسكري الشامل ، بينما اجبرته التظاهرات في القوات المسلحة في الخارج على استدعاء عدد كبير من هذه القوات (١٧) . وقد اعترف هاريمان فيما بعد : « لم يكن باستطاعتنا محاولة اجبار الاتحاد السوفياتي على الانسحاب من الاراضي التي يسيطر عليها الا بالاحتفاظ بقواتنا المسلحة بعد ان استسلمت المانيا واليابان » (١٨) .

تابعت الولايات المتحدة في الفترة اللاحقة استراتيجية « المواجهة » ببرنامج اسمي رسميا « الاحتواء » . وقد رفض هذا البرنامج فكرة الوصول الى تسوية عن طريق التفاوض ، وقدم بدلا منها فكرة حشد القوة الغربية لممارسة ضغط على الدولة السوفياتية المنهكة لاجبارها على الانسحاب من خط الهدنة . وشكلت الحملة الدبلوماسية ضد حكومات اوروبا الشرقية التي يدعمها الكرملين رأس حربة هذا الضغط ، ودعمه تطويق عسكري شامل للمنطقة السوفياتية . وكانت اهداف هذا الحشد (الذي كان يقف على بعد خطوة من الحرب الوقائية التي اقترحها علانية بعض اعضاء مجلس الوزراء وبعض الجنرالات) تحميل النظام السياسي والاقتصادي السوفياتي أكثر من طاقته باضافة اعباء التسلح الى اعباء اعادة البناء بعد الحرب التي كانت تثقله ، وتأخير تطور روسيا الى ان يحصل الانهيار (١٩). وكان من المرجو

---

١٦ – حلل البيروفيتز بالتفصيل سياسة المواجهة هذه . وكان بلاكيت اول من اوضح ان القنبلتين الذريتين اللتين القيتا على اليابان حققتا اهدافا دبلوماسية بالعلاقة مع الاتحاد السوفياتي اكثر مما حققتا اهدافا عسكرية لم يكن ممكنا تحقيقها بوسائل اخرى (النتائج العسكرية والسياسية للاسلحة الذرية) . بصدد محاولة تعبئة قوات تقليدية ، انظر البيروفيتز ، المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ١٢٩ ، ٢٢٤ الخ .

١٧ – في ٣١ آب ١٩٤٥ ، كانت قوات الولايات المتحدة تبلغ ١١٫٩ مليونا بالمقارنة مع ١٠٫٦ مليونا من القوات المسلحة لدى روسيا . غير ان معظم قوات الولايات المتحدة كان في الشرق الاقصى .

١٨ – ورد في البيروفيتز ، ص ٢٢٤ .

١٩ – صيغت استراتيجية «التأخير والتحميل فوق الطاقة» رسميا في عامي ١٩٥١ و١٩٥٢ ، رغم انها كانت متضمنة بوضوح في برنامج الاحتواء .

ان تؤدي هذه الضغوط مجتمعة الى «تحرير» اوروبا الشرقية (والاتحاد السوفياتي) دون خوض حرب قتالية .

كان برنامج الاحتواء في جانبه الدفاعي يتجه الى اعادة البنية المحافظة الى المجتمع الاوروبي ، ذلك المجتمع الذي هزته بشكل خطر الفاشية والحرب والكساد واصبح الآن يتعرض للتحدي من جانب اليسار الشيوعي . وقد وافق انشاء حلف شمالي الاطلسي هذا الفرض السياسي (٢٠) ، كما وافقته ايضا الجهود المبذولة لخلق قلعة معادية للشيوعية من المناطق الغربية للرايخ المهزوم في مركز اوروبا المهزومة والمهزوزة سياسيا واجتماعيا . وعلى حد تعبير اللجنة الخاصة للسياسة الاقتصادية والتخطيط بعد الحرب التي شكلها الكونغرس (كانون الاول ١٩٤٦) ، كانت « المانيا مسؤولية خاصة تقع على عاتق القوى الغربية ، فعلى مصيرها يتوقف بصورة رئيسية مستقبل اوروبا حيال الشيوعية » .

كانت سياسة الولايات المتحدة تجاه المانيا ، والتي ابتعدت بسرعة عن اتفاقيات يالطه للتعويضات (٢١) ، مدفوعة جزئيا في البداية بالرغبة في الحيلولة دون تكرار الحالة السياسية والاقتصادية المشؤومة التي اعقبت الحرب الاولى ، واساسا بالرغبة في حرمان الاتحاد السوفياتي من التعويضات . وسرعان ما أصبحت سياسة احياء القوة الالمانية ، ضمن الاطار العام لبرنامج الاحتواء المعادي للشيوعية ، تحمل دلالات مشؤومة واضحة تذكر بالحلف المعادي للكومنترن في فترة ما بين الحربين ، بما لذلك من آثار على تطور الحرب الباردة .

ذلك أن المانيا أصبحت بسرعة ، وبمساعدة الولايات المتحدة، قوة اوروبية كبرى تحمل « ظلامات » سياسية واقليمية خطيرة تجاه اوروبا الشرقية ، ولم تكن هناك وسيلة لتجاوز هذه الظلامات غير حرب جديدة . ولم تكن هذه الاستعادة للماضي الالماني ظاهرة عرضية ، بل كان لها جذور بنيوية . فقد صاحبت عودة الراسمالية الالمانية عودة الحكام الاقتصاديين ذاتهم الذين دعموا هتلر كحليف لهم ضد الشيوعية المحلية العالمية . وتبع ذلك عودة الجنرالات الالمان ذاتهم ، الذين قادوا حملة هتلر لتدمير « النظام البلشفي ـ اليهودي » في الشرق (٢٢) ، الى السلطة ورفعهم الى

---

٢٠ ـ من وجهة نظر عسكرية بحتة ، وكما اعترف جورج كينان حديثا ، لم تكن هناك حاجة لحلف شمال الاطلسي اطلاقا . فقد اوضح فشل ستالين في غزو دولة يوغوسلافيا «المرتدة» ان قوة روسيا في الواقع محتواة او هي مكتفية ذاتيا . وقد شكّل حلف وارسو بعد تشكيل حلف شمالي الاطلسي بست سنوات ، وفقط بعد ان اعيد تسليح المانيا وتم دمجها في حلف الاطلسي .

٢١ ـ البيروفيتز ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ وما بعدها .

٢٢ ـ اصبح ادولف هيوسنغر ، رئيس عمليات هتلر وأحد مجرمي الحرب ، رئيس اللجنة العسكرية لحلف الاطلسي في واشنطن ، هذا اذا اخترنا مثالا واحدا واضحا فحسب . استخدم فون مانشتاين هذا التعبير (النظام البلشفي ـ اليهودي) ليفسر لجنوده عام ١٩٤١ ضرورة القيام بمذبحة على الجبهة الشرقية («يجب على الجندي ان يبدي انتقاما شديدا ضد اليهودية التي هي الاب الروحي =

مصاف القيادة العسكرية لحلف شمالي الاطلسي . وكان التصلب السياسي لتقسيمات الحرب الباردة ـ الفشل في تحقيق انسحاب متبادل من خط الهدنة ودمج اوروبا الشرقية بالنظام السوفياتي ـ مرتبطا ارتباطا وثيقا بالصدام حول هذه التطورات الالمانية . وظل عدم قابلية مشاكل الانقسام الاوروبي للحل ، والى فترة طويلة تالية ، ناجما الى حد بعيد عن عدم قابلية المشكلة الالمانية للحل (٢٣) .

وبعد صدور تقرير اللجنة الخاصة بثلاثة اشهر ، شن الرئيس ترومان الحرب الباردة رسميا في خطابه ، «المبدأ» ، في آذار ١٩٤٧ معلنا حملة ايديولوجية ضد الشيوعية السوفياتية ، وفي الوقت ذاته التزاما مفتوحا باحتواء الثورة المسلحة اينما نشبت . وكان الصدام الذي لا تسوية له الذي تحدث عنه في خطابه هو الصدام بين «الطريقة الديمقراطية في الحياة» والطريقة غير الديمقراطية . ولكن بقدر ما كان العمل المحدد الذي التزم به مبدأ ترومان هو الدفاع عن حكومة غير ديمقراطية مفروضة من الخارج في اليونان ضد حركة ثورية محلية تتمتع بالشعبية، اتضح (وهذا ما اثبته كل فحوى برنامج الولايات المتحدة اللاحق في الحرب الباردة) ان العدو الحقيقي الذي تطارده واشنطن ليس «التوتاليتارية» السوفياتية على الاطلاق (٢٤) ، بل العدو الاقدم ، الثورة السوفياتية باستهوائها للطبقات التي لا تملك «كي تحصل على نصيب لها عن طريق الحكومة وليس عن طريق المشاريع الفردية (الخاصة) . هنا كان «الخطر الذي يتهدد النظام الاجتماعي القائم في كل البلدان» والذي نظم برنامج الحرب الباردة الاميركي لاحتوائه .

عكست شروط مبدأ ترومان (الذي كان التفكير به قد تم في وقت مبكر يعود الى خريف عام ١٩٤٥) والخيار الايديولوجي الواضح الذي مثله ، ادراك القادة الاميركيين

= للارهاب البلشفي») لكن الفكرة على اية حال اساسية في النازية ومتأصلة فيها . حكم على فون مانشتاين بالسجن ثمانية عشر عاما لجرائمه ، لكن فون مانشتاين اعتبر ، طبقا لمراسل النيويورك تايمز آرثر اولسن «ارفع الجنود الالمان الذين عاشوا الحرب ... بشرف منزلة» . ورد في تيتنز ، المانيا الجديدة والنازيون القدامى .

٢٣ ـ كان هذا متضمنا بوضوح في نقد ليبمان للاحتواء (١٩٤٧) عندما خلص الى ان الدور الذي اعطي لالمانيا في البرنامج استتبع «اخطر نتائج سياسة الاحتواء واكثرها تدميرا» . وأكد ذلك ايضا جورج كينان ، صاحب فكرة الاحتواء في محاضراته عام ١٩٥٧ ، وكذلك في محاضرته في المعهد العالي للدراسات الدولية (جنيف) في ايار ١٩٦٥ التي قال فيها «منذ اللحظة (التي شكل فيها حلف الاطلسي) ؛ اصبح حل المشاكل الكبرى لاوروبا حلا سلميا على اي اساس غير التقسيم الدائم لالمانيا والقارة الاوروبية ، وما يتضمنه ذلك من وضع الشعوب الاوروبية الشرقية في دائرة السلطة السوفياتية الى اجل غير محدد ، اصبح ذلك امرا لا يمكن تقريبا تصوره نظريا ...» .

٢٤ ـ كذلك فان الموقف المتهاود جدا الذي اتخذته السياسة الاميركية تجاه عملاء النازية الباقين على قيد الحياة في المانيا الغربية اوضحان الالتزام الاميركي بالعداء للتوتاليتاريةاقل حماسا مما كانت تشير اليه خطابية مبدأ ترومان .

ان مشاكل ما بعد الحرب التي تواجههم تمتد الى ابعد من اوروبا الشرقية بكثير وان المسألة الاساسية لا تقف عند حدود شروط التسوية السلمية بعد الحرب ، بل تشمل بقاء نظام «العالم الحر» الراسمالي ذاته . ففي ذلك الحين ، لم يكن التهديد يكمن في القوة العسكرية او الاقتصادية للاتحاد السوفياتي شبه المتخلف الذي يفتقر الى الاسلحة الذرية والذي دمرته الحرب (٢٥) وقاسى مجاعة خطيرة في السنة التي سبقت اعلان مبدأ ترومان ولا يزال يواجه (في ظل نقص خطير في القوة العاملة وراس المال) واحدة من اشق مهام التعمير بعد الحرب ، بل كان التهديد يكمن في الفشل المتراكم الذي يعاني منه النظام الراسمالي ذاته .

ذلك ان بنية المجتمع الراسمالي العالمي عانت في عام ١٩١٤ اهتزازا عنيفا وعميقا ولم تستعد توازنها مذ ذاك . وكان من ضحالة الاستقرار الجزئي في فترة ما بين الحربين وثبات علائم التحلل ان الربط بين النكبات الاجتماعية «المحلية» والعامة لم يعد في ذلك الحين منظورا ماركسيا فحسب بل وكذلك منظورا يتقبله الجميع . فمثلا كتب احد اكثر الاقتصاديين محافظة في عام ١٩٣٤ يقول : «اننا لا نعيش في السنة الرابعة ، بل في السنة التاسعة عشرة للأزمة العالمية» (٢٦) . لقد وجدت ازمة الراسمالية الاحتكارية العالمية هذه اعمق تعبير اقتصادي عنها في بطالة وفقر فترة «الركود العظيم» ، كما وجدت في البربريات النازية والحرب دركها الاخلاقي والسياسي الاسفل .

واجهت الآثار المتراكمة للأزمة طويلة المدى قادة القوى الراسمالية الكبرى عام ١٩٤٥ بسلسلة من المشاكل الحادة . فداخليا ، واجهت الولايات المتحدة مهمة ضخمة هي التحول من الانتاج الحربي الى الانتاج السلمي في اقتصاد لم يحل المشاكل البنيوية التي ادت الى مأزق الثلاثينات (فمثلا ، كان هناك في وقت متأخر وحتى عام ١٩٤٥ عندما دخل الانتاج الحربي مرحلة اكتماله ، كان هناك ثمانية ملايين عامل لا يزالون عاطلين عن العمل) . وخارجيا ، في اوروبا ، ونتيجة للأزمة الاقتصادية وصعود الفاشية ، برزت حركات شيوعية جماهيرية — وعلى الاخص في فرنسا وايطاليا ، لتتحدى الوضع القائم الراسمالي . اما في العالم المتخلف ، فقد كانت الامبراطوريات الكولونيالية القديمة في مرحلة متقدمة من تحللها ، جزئيا نتيجة الصدام بين القوى الامبريالية خلال الحرب ، ذلك الصدام الذي نجم عنه تدمير القوى الامبريالية ذاتها وانهاكها جزئيا نتيجة الصدام بين الامبريالية اليابانية والقوى الكولونيالية البيضاء في آسيا ، وجزئيا كذلك نتيجة لبروز حركات شيوعية

---

٢٥ — «ليس هناك من أمة في تاريخ الحروب عانت اكثر مما عانى الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية . فقد فقد عشرون مليونا على الاقل حياتهم وأحرقت او نهبت ملايين لا تحصى من البيوت والعائلات . وتحول ثلث اراضي البلد ، بما في ذلك ثلثا قاعدته الصناعية ، الى قفر — وتلك خسارة تعادل تدمير هذا البلد الى الشرق من شيكاغو» جون كينيدي ، ١٠ حزيران ١٩٦٣ .

٢٦ — ليونيل روبنس «الازمة الكبرى» .

وقومية مسلحة تتحدى الوضع القائم خلال الفترة السابقة .

كان قادة الولايات المتحدة ينظرون من وجهة نظر اقتصادية ، لا الى المشاكل المحلية (التي كانوا يرون فيها مسألة اسواق) فحسب ، بل وكذلك الى المشاكل الخارجية التي تبدو سياسية . لا شك في انهم كانوا يفهمون حق الفهم الابعاد السياسية للأزمات التي واجهوها ، فقد كانت الحملة الايديولوجية ضد الاتحاد السوفياتي بالتأكيد اعترافا بأهمية هذا العامل . لكن قادة الولايات المتحدة اعتبروا ان اساس هذه التحديات والارض التي تضرب جذورها فيها انما تقع في الحقل الاقتصادي . هكذا فان الرجل الذي صاغ «مبدأ ترومان» بتأكيده على الخطر السياسي الذي تمثله روسيا ، جاهر قبل اسبوعين من ذلك فقط بوجهة نظره بصدد الازمة ـ مشيرا الى انها اساسا مشكلة اقتصادية :

«هناك الكثير من الدلائل على ان العالم يقترب هذه السنة من اعظم ازمة عرفها منذ تحول مسار الحرب في تشرين الثاني عام ١٩٤٢ . وهذه الازمة اساسا ازمة اقتصادية تتركز في بريطانيا وامبراطوريتها وفرنسا والمانيا والصين ... واذا سمح لهذه المناطق بأن تتدهور فتنحط الى فوضى اقتصادية ، فانها في احسن الاحوال ستخرج عن مدار الولايات المتحدة وتحاول انتهاج سياسة قومية مستقلة ، وفي اسوأ الاحوال ستدخل في مدار روسيا» .

واذا حدث اي من الامرين (اي الاستقلال القومي عن امبراطورية الباب المفتوح الاميركية او الدخول في منطقة النفوذ السوفياتي) فان الولايات المتحدة ستواجه «عزلة اقتصادية» ؛ وفي هذه الحالة :

«لا ارى كيف يمكننا تجنب كساد اعظم من ذاك الذي حل بنا في فترة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ وتجنب ضرائب باهظة تمكننا من الوفاء بالالتزامات المباشرة التي سنضطر الى التعهد بها على نطاق العالم اجمع» (٢٧) .

لكن الذي حدث هو ان برنامج الولايات المتحدة في الحرب الباردة الذي صاغه مبدأ ترومان وخطة مارشال لمساعدة اوروبا اقتصاديا وتحالف شمال الاطلسي اعاد التوازن السياسي والاقتصادي الى العالم الراسمالي بشكل فعال . فخلال العقدين اللذين اعقبا الحرب ، شهدت اوروبا قدرا من الاستقرار لم تشهده منذ عام ١٩١٤ ، كما شهدت الولايات المتحدة استقرارا لم تعرفه منذ عام ١٩٢٩ . وكان الطابع الدرامي لهذا التحول ناجما الى حد ما عن المبالغة في تقدير مشكلة تحول الولايات المتحدة من اقتصاد حرب الى اقتصاد سلام : فهنا تأخر ادراك ان الادخار الذي فرض وقت الحرب والطلب الاستهلاكي الذي لم يلب ومتطلبات الإعمار خلقت من الاسواق ما يكفي لاسناد الاقتصاد في فترة التحول الاولية من الانتاج الحربي الى الانتاج السلمي . واذا كان هناك من عامل جديد في الانتعاش الاقتصادي بعد الحرب

---

٢٧ ـ رسالة من جوزف جونز الى مساعد وزير الخارجية الاميركية للشؤون العامة وليام جونز في ٢٦ شباط ١٩٤٧ . وردت في هنري بيرغر ، نقد محافظ للاحتواء في «الاحتواء والثورة» .

فهو رغبة حكومة الولايات المتحدة في تقديم قروض عامة ضخمة ومساعدة على شكل راسمال للصناعة الاوروبية والحكومات الاوروبية لاعادة الانتاج الاوروبي والتجارة الدولية الى سابق عهدهما وفتح اسواق جديدة للشركات الاميركية (في حقلـــــي الاستثمار الخارجي المباشر وتجارة تصدير السلع العسكرية والاقتصادية معا) (٢٨).

ومع ذلك ، اذا كان الانتعاش بعد الحرب ، وما نجم عنه من توازن ، بالغ الاثر بالمقارنة مع ما سبقه ، الا انه لا يعطي اي اساس للافتراض ان الميول الاساسية للنظام الراسمالي نحو عدم الاستقرار واختلال التوازن قد ازيلت بأي نوع مـــن الاصلاحات البنيوية كتلك التي اعتبر المدافعون الحصيفون عن النظام الراسمالي انها حتمية في نهاية فترة ما بعد الحربين . هكذا ، ورغم ادخال الاساليب الكينزية المالية والنقدية لابطاء الدورة التجارية بعد الحرب (٢٩) على نطاق واسع ، الا ان ايا من الاصلاحين الاساسيين البنيويين اللذين اقترحهما كينز بوصفهما ضروريين للاستقرار بعيد المدى ، وهما بالتحديد «تشريـــك الاستثمار» واعادة توزيـــع الثروة (٣٠) ، لم يوضع موضع التنفيذ في اي مكان في العالم الراسمالي (٣١) .

كان ما جعل هذه الاصلاحات الحيوية غير عملية على الاطلاق هو توزيع السلطة الاجتماعية والسياسية في تلك المجتمعات ، هذا التوزيع الذي ينبثق ، مثله مثل توزيع الثروة ، عن ملكية رأس المال الانتاجي والسيطرة عليه . وقد اثرت البنية الطبقية على نمط انفاق الدولة الكينزية ، فكان ان حدّ من اشكال الاستثمار التي تميل الى توسيع الرفاه الاجتماعي فتؤدي بالتالي الى اعادة توزيع الثروة والموارد

---

٢٨ ــ انظر اوليفر كوكس ، الراسمالية والقيادة الاميركية ، وخاصة الفصل الرابع . يبحث كوكس تطور سياسة الاقراض الاميركية بالعلاقة مع تسلم الولايات المتحدة لزمام القيادة في النظام الراسمالي العالمي . بصدد برنامج المساعدة بعد الحرب ، انظر مثلا علوي وخرصو ، باكستان : عبء المعونة الاميركية . وبصدد سياسة الاقراض ضمن اطار برنامج الباب المفتوح انظر ، وليامز وغاردنر ، المصدرين السابقين . وكذلك دافيد ايكنز ، المخططين الاقتصاديين وتطور السياسة الاقتصادية الاميركيـــة بعد الحرب .

٢٩ ــ بصدد تحليل ونقد هذه الاساليب من وجهة اثرها المحدود ، انظر غيلمان ، الازدهار في الازمة.

٣٠ ــ اما اقتراحه بتخفيض وتائر الفائدة تخفيضا جذريا فيعني امرا من النوع ذاته من وجهـــة نظر اجتماعية .

٣١ ــ مثلا «منذ حوالي عام ١٩٤٩ ، لا زال عدم تساوي الثروة (في الولايات المتحدة) ينمو بوتيرة تفوق ضعف وتيرة هبوطه بين ١٩٢٢ و١٩٤٩ ... وليس هناك من الدلائل ما يشير الى ان بريطانيا لا تسير على الطريق ذاته منذ نهاية الاربعينات» وتيتموس في مقدمته لكتاب توني ، المساواة .

انظر تيتموس ، توزيع الدخل والتغيير الاجتماعي. وكذلك كوكلو ، الثروة والسلطة في اميركا . وبصدد الملامح البارزة لراسمالية ما بعد الحرب «الجديدة» ، انظر روبن بلاكبرن ، الراسمالية الجديدة، وجون وسترغارد ، اضمحلال الطبقة : خرافة حديثة . وانظر ايضا بلاكبرن ، المجتمع غير المتساوي.

الاجتماعية (٣٢) ؛ في حين ضخّم اكثر أشكال الاستثمار تدميرا وتسببا في الاختلال السياسي ــ الا وهو انتاج الاسلحة (٣٣) . (لم يكن الاثر الباعث على اختلال التوازن طويل المدى للانفاق التسليحي مقتصرا على حقل العلاقات بين الدول . ذلك ان الفشل في معالجة الازمة الاجتماعية المحلية المتنامية في الولايات المتحدة في حقول التخطيط المدني والاسكان والجريمة والعلاقات العرقية فاقم التوترات الاجتماعية وشجع الاستقطاب السياسي في جو من العنف الاجتماعي المتزايد) .

ففي الولايات المتحدة ــ وهي الحالة الاهم لكونها تحتل موقعا مسيطرا في النظام الرأسمالي العالمي ــ كان اتساع القطاع العسكري يسيطر بشكل ساحق على زيادة الانفاق الحكومي منذ عام ١٩٢٩ (٣٤) . اضافة الى ذلك ، كان للاقتصاد التسلحي دون شك اهمية حاسمة بالنسبة للطلب الفعال واسناد الازدهار الاقتصادي بعد الحرب . ففي حين كانت هناك عوامل هامة تدعم الصعود الاقتصادي مثل الثورة التقنية الرئيسية وازدياد عدد السكان بعد الحرب والاتساع الهائل في التسليف المتوافر (٣٥) ، الا ان «الانفاق الدفاعي» في هذه الفترة ككل «لعب دورا في التوسع الاقتصادي اقوى بمرتين من الاستثمار الخاص» (٣٦) فبلغ في بعض الاحيان ٦٠ بالمئة من مجمل رأس المال المحلي (٣٧) . وعلى حد تعبير واحدة من ابرز المتعاونين مع كينز في كامبردج «مهما يكن من امر ، فقد كان الازدهار الكينزي نتيجة جانبية للحرب الباردة» (٣٨) .

اما في اوروبا ؛ فقد كان الكثير من العوامل التي ساهمت في التوازن الاقتصادي بعد الحرب مختلفا عن العوامل التي لعبت الدور ذاته في الولايات المتحدة ، على الرغم من ان حيوية الاقتصاد الاميركي ، المحفوزة بالانفاق التسلحي ، وضعت حجر الاساس للانتعاش والتوسع الاقتصادي الاوروبي ، وبدون ذلك لم يكن هذا الانتعاش ممكنا . ومن بين العوامل الرئيسية في «المعجزة» الاوروبية : الطلب الذي خلقه الدمار وانهاك بنية رأس المال الاوروبي ، والمعونة والاستثمار الاميركيان اللذان

---

٣٢ ــ ف.م. باتور ، مسألة الانفاق الحكومي .

٣٣ ــ بصدد الاسباب البنيوية لعدم قدرة الحكومات الرأسمالية على انتهاج برامج رفاه على نطاق يلبي الحاجات الاجتماعية او يقف على قدم المساواة مع الانفاق العسكري ، انظر جوان روبنسون ، ماركس ، مارشال ، كينز . وكذلك باران وسويزي ، رأس المال الاحتكاري . وأيضا مايكل كيردون، اقتصاد تسليحي دائم .

٣٤ ــ ف.م. باتور ، مسألة الانفاق الحكومي ، المصدر السابق .

٣٥ ــ في عام ١٩٦٧ ، بلغت ديون المستهلكين ٥٥ بالمئة من دخلهم ، وذلك ما لم يسبق له مثيل. (منتلي ريفيو ، نيسان ١٩٦٧) .

٣٦ ــ الفن هانسن ، الاقتصاد الاميركي بعد الحرب ، ص ٢٨ .

٣٧ ــ الامم المتحدة ، النتائج الاقتصادية والاجتماعية لنزع التسلح ، ١٩٦٢ .

٣٨ ــ جوان روبنسون ، الرأسمالية الراهنة . هاري ماغدوف ، مشاكل رأسمالية الولايات المتحدة.

يكادان يكونان بلا حدود ، وتدفق اليد العاملة المهاجرة الرخيصة . وفي اوروبا ايضا ساعد استعمال الاساليب النقدية والمالية الكينزية في وقت ابكر وعلى نطاق اوسع على اسناد التوسع الاقتصادي وحقنه بالثبات ، كما ساعد على ذلك ايضا قطاع عام ضخم وانشاء هيئات للتخطيط .

غير ان هذه العوامل كانت اما ذات طبيعة مؤقتة او انها ظلت سطحية الى حد بعيد نسبة الى القوى الاعمق التي تعمل في النظام . ففي اوروبا ، كما في اميركا، لم يتم القيام بأي تغييرات ثورية بنيوية : فلم تستسلم سلطة الشركات للسلطة الاجتماعية او تخضع لها ، ولم يستبدل تخطيطها (الموجه نحو تحقيق ارباح للشركات) بالتخطيط الاجتماعي (الموجه نحو الوفاء بالاحتياجات الاجتماعية ، ولم يحل التناقض الاساسي بين النزوع الى التوسع «غير المحدود» للقوى الانتاجية والنمو المحدود باطراد للطلب الفعال (٣٩) ، بل ظل يهدد النظام بالركود (٤٠) وتحلل التوازن الاقتصادي حديث العهد .

وهناك عامل اخير من عوامل اسناد توازن ما بعد الحرب وخاصة في حقل العلاقات بين الدول الرأسمالية (ومحليا كذلك) ، وهو العنصر الحديث فعلا في المعادلة الاجتماعية بعد الحرب : اي وجود كتلة ضخمة ذات امكانيات قوية جدا ـ كما اوضحت انتصاراتها خلال الحرب ـ معادية للرأسمالية . ففي وجود هذه الكتلة (والحركات الشيوعية الكبيرة التي تدعمها في الغرب) تم ادخال قدر من الاعتدال على التناحرات بين القوى الرأسمالية واحتواء الصدامات فيما بينها . وتم

---

٣٩ ـ مع الثورة الكينزية في حقل النظرية الاقتصادية وعودة علم الاقتصاد الاورثوذكسي الى دراسة المشاكل الكلاسيكية لدينامية التطور والنمو ، كف هذا التناقض الاساسي عن كونه احد شواغل الماركسيين وغيرهم من الهراطقة الاقتصاديين . فمثلا صاغ احد الرواد الكينزيين في حقل نظرية النمو الحديثة المسألة على النحو التالي : «في مجتمع رأسمالي حيث لا يمكن تغيير توزيع الدخل في الحال، ليس بالامكان الوصول الى مستوى اعلى من الدخل والعمالة في اي وقت معطى الا بزيادة الاستثمار. لكن الاستثمار ، بوصفه اداة لخلق العمالة ، سلاح ذو حدين بسبب ما يحدثه من ازدياد في السعة. وهنا يجد المجتمع نفسه امام معضلة خطيرة : اذا لم يكن هناك قدر كاف من الاستثمار اليوم فستحل البطالة اليوم . ولكن اذا استثمر ما فيه الكفاية اليوم ، فستنشأ الحاجة الى المزيد غدا ... ولذا فان الاستثمار ، بقدر ما يتعلق الامر بالعمالة ، علاج لآفة وسبب في آفات اكبر في المستقبل» . ايفسي دومار ، مقالات في نظرية النمو الاقتصادي ، ص ١٠١ . ان «فائدة» الاستثمار العسكري عن طريق الدولة ، من وجهة نظر هذا النموذج ، هو انه يخلق عمالة مدنية دون التسبب في زيادة مقابلة في السعة الانتاجية المدنية .

٤٠ ـ فمثلا في الولايات المتحدة ، كانت الفجوة بين الناتج الفعلي والممكن، في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٣ و١٩٦٤ ، تبلغ ٥٥٠ بليون دولار و٣٢ مليون رجل ـ ساعة من العمالة ، على حد تقدير ليون كيسرلنغ ، الرئيس السابق لمجلس المستشارين الاقتصاديين في ادارة ترومان . (التقدم أم الفقر ، مؤتمر حول التقدم الاقتصادي) .

تحقيق التعاون في الحقل السياسي عبر توسط حلف الاطلسي ، وعلى المستوى الاقتصادي عبر الاتفاقيات التجارية والنقدية العالمية المختلفة التي لم تكن برغم ذلك تمثل اي تخل حقيقي عن السيادات القومية (٤١) .

تأثرت هذه القيود المفروضة على القومية الاقتصادية الى حد ما بتجربة ما بين الحربين المدمرة ، في حين تعزز ظهور «الدولية» في السنوات الاولى بعد الحرب لان ايا من القوى الراسمالية لم يكن يملك من القوة ما يسمح له بتحدي النظام العالمي الذي اقامته الولايات المتحدة . وحتى مع انتعاش الصناعة الاوروبية وتطور الشقاقات الاقتصادية والسياسية في المعسكر الغربي ، ابدت الحكومات الراسمالية المسيطرة والحكومات الراسمالية المختلفة معها رغبة ملحوظة في عدم دفع الامور الى «الحافة» ، فكان ان لم تقترب التعاديات بين الدول الراسمالية من المدى الذي وصلته في فترة ما بين الحربين . وليس هناك من شك في ان «الخطر» السوفياتي كان العامل الحاسم في حفز هذا التوافق المتبادل (٤٢) .

وبينما بدا برنامج الاحتواء والترسيخ بعد الحرب في اوروبا الغربية والجنوبية نجاحا ليس بحاجة الى دليل من وجهة النظر الراسمالية وخاصة الاميركية ، الا ان الصورة كانت اكثر تعقيدا في اماكن اخرى وخاصة في آسيا .

لقد واجهت الولايات المتحدة فرصا وفي الوقت ذاته مشاكل بفعل تحلل الامبراطوريات الكولونيالية تحت وطأة التأثير المشترك للتوسع الياباني وهزيمته والثورة القومية والانهاك العسكري والاقتصادي الذي أصيبت به القوى الكولونيالية الاوروبية . وعلى الرغم من ان واشنطن اتخذت موقفا متذبذبا بعض الشيء تجاه امكانية انشاء امبراطورية كولونيالية بشكل مكشوف ؛ الا ان التردد لم يكن ليعتريها بصدد مصالحها الخاصة في التنظيم السياسي والاقتصادي لوضع راهن راسمالي ما بعد ـ كولونيالي ، فاتخذت لنفسها دور الوصي على المصالح الثابتة للنظام الراسمالي العالمي في المناطق المتخلفة .

كانت الولايات المتحدة ، والولايات المتحدة وحدها ، هي القادرة على التقدم ببلايين الدولارات على شكل دعم عسكري واقتصادي للمعركة الاخيرة ، وحتى آخر

---

٤١ ـ صاغ واضع المقترحات الاميركية لاصلاح النظام النقدي العالمي عام ١٩٤٥ المسألة على النحو التالي : «ان الحل الذي نتقدم به هو التعاون الدولي ، ولكن وجهة نظرنا اميركية محضة مثلها في ذلك مثل وجهات نظر اكثر الاقتصاديين الانعزاليين تصلبا» . غاردنر ، المصدر السابق، ص ٢٩٠ .

٤٢ ـ كان للكتلة السوفياتية اثر في حفز الاستقرار في النظام الرأسمالي من وجوه اخرى كذلك. فمثلا اصبح مدى التقلبات الاقتصادية محدودا لكون جزء من عالم التجارة قد استثني منها . اضافة الى ذلك ، كان تحدي «التعايش السلمي التنافسي» حافزا هاما على الاصلاحات الداخلية في الاقطار الرأسمالية وادى الى تكثيف الجهود المبذولة للحفاظ على توازن اقتصادي داخلي وعمالة كاملة . انظر جوان روبنسون ، هل تغيرت الراسمالية ؟

خندق ، للحفاظ على «الباب المفتوح» في الصين (٤٣) . كما كانت الولايات المتحدة وحدها هي التي تستطيع تزويد القوى الامبريالية الاخرى بالوسائل التي تمكنها من تحمل ما تستطيع من اعباء في الصراع الشامل للدفاع عن «العالم الحر» ضد الثورات الشيوعية والقومية اليسارية . هكذا استخدم اكثر من نصف المساعدة العسكرية والاقتصادية لفرنسا ، بموجب خطة مارشال وبموجب حلف الاطلسي ، لاستعادة سيطرة فرنسا على الجزائر وفيتنام وليس لحماية فرنسا ذاتها من التهديد السوفياتي الوهمي . وبالمثل لم تكن بلجيكا والبرتغال بحاجة الى اسلحة حلف الاطلسي الا للحفاظ على مستعمراتهما في افريقيا ، بينما لم تستطع بريطانيا استخدام اسلحتها «الدفاعية» الا ضد الثورات القومية في المستعمرات والمستعمرات السابقة في امبراطوريتها .

غير انه ثبت ان استعداد الولايات المتحدة للوفاء من جانبها بما يترتب عليها من الجهد التعاوني انما يعتمد كل الاعتماد على تطور قواها العسكرية ذاتها ومصالحها الاقتصادية ، فكانت كلما سنحت الفرصة تكشف بسرعة عن اوراقها الخاصة في هذه التحالفات المضادة للثورة . ففي خضم النصر ، طردت الولايات المتحدة المصالح الالمانية والايطالية من اميركا اللاتينية وقلصت بشكل جذري امتيازات بريطانيا الاقتصادية في نصف الكرة الغربي (بما في ذلك كندا) ، حاصلة في الوقت ذاته على حقوق حتى في القواعد العسكرية البريطانية الرئيسية في الكاريبي . وفي الفترة الاولى بعد الحرب ، «ورثت» الولايات المتحدة من بريطانيا اليونان والبحر الابيض المتوسط وايران والاردن والشرق الاوسط (فمثلا ، قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن الشركات الاميركية تملك من نفط الشرق الاوسط غير ١٣ بالمئة ، بينما صارت

---

٤٣ ــ على الرغم من ان الولايات المتحدة لم تكن قادرة على دفع جيوشها علنا الى حلبة الصراع ، الا انها كرست له موارد ضخمة، فزودت الكومنتانغ في النهاية في سنوات الحرب الاهلية الثلاث التي اعقبت الحرب العالمية بدعم عسكري واقتصادي يبلغ ضعف ما قدمته له خلال ثماني سنوات من الحرب مع اليابان . انظر مثلا جون غيتنغز ، مصادر السياسة الخارجية الصينية .

ان دعم الولايات المتحدة لنظام شيان كاي شيك يلقي المزيد من الضوء على الطبيعة الطبقية لسياسة واشنطن في عداء الشيوعية . ذلك ان وزارة الخارجية الاميركية كانت في ذلك الحين تعلم ان ماوتسي تونغ مستقل عن موسكو بل وعلى خلاف مع سياساتها . اكثر من ذلك لم يكن كومنتانغ شيان كاي شيك يقدم من وجهة نظر ايديولوجية «الحرية» الغربية اي بديل على الاطلاق لحزب ستالين الشيوعي الذي كان الكومنتانغ مبنيا على غراره . اما بالنسبة لنظام شيان نفسه فقد كان من اكثر الدكتاتوريات العسكرية وحشية في التاريخ الحديث . فقد اعدم مئات الالاف رسميا لتهم سياسية مختلفة من جانب النظام الذي كان يقوم على الارهاب البوليسي والرقابة وكل حلى وزينات الدولة الدكتاتورية المألوفة . اما سياسته الاجتماعية فقد كانت سياسة نهب مخطط لاضعف وافقر قطاعات المجتمع في سبيل اشباع نهم موظفي النظام الفاسدين واثراء الطبقات التقليدية الطفيلية في المجتمع الصيني . ولكنه بالطبع كان اداة طيعة لسياسة الباب المفتوح الاميركية في السوق الصينية .

مع عام ١٩٦٠ تملك ٦٥ بالمئة منه ، اما الحصة البريطانية فقد هبطت من ٦٠ بالمئة الى ٣٠ بالمئة) . واستولت الولايات المتحدة من اليابان المدحورة على اوكيناوا وقواعد المحيط الهادي ، بينما تحركت لتحتل موقعا مسيطرا في كوريا الجنوبية وتايوان . ومن فرنسا ، حصلت الولايات المتحدة على الهند الصينية بعد ان قدمت معونة ومواد هائلة لدعم محاولة الفرنسيين الفاشلة الاحتفاظ بموقعهم الاستعماري في شبه القارة .

وعلى الرغم من ابداء الولايات المتحدة في وقت مبكر التزامها «بمسؤولية» عالمية . الا ان برنامجها في الاحتواء فشل في العالم المتخلف ، ومن جوانب عدة هامة ، في الحصول على ما سعت اليه من فرض استقرار محافظ . ففي حين هزمت الثورة في اليونان ، الا ان الثورة الاهم في الصين لم تهزم . وحتى حيث كان الاحتواء ناجحا مؤقتا ، ثبت ان الاستقرار الذي فرض محفوف بالمخاطر والطريق الى التطور المعتمد على الذات زلق و«خطر» الثورة دائم بهذا القدر او ذاك . هكذا ورغم تحلل الامبراطوريات الرسمية والاستقرار الذي تمتعت به القوى الصناعية الراسمالية ، كان التحدي الثوري للراسمالية العالمية ما يزال قوة تاريخية عالمية تلعب دورها ، كما في السابق ، في اكثر مناطق النظام ادقاعا وتعرضا للاستغلال .

القسم الثالث

الثورة الروسية ومصيرها

- ٦ -

الاطار الثوري الحديث

«... ان عليهم هم انفسهم ان يفعلوا كل ما في وسعهم لاحراز النصر النهائي ، وذلك بأن يوضحوا لانفسهم ما هي مصالحهم الطبقية ، وان يتخذوا موقفهم كحـــزب مستقل بأسرع ما يمكن ، لا بأن يسمحوا لانفسهم ان يخدعهم ، ولو للحظة واحدة ، كلام الديمقراطية البورجوازية الصغـــيرة المنافق ويجرهم الى الامتناع عن التنظيم المستقل لحزب البروليتاريـــا . يجب ان تكون صيحة المعركة : الثـورة الدائمة » .
ماركس وانغلز ١٨٥٠

«ثورة دائمة مقابل مذبحة دائمة : ذلك هو الصراع ، والانسان فيه هو المستقبل».
تروتسكي في البرافدا ، ٧ ايلول ١٩١٧

- ١ -

في محاولتنا فهم المصادر بعيدة المدى للاضطراب الثوري والتغيير في عالم ما بعد الحرب ، نلاحظ اولا ان مصير الثورة البورجوازية ، في الحقبة التـــي تبعت التوسع الكولونيالي في القرن التاسع عشر بأكملها ، اتفق الى حد بعيد مع المسار

الذي اشار اليه البرنامج البلشفي الاصلي . فعلى الرغم من الاهتمام الرسمي الهائل الذي حظيت به مشاكل التخلف وما يسمى ببرامج «المعونة» التي تقدمها القوى الرأسمالية المتطورة ، وفوق ذلك رغم التزام هذه القوى المعلن بتشجيع « الثورة الديمقراطية» في البلدان المتخلفة والدفاع عنها ، ورغم رغبة هذه القوى كذلك في منح الاستقلال السياسي الشكلي (عندما تتحداها الثورة) ، الا ان ايا من الاقطار المتخلفة التي ظلت ضمن اطار الرأسمالية العالمية لم يستطع تحقيق ثورة وتطور بورجوازيين ـ ديمقراطيين مستقرين على شاكلة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

ونتيجة لذلك فان هذه الاقطار جميعا تجابه جملة من المشاكل المعقدة «التي لا حل لها» ، بما في ذلك مشاكل التخلف الاجتماعي والاستنقاع الاقتصادي والتأخر الصناعي والزراعي وبالتالي «الانفجار السكاني» ، وكتعبير على السطح عن هذه التيارات الاعمق ، الاضطراب السياسي المزمن . ففي كل مكان تقريبا في المناطق المتخلفة والمستقلة ، ثبت ان المكاسب الديمقراطية التي تحققت سطحية وعرضية ، وبدا ان هذه المكاسب تؤكد في عرضيتها التحذير الذي اطلقه ماركس بعد هزائم عام ١٨٤٨ الثورية :

«ان كل انتفاضة ثورية ، مهما بدا هدفها بعيدا عن الصراع الطبقي ، لا بد ان تفشل الى ان تنتصر الطبقة العاملة الثورية ... وسيظل كل اصلاح اجتماعي وهما طوباويا الى ان تتقابل الثورة البروليتارية والردة الاقطاعية بالسلاح في حرب عالمية » (١) .

ان احتفاظ المنظور البلشفي بصحته حتى الان يشير الى ان نقطة البدء المناسبة لتحليل الاطار الثوري في العالم المتخلف هي كون اول استيلاء بروليتاري على السلطة قد وقع في محيط متخلف ـ اي الثورة الروسية عام ١٩١٧ . والسؤال الذي يتوجب على تحليل كهذا ان يجيب عليه هو لماذا لم تستطع هذه الثورة ، التي بدات في شباط ١٩١٧ كثورة بورجوازية ـ ديمقراطية ضد الاوتوقراطية القيصرية والتخلف الاقطاعي ، ان تستقر ووجدت نفسها عوضا عن ذلك مضطرة الى التطور الى ثورة بروليتارية ضد الوضع القائم الرأسمالي ؟ وبكلمات اخرى ، ماذا كانت مصادر اكتوبر البلشفي ؟

---

١ ـ ماركس ، مقدمة العمل المأجور ورأس المال ـ١٨٤٩ـ . كان ماركس بالطبع يفكر بأوروبا . ولا شك ان هذه الحرب قد نشبت بمعنى من المعاني في ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وثانية في ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، وان تكن بمعاني اخرى لم تنشب . انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب .

لقد اخضعت الردة الاقطاعية مذ ذاك للثورة المضادة التي نظمتها القوى البورجوازية الراسمالية التي احرزت تفوقا بلا منازع في عام ١٩٤٥ . لكن عدم اكتمال الثورة البورجوازية وعرضيةاصلاحاتها يظلان من المفاهيم الصحيحة .

لقد سبق ان اوردنا الخطوط الرئيسية لمنظور في الثورة البورجوازية المتأخرة بشكل عام والثورة الروسية بشكل خاص يقدم جوابا على هذا السؤال . غير ان من الضروري ، كي نستطيع التوصل الى نظرية مفهومة في التطورات الثورية المعاصرة ، ان نوغل بتحليلنا الى ما هو أبعد من ذلك ونتفحص عن كثب القـــوى والشروط الاجتماعية التي تشكل اطار تلك الاحداث .

قدم تروتسكي ، وهو الذي كان مع لينين اهم منظر للثورة البلشفية (٢) كما كان المنظم الفعلي لانتفاضة اكتوبر وقائدها (٣) ، اول تفسير لخصوصيات الثورة عـام ١٩١٧ ، ولا يزال هذا أكمل تفسير حتى الان .

لقد زودت «القوانين» المسماة قوانين التطور «المتفاوت» و«المركب» تحليـــل تروتسكي باطاره . لاحظ تروتسكي ان التطور التاريخي العالمي يتسم بتفاوت عظيم في مستويات التطور . ففي حين تم احراز مراحل متقدمة من التطور الاجتماعي والتقني في بعض المناطق ، لا تزال اكثر أشكال التخلف بدائية توجد في مناطق اخرى . غير ان الاقطار المتخلفة تضطر الى تمثل الانجازات المادية والفكرية للمناطق المتقدمة ، تحت «سياط» السوق الرأسمالي العالمي الذي «يمهد لشمولية ودوام التطور الانساني وبمعنى من المعاني يحققهما» . وهذا لا يعني ان الاقطار المتخلفة تتبع الاقطار المتقدمة «مقلدة» اياها ، فتحاكي كل مراحل ماضيها . على العكس من ذلك ، لا تخطو المجتمعات التي تظهر في وقت متأخر خطاها بالترتيب ذاته الذي خطا به أسلافها خطواتهم ، بل هي مجبرة على القيام بقفزات في تقدمها .

«ان امتياز التخلف التاريخي ، وهناك امتياز كهذا ، يسمح بتبني ما هو حاضر مقدما ، او بالاحرى يجبر على ذلك ... مؤديا الى تخطي سلسلة كاملة من المراحل الوسيطة . فالمتوحشون يلقون بأقواسهم ونشاباتهم في الحال ليستعيضوا عنهـا بالبنادق ، دون ان يقطعوا المسافة التي فصلت في السابق بين هذين السلاحين».

هكذا ، يتخذ التطور مسارا مختلفا جدا عن ذاك الذي تصوره نظرية المراحل التاريخية المنفصلة المتتابعة . فبدلا من ذلك ، تقترن العناصر الاجتماعية الاكثـــر تقدما مع العناصر المتخلفة لتنتج اشكالا اجتماعية مختلطة بدلا من ان تكون «نقية»»، و«يؤدي تطور الامم المتخلفة تاريخيا بالضرورة الى اتحاد مراحل مختلفة في العملية التاريخية » (٤) .

---

٢ ـ لم تكن وجهة النظر هذه لتبدو هرطقة قبل شقاق تروتسكي مع قيادة الحزب . هكذا ، خلال السنوات الخمس الاولى للاممية ، قبل ان يفرض ستالين اورثوذكسيته على نظرية الحزب ، كـان كتاب تروتسكي «نتائج وتوقعات» ينشر على نطاق واسع وباللغات الاجنبية بوصفه تفسيرا نظريا رسميا لقوى الثورة الروسية .

٣ ـ «لقد جرى التنظيم العملي للانتفاضة تحت القيادة المباشرة لرئيس سوفيات بتروغراد ، الرفيق تروتسكي» ستالين ـ البرافدا ، ٦ تشرين الثاني ١٩١٨ .

٤ ـ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، الفصل الاول .

كما اشار تروتسكي ، كانت عناصر «المستقبل» البورجوازي في روسيا القيصرية مطعّمة مباشرة في الحاضر الاقطاعي ، فكان ان ولّد التطور الهجين الناجم عن ذلك (او باصطلاح تروتسكي ، التطور المركب) ثورة ١٩١٧ الهجين . فمثلا كانت الصناعة الروسية متقدمة جدا وبالغة التركيز وكذلك خاضعة لرأس المال الاجنبي الى حد كبير رغم انها صغيرة بالمقارنة مع الاقتصاد ككل (٥) . وقد جعل التأثير المشترك لهذه العوامل المميزة للتطور الروسي (والذي كان يعني مثلا غياب قطاعات ضخمة متوسطة من رجال الاعمال الصغار) البورجوازية الروسية ضعيفة ومنعزلة. وبالمقارنة ، كانت البروليتاريا الروسية قد حازت قوة «غير عادية» بالنسبة لهذه «المرحلة» من السيرورة التاريخية . وفي الواقع كانت قوة البروليتاريا تقوم على عوامل التنظيم الاجتماعي والتقني المتقدمة ذاتها (مثلا تركز العمال في مشاريع حديثة ضخمة) التي انتجت ضعف البورجوازية وعزلتها النسبيين . وبالاضافة الى ذلك ، كانت البروليتاريا مسلحة بايديولوجية ثورية متقدمة طورتها الطبقات العاملة الاقدم والاكثر نضجا سياسيا في اوروبا الغربية . هكذا ، وكما كان الحال في المانيا من قبل ، كانت المرحلة الثورية في روسيا عام ١٩١٧ مختلفة جدا عنها في الثورة البورجوازية ــ الديمقراطية الكبرى الفرنسية عام ١٧٩٣ .

لقد كانت البورجوازية الفرنسية في موقف مستقل قوي مكنها من ان تقود الثورتين الديمقراطية والزراعية ضد النبلاء الاقطاعيين ، وتصمد في الوقت ذاته امام التحدي اليساري غير المركز الذي مثله الـ «بلا سراويل» والجماهير العاملة . اما الثورة الروسية فانها ، بسبب من خصوصيات تطورها المركب ــ افتقارها الى الاستقلال ، تشابكها مع ارستقراطية الارض ، خوفها من اشتراكية البروليتاريا المتقدمة نسبيا ــ اثبتت انها ليست اهلا لمهامها التاريخية ، وسقطت امام ثورة الطبقة العاملة المنظمة الناضجة . وقد لخص تروتسكي الفارق بقوله : «لقد كانت روسيا متأخرة في القيام بثورتها البورجوازية الى حد وجدت معه نفسها مضطرة الى تحويلها الى ثورة بروليتارية» (٦) .

كان لينين قد توصل عام ١٩٠٥ الى الاقتناع بأن البروليتاريا والفلاحين هم وحدهم الذين سيقفون خلف الثورة الديمقراطية بثبات فيشكلون طليعتها الحقيقية. ومن هنا فقد طرح برنامج الشك بالبورجوازية في «ثورتها هي» والنضال من اجل الدكتاتورية الثورية ــ الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين . اما تروتسكي فقد ذهب ، في الفترة ذاتها ومن المنظور ذاته ، أبعد من ذلك . فقد اعتقد ان سلطة ثورية كهذه لا تستطيع ولا يجوز ان تقف عند مرحلة الاصلاحات البورجوازية . فما ان تستولي البروليتاريا على السلطة حتى تجد نفسها مضطرة ، كي تدافع عن

٥ ــ موريس دوب ، التطور الاقتصادي السوفياتي منذ ١٩١٧ ، ص ٣٤ .

٦ ــ تروتسكي ، مقدمة المجلدين الثاني والثالث من تاريخ الثورة الروسية .

مكاسبها و«تصون سيادتها السياسية» ، الى دفع الثورة الى الامام ووضع مسائل اشتراكية على جدول الاعمال الثوري (٧) .

وبعد ذلك باثني عشر عاما ، وعندما اطاحت ثورة شباط ١٩١٧ بالقيصر نقولا وأقامت «السلطة المزدوجة» للحكومة المؤقتة (البورجوازية) من جهة وسوفيات العمال والفلاحين من جهة اخرى ، رد لينين ببرنامج جديد هو «موضوعات نيسان» الشهيرة . وقد عكست هذه الموضوعات منظورا شبيها بذاك الذي قام عليه تحليل تروتسكي عام ١٩٠٥ . رأى لينين في وجود السوفيات ، الذي مارس سلطة فعالة في الثورة ، الدكتاتورية الثورية الديمقراطية للعمال والفلاحين «وقد تحققت في الواقع» . ولذا فقد اصبحت المعادلة «متقادمة» (٨) . والمهمة الجديدة التي تواجه البلاشفة هي «احداث انشقاق ضمن هذه الدكتاتورية بين العناصر البروليتارية... وعناصر الملاك الصغار او العناصر البورجوازية الصغيرة» والمناداة في الوقت ذاته بنقل سلطة الدولة كلها الى السوفيات . وبكلمات اخرى ، تنظيم استيلاء بروليتاري، اي اشتراكي ، على السلطة .

وبينما اعترف لينين بالصعوبات الجمة التي تواجه اي محاولة لاحداث «تغييرات اشتراكية» في «احد اكثر اقطار اوروبا تخلفا في وسط محيط هائل من السكان الفلاحين الصغار» ، أكد :

«ان من الخطأ الفاحش ، بل من الاستسلام الكامل للبورجوازية ، ان يستخلص من ذلك ان الطبقة العاملة يجب ان تدعم البورجوازية او تبقي نشاطاتها ضمن حدود تقبلها البورجوازية الصغيرة ، او ان البروليتاريا يجب ان تتخلى عن دورها القيادي في (الترويج) لخطوات عملية نحو الاشتراكية» ،

بما في ذلك تأميم الارض والبنوك «الذي ازف الوقت له» (٩) .

وفي الواقع كان برنامج لينين عام ١٩١٧ في تخطي الثورة البورجوازية الديمقراطية كامنا في منظوره عام ١٩٠٥ . فقد كتب حينذاك يقول :

« من الثورة الديمقراطية ، سنبدأ في الحال وضمن حدود قوتنا ــ قوة البروليتاريا الواعية المنظمة ــ في صنع الانتقال الى الثورة الاشتراكية . اننا مع الثورة غير المتقطعة . لن نقف في منتصف الطريق » (١٠) .

---

٧ ــ انظر روزا لوكسمبورغ ، الثورة الروسية ــ١٩١٧ــ : «... لقد اكدت الثورة الروسية الدرس الاساسي لكل ثورة عظيمة ، وقانون وجود كل ثورة كهذه ، القانون الذي ينص على : ان الثورة اما ان تتقدم في نسق سريع عاصف حازم فتحطم كل الحواجز بيد من حديد وتضع اهدافها امامها ابعد وابعد باستمرار ، واما ان يلقى بها خلفا وراء نقطة بدايتها الضعيفة وتقمعها الثورة المضادة» .

٨ ــ لينين ، رسائل في التاكتيك ، وكذلك ، مهمات البروليتاريا في الثورة الراهنة (موضوعات نيسان) .

٩ ــ قرار حول الوضع الراهن ، تبناه المؤتمر السابع للحزب البلشفي الروسي .

١٠ ــ لينين ، موقف الاشتراكية الديمقراطيةمن حركة الفلاحين .

اما ما كان يفصل تروتسكي ، الذي كان وحيدا في التنبؤ بانتقال غير متقطع او ثورة دائمة في روسيا ، ولينين الذي نادى بذلك (١١) ، فهو اختلاف تحليليهما قبل نيسان عام ١٩١٧ (عندما ازال تبني موضوعات لينين الشهيرة اي خلاف برنامجي بينهما) (١٢) لقوة الثورة البورجوازية في روسيا وديناميتها . ففي تصور لينين قبل عام ١٩١٧ ، لم يكن بالامكان تحدي الثورة البورجوازية تحديا ناجحا الا بدعم من ثورة اشتراكية اوروبية ، لان البروليتاريا الروسية لا تستطيع الاحتفاظ بالسلطة دون دعم الفلاحين غير الاشتراكيين اساسا ضد قوى الثورة المضادة . اما تروتسكي فقد كان يرى أن « الدكتاتورية الديمقراطية » لا تستطيع بسبب من خصوصيات التخلف الروسي الاستقرار بذاتها : ستثبت البورجوازية الروسية انه ليس لديها من القوة ما يمكنها من الوفاء بمهامها التاريخية ، ولذا ستأتي البروليتاريا الروسية بالضرورة الى السلطة وتحرك ثورة اشتراكية بمساعدة بروليتاريا اوروبا او بدونها (١٣) . وقد كتب تروتسكي فيما بعد :

« ان جوهر النزاع حول مسألة الثورة الدائمة من عام ١٩٠٥ الى عام ١٩١٧ يتلخص ... بمسألة ما اذا كان قيام ثورة بورجوازية قادرة حقا على حل المشكلة الزراعية (١٤) لا يزال ممكنا في روسيا ، أو ان الحاجة تدعو الى قيام دكتاتورية البروليتاريا لانجاز هذا العمل » (١٥) .

في واقع الامر ، تبين أن ثورة شباط في روسيا لم تكن قادرة على توزيع الارض على الفلاحين ، ومن هنا اثبتت عدم استقرارها . فكي « تحل » المشكلة الزراعية ، التي كانت احدى المهام التاريخية للثورة البورجوازية في فرنسا ، والتي لم تكن البورجوازية في روسيا تملك ارادة حلها كما لم يكن الفلاحون يملكون من الاستقلال والتنظيم ما يمكنهم من حلها بأنفسهم ، وجدت الطبقات الفلاحية نفسها مجبرة على دعم ثورة اكتوبر ، على دعم الاستيلاء البروليتاري على السلطة .

وما كان يصح بالنسبة الى مسألة الارض ، كان يصح كذلك بالنسبة الى المسألة الاجتماعية الكبرى الاخرى المرتبطة بها ـ مسألة السلم . ذلك أن الطبقات الرئيسية واحزابها كانت مختلفة حول مسألة انهاء الحرب الامبريالية اختلافها حول

---

١١ ـ كان لينين ينظر الى الثورة الديمقراطية باستمرار من زاوية تحقيق موقع متقدم للبروليتاريا في نضالها من اجل ثورة اشتراكية . انظر ، خطتان .

١٢ ـ كان الخلاف الاساسي بين لينين وتروتسكي حول مسائل التنظيم الحزبي . وتم حل هذا الخلاف عندما انضم تروتسكي الى البلاشفة في تموز ١٩١٧ ، معترفا بان موقف لينين كان صحيحا.

١٣ ـ كان تروتسكي متفقا مع لينين حول ضرورة الثورة العالمية لبناء الاشتراكية في روسيا بالمقارنة مع تحقيق الملكية الجماعية ـ وهي «الشرط القانوني» للاشتراكية .

١٤ ـ اي كمسألة توزيع .

١٥ ـ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية . المجلد الثالث ، الملحق الثاني .

مسألة توزيع الارض . فمثلا ، كانت الاحزاب البورجوازية « الثورية » تعارض بالطبع توزيع الارض كما كانت تدعم الحرب الامبريالية . ولم تكن هذه الاحزاب تدعم الحرب لانها كانت ترغب في الحفاظ على تحالفها مع القوى البورجوازية الاخرى والحصول على السيطرة على الدردنيل ومناطق البلقان (بموجب الوعد الذي قطعته معاهدة لندن السرية عام ١٩١٥) فحسب ، بل ايضا لانها كانت ترى في الحرب (بضوابطها العسكرية والحمى الوطنية التي تنشرها) قوة محافظة بعيدة الغور . فكما قال المؤرخ الروسي ، ووزير الخارجية الليبرالي في الحكومة المؤقتة الاولى ، في اوائل نيسان ١٩١٧ « لربما ابقي على شيء ما نتيجة الحرب . اما بدون الحرب فسيتحطم كل شيء بسرعة اكبر » (١٦) .

وكما هو متوقع ، تذبذبت الاحزاب المعتدلة ، الاشتراكية وغير الاشتراكية على السواء ، بصدد المسألتين المطروحتين . ففي حين كانت تعارض الاهداف التوسعية للحكومة القيصرية من وراء الحرب ، كانت على استعداد للمضي فيها بدون القيصر ـ ولكن في ظل النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي للطبقات الحاكمة القديمة ـ بوصفها حربا « من اجل الديمقراطية » . وبالمثل ، بينما كانت هذه الاحزاب تتعاطف مع رغبة الفلاحين في الارض ، تلك الرغبة التي كانت تؤدي الى انتفاضات في الريف وتضعف معنويات الجيش، لم تكن على استعداد للانفصال عن البورجوازية او اضعاف المجهود الحربي بتشجيع انتفاضة محلية . وكانت تصر على ان قرارا في اهمية الاصلاح الزراعي ، يجب أن تتخذه جمعية تأسيسية . ولكن عندما أصر الوزراء البورجوازيون على تأخير الجمعية ، خوفا من أن تكون هيئة كهذه تعقد في خضم وضع ثوري راديكالية اكثر مما يجب ، « ضحى الوزراء الاشتراكيون بالجمعية للحفاظ على الائتلاف » (١٧) .

ولذا كان البلاشفة وحدهم ، من بين الاحزاب المنظمة جميعا ، هم المستعدين للافتراق افتراقا حاسما عن البورجوازية بصدد مسألتي الارض والسلام ، بينما كانت البروليتاريا المدينية وحدها ، من بين الطبقات الثورية جميعا ، هي الراغبة في الاستيلاء على سلطة الدولة والقادرة على ذلك .

لا شك ان باستطاعتنا تبين المدى الذي تكرر به هذا النمط في العلاقات الدينامية بين القوى الثورية في الثورات اللاحقة في العالم المتخلف لا بمقارنة التجربة الروسية بالتجربة الاخرى العظيمة ، والاكثر تمثيلا للعصر من مناحي عدة ـ ثورة الصين . ان احد الفوارق الهامة بين الثورتين هو انه بينما كان على البلاشفة أن يناضلوا ضد المشاعر القومية بشأن مسألة الحرب، استطاع الشيوعيون الصينيون احتلال مركز القيادة في النضال القومي ضد الامبريالية اليابانية . وانه

---

١٦ ـ ميليكوف ، كما ورد في تشمبرلين ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ١٠٧ .

١٧ ـ اسحق دويتشر ، الثورة الروسية .

لن الاهمية بمكان انه على الرغم من هذا الاختلاف بين الوضعين ، ظلت مواقف القوى الطبقية بصدد المسائل الاساسية للثورة البورجوازية ـ الديمقراطية المتأخرة هي ذاتها . ففي الصين ، كما في روسيا ، لم يكن حزب البورجوازية هو الذي قاد، أو دعم باستمرار ، النضال الثوري الشعبي بصدد المسائل الزراعية والديمقراطية والقومية ، بل ان الحزب الشيوعي المسلح المنظم تنظيما مستقلا هو الذي قام بالتحريض الثوري وعبأه في صفوف الطبقات الدنيا . ففي روسيا ، دعم البلاشفة مطلب حق تقرير المصير للقوميات غير الروسية . أما في الصين ، فقد كان الحزب البورجوازي نفسه حزبا قوميا ، ولكن عندما واجهته قوة مستقلة عبأت الثورة الزراعية وقادتها ، وجد نفسه مضطرا لاخضاع المصالح القومية للمصالح الطبقية ـ منتهجا السياسة التي أدت في النهاية الى هزيمته (١٨) . كتب ماو في نهاية الثلاثينات : « عدا الحزب الشيوعي ، ليس هناك من حزب سياسي (بورجوازي او بورجوازي صغير) ، أهل لمهمة قيادة ثورتي الصين العظيمتين ، الديمقراطية والاشتراكية ، الى نهايتهما الكاملة » (١٩) .

غير ان الثورة الصينية مثلت ، في مجال واحد ، افتراقا رئيسيا عن الثورة الروسية . فقد أقام الماويون ، على عكس الماركسيين الروس ، حزبهم الثوري على الفلاحين ونقلوا نضالهم الثوري من الريف الى المدن . أما التجربة الروسية فقد بدا انها ثبت صحة ما اكده لينين وتروتسكي من ان البروليتاريا هي وحدها التي تقدم الاساس الطبقي لاستيلاء ثوري على السلطة (٢٠) . بيد ان كثيرا من الظروف المختلفة (ليس أقلها أهمية حرب التحرير الوطنية الطويلة) بدّل الافتراضات الاجتماعية التي بنى عليها لينين وتروتسكي تحليلهما وبالتالي أبطل النتائج التي توصلا

---

١٨ ـ انظر شالمرز جونسون ، القومية الفلاحية والسلطة الشيوعية . الموضوعة التي يستخلصها جونسون هي ان النضال القومي يتفوق على الصراع الطبقي في تحديد نجاح الشيوعيين . ولكن المادة التي يوردها تبين ، في الواقع ، ان الطابع الطبقي للاحزاب المتصارعة في الصين ويوغوسلافيا (وهما البلدان اللذان يدرسهما) حدد موقفها القومي وقدرتها على احتلال موقع القيادة في النضال القومي .

١٩ ـ المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني ، ص ٣٢١ (الطبعة الانجليزية) . في كوبا ، استخلصت نتيجة شبيهة عبر التجربة الثورية : «في الظروف التاريخية الراهنة لاميركا اللاتينية ، لا تستطيع البورجوازية الوطنية قيادة النضال المعادي للاقطاع والمعادي للامبريالية . فالتجربة في بلادنا تبين ان هذه الطبقة ـ حتى عندما تصطدم مصالحها بمصالح الامبريالية اليانكية ـ لا تستطيع مجابهة الامبريالية ، اذ يشلها الخوف من الثورة الاجتماعية ويرهبها صخب الجماهير المستغلة» . بيان هافانا الثاني ، ٤ شباط ١٩٦٢ .

٢٠ ـ انظر تشمبرلين ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٨ .

اليهــا (٢١) .

وعلى العكس من البلاشفة ، لم يتوصل الشيوعيون الصينيون الى فهم دورهم كقادة «للمرحلة» البورجوازية من الثورة الا بعد تجربة مريرة وهزائم مأسوية (٢٢). ويبدو أن الطبيعة الذرائعية (البراجماتية) للتطور الصيني نحــو استراتيجيــة « لينينية » تقوم على الثورة الدائمة تبين عمق جذور هذه الاستراتيجية في الوقائع الاجتماعية للتطور البورجوازي المتأخر . كتب ماو عام ١٩٣٩ :

« ان الثورة البورجوازية ـ الديمقراطية في الصين اليوم لم تعد من النوع العام القديم ، الذي تقادم عليه العهد ، بل هي من نوع جديد خاص . وهذا النوع مــن الثورة يتطور الآن في الصين وكذلك في الاقطار المستعمرة وشبه المستعمرة جميعا، ونحن نسمي هذه الثورة الثورة الديمقراطية الجديدة » (٢٣) .

وتضم هذه الثورة « الديمقراطية الجديدة » ، في راي ماو ، مرحلتي الثــورة البورجوازية والثورة الاشتراكية معا ، اذ تقدم الاولى شروط الثانية (٢٤) ، وتحصل الثورتان عــلى التوالي « دون السمــاح لمرحلــة وسيطــة مــن الدكتاتوريــة البورجوازية » (٢٥) . وقد عبر قرار للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني عــام ١٩٤٨ عن هذا الموقف النظري بقوله : « نحن انصار للنظرية الماركسية ـ اللينينية في الثورة الدائمة . اننا نعتقد انه ليس هناك من سور صيني يفصــل الثــورة الديمقراطية عن الثورة الاشتراكية ... » (٢٦) .

ان هذه الصياغة بتعابير ماركسية كلاسيكية لا تعود الى تروتسكي ، الذي يصب عليه الصينيون بستالينيتهم الجديدة جام لعنتهم (٢٧) ، بل الى لينين . فقد شرح لينين في سجاله مع كاوتسكي بعد الثورة المسألة على النحو التالي :

« بدءا من نيسان ١٩١٧ وقبل ثورة اكتوبر بوقت طويل ، اي قبل أن نستولي

---

٢١ ـ للاطلاع على تقييم للثورة الصينية بالعلاقة مع الاطار الكلاسيكي وهذه الافتراضات التــي تغيرت ، انظر ، دويتشر ، الماوية ـ أصولها ونظرتها .

٢٢ ـ انظر للاطلاع على تفصيل موثوق لهذه الهزائم ، هارولد ايزاكس ، مأساة الثورة الصينية .

٢٣ ـ ماو ، الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني ، المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني .

٢٤ ـ انظر ، لينين ، خطتان .

٢٥ ـ ماو ، حول الديمقراطية الجديدة ، المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني .

٢٦ ـ ورد في ستيوارت شرام ، الفكر السياسي لماوتسي تونغ ، ص ٥٢ . هذا المنظور ذرائعــي (براجماتي) في أصوله، ذلك ان اندفاع الثورة الصينية نحو برنامج اشتراكي لم يحصل الا تحتضغط الهجمة الامبريالية في آسيا .

٢٧ ـ أعيد الاعتبار لاصطلاح «الثورة الدائمة»، وهو في الشريعةالستالينية والستالينية الجديدة الاصطلاح التقني لوصف الهرطقة التروتسكية ، في خطبة لليو تشاوتشي في ٥ ايار ١٩٥٨ .

على السلطة بردح من الزمن ، أعلنا وشرحنا للشعب أن الثورة لا تستطيع ان تتوقف عند هذه المرحلة ، لان البلد قد تقدم الى الامام والراسمالية تقدمت والخراب وصل الى حدود لم يسبق لها مثيل ، وهذه الامور (سواء أرغب المرء في ذلك أم لم يرغب) تتطلب خطى الى الامام ، الى الاشتراكية . ذلك انه ليس هناك من سبيل آخر الى التقدم. ان محاولة اقامة سور صيني مصطنع بين المرحلتين الاولى والثانية والفصل بينهما بأي شيء عدا درجة استعداد البروليتاريا ودرجة اتحادها مع الفلاحين الفقراء يعني تشويه الماركسية تشويها شيطانيا وابتذالها واحلال الليبرالية محلها . انه يعني دس دفاع رجعي عن البورجوازية ضد البروليتاريا الاشتراكية بواسطة اشارات علمية ظاهريا الى الطابع التقدمي للبورجوازية بالمقارنة مع القرون الوسطى » (٢٨) .

- ٢ -

« ان سيطرة راس المال الاحتكاري والامبريالية في الاقطار المتقدمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتخلف الاقتصادي في الاقطار المتخلفة . وهما لا تمثلان غير وجهين مختلفين لما هو في الحقيقة مشكلة عالمية شاملة» .

بول باران ، ١٩٥٧

اعتبر تروتسكي ، في تحليله النظري لثورة اكتوبر ، عدم قدرة البنية الاجتماعية القائمة على حل المشاكل الملحة للتطور القومي « المقدمة المنطقية » العامة والاساسية للثورة . فالثورة لا تغدو ممكنة الا عندما توجد طبقة « تستطيع الامساك بزمام القيادة في حل هذه المشاكل » اما للاعداد للثورة وتحقيقها فعلا فمن الضروري جعل « المشاكل الموضوعية ... تجد طريقها الى وعي الجماهير الانسانية » وتغيير هذا الوعي وبالتالي « خلق علاقات جديدة بين القوى الانسانية » (٢٩) .

في محاولتنا اثبات ان مفهوم الثورة « الدائمة » او « غير المتقطعة » او « الديمقراطية الجديدة » يشير الى نموذج عام للتطور البورجوازي المتأخر ، فيقدم بالتالي أساسا لفهم الاضطراب العام للدول المتخلفة الواقعة في المدار الراسمالي العالمي ، يتوجب علينا ان نبين :

١ ــ ان مشاكل التطور القومي الملحة في هذه البلدان لا يمكن ان تحل ضمن البنية الاجتماعية القائمة .

٢ ــ ان البورجوازيات الناشئة ، بسبب من خصوصيات تطورها ، اما غير راغبة

---

٢٨ ــ لينين ، الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي .

٢٩ ــ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، المجلد الثالث ، الفصل السادس بعنوان «فن الانتفاضة».

في التصدي للمهام الثورية اللازمة لحل هذه المشاكل او غير قادرة على ذلك .
والواقع أن الاقتصادي الاميركي بول باران قام في منتصف الخمسينات بمحاولة رئيسية لصياغة نظرية على هدي هذه الخطوط (٣٠) .

بين باران في تحليله كيف أن تغلغل الشركات الاحتكارية للرأسماليات المتقدمة اقتصاديا حرف التكوينات الداخلية للاقطار الاضعف المتخلفة اقتصاديا . فقد شوه هذا التغلغل انماط الاستثمار في هذه البلدان وحول بناها الطبقية باتجاهات أدت الى تدمير امكانيات النمو والتطور الرأسمالي المعتمد على الذات . وقال باران انه لو كان تغلغل الرأسماليات المتقدمة في هذه المجتمعات القبلية شبه الاقطاعية كاملا وشاملا ، ولو « كان هناك استبدال كامل لاشكال الخنوع الاقطاعية وشبه الاقطاعية المتصلبة بعقلانية السوق الرأسمالية » ، « لمثل هذا خطوة هامة باتجاه التقدم رغم كل آلام الانتقال » . لكن الذي حدث هو أنه في ظل شروط « التغلغل الجزئي » (اي التطور المركب) « ثم تحرير استغلال السكان من جانب سادتهم المحليين « من القيود المخففة الموروثة عن التقليد الاقطاعي » . فنجم عن « احلال » الاستغلال الرأسمالي فوق القهر التقليدي شكل مركب من الاستغلال « وفساد اكثر شناعة وحيف أكثر وضوحا » (٣١) .

ففي الهند مثلا ، دمرت سياسة الارض والسياسة الضريبية البريطانية مجتمع القرية المحلي واحلت محله اقتصاد « مالك الارض الطفيلي والمرابي » (٣٢) . كما أن السياسة التجارية البريطانية « دمرت الحرفي الهندي وخلقت في المدن الهندية الاحياء الفقيرة القذرة سيئة الصيت المزدحمة بملايين المشردين الجياع المرضى » . اما السياسة الاقتصادية البريطانية فقد « حطمت ما كان من بدايات تطور صناعي محلي » مشجعة بدلا من ذلك « تكاثر المضاربين ورجال الاعمال الصغار والوكلاء والمبتزين من جميع الاصناف تعتصر عيشا عقيما محفوفا بالمخاطر من غياهب مجتمع يتحلل » (٣٣) . وفي حقل السياسة ، عزز البريطانيون حكمهم « بخلق طبقات جديدة ومصالح ثابتة » مرتبطة بهذا الحكم وبسياسة عمدت عن وعي الى « خلق انقسامات بين الهنود وتشجيع جماعة على حساب الجماعات الاخرى » (٣٤) .

---

٣٠ ـ انظر المؤلفات التالية لباران ، في الاقتصاد السياسي للتخلف ـ١٩٥٢ـ ، عالمان من عوالم التغيير ـ١٩٦٤ـ ، التقدم الاقتصادي والفائض الاقتصادي (في مجلة العلم والمجتمع ، خريف ١٩٥٣)، الاقتصاد السياسي للنمو ـ١٩٥٦ـ . نظرية باران مدينة بالكثير لمعلمه المنظر البلشفي بريو براجنسكي صاحب كتاب ، الاقتصاد الجديد (نشر اول مرة ١٩٢٤ـ١٩٢٦) .

٣١ ـ في الاقتصاد السياسي للتخلف ، المصدر السابق .

٣٢ ـ الاقتصاد السياسي للنمو ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٣٣ ـ المصدر السابق . انظر ايضا بارات براون ، بعد الامبريالية ، ص ١٧٤ وما بعدها .

٣٤ ـ جواهر لال نهرو ، اكتشاف الهند ، ص ٣٠٤ وما يليها : «ان كل المشاكل التي نواجهها اليوم على وجه التقريب... نمت خلال الحكم البريطاني وكنتيجة مباشرة للسياسة البريطانية، الامراء، =

وليس في الهند فحسب ، بل وعلى امتداد العالم المتخلف كله ، يمكن تتبع مشاكل الاستنقاع الاجتماعي والاقتصادي التي تبدو بلا حل (وكذلك نتائجها المريعة) وردّها الى تغلغل القوى المتقدمة في النظام الراسمالي العالمي (٣٥) . وهذه السيطرة على الاقتصاد في الدول المتخلفة واخضاعه لاسواق المتروبولات الراسمالية يؤديان الى امتصاص الفائض الاقتصادي،الذي يشكل استثماره مصدر التوسع الاقتصادي والى استهلاك داخلي للفائض يحول دون النمو المعتمد على النفس (٣٦) .

هكذا بلغ حاصل راس المال الذي انتقل من العالم المتخلف الى الولايات المتحدة نتيجة لاستثماراتها الخارجية المباشرة ١٦ الف مليون دولار في الفترة بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ (٣٧) . وفي حالة بلد يفتقر الى رأس المال كالهند ، تضاعفت الاستثمارات الخارجية فيه خلال الفترة ذاتها تقريبا « واخرج المستثمرون الاجانب ككل من الاحتياطي النقدي العام ثلاثة اضعاف مساهمتهم المباشرة فيه » (٣٨) . وبكلمات اخرى ، ان استثمار رأس المال الاجنبي الخاص لا يؤدي على الاطلاق الى انتقال راس المال الى البلد المتخلف ، بل على العكس من ذلك يلعب دور مضخة تمتص منه رأس المال لتنقله الى الحاضرة الامبريالية الثرية .

اما ما يسمى ببرامج « المعونة » الاقتصادية التي تقدمها الاقطار الراسمالية النامية فانها لا تبدل هذا الانتقال بشكل محسوس ، ذلك انها بصورة رئيسية برامج لتصدير الاعتمادات يطلق عليها اسم « معونة » لاغراض دعاوية (٣٩) . وبرامج « المعونة » هذه ، اذ ترتبط لا باتفاقات لشراء السلع من القطر الذي يقدمها فحسب بل ايضا باتفاقات لضمان تشجيع الاستثمار الاجنبي الخاص ، انما تشكل احد الانماط الاساسية للتغلغل الامبريالي الحديث (٤٠) . وقد ابلغ احد المدراء السابقين

= مشكلة الاقليات، المصالح الراسخة المختلفة اجنبية كانت او هندية ، الافتقار الى الصناعة واهمال الزراعة ، التخلف البالغ في الخدمات الاجتماعية ، وفوق ذلك كله فقر الشعب فقرا مأسويا» .

٣٥ ـ قال البروفسور خوسيه دي كاسترو ، مؤلف كتاب «جغرافية الجوع» ورئيس منظمة الامم المتحدة للاغذية والزراعة ، في اوائل الستينات : «الكولونيالية الجديدة هي السبب الوحيد للجوع في اميركا اللاتينية» . ورد في غيراسي ، الخوف العظيم في اميركا اللاتينية ، ص ٢٦٥ .

٣٦ ـ باران ، الاقتصاد السياسي للنمو ـ الفصول ٥ـ٧ .

٣٧ ـ هاري ماغدوف ، المناحي الاقتصادية الامبريالية الاميركية (كتيب) . انظر كذلك ا.ج. فرانك «الخدمات المقدمة» ، منثلي ريفيو ، حزيران ١٩٦٥ . هوبرمان وسويزي «التوظيفات الاجنبية» ، منثلي ريفيو ، كانون الثاني ١٩٦٥ .

٣٨ ـ كيردون ، الاستثمارات الاجنبية في الهند ، ص ٣١٠ .

٣٩ ـ ليتل وكليفورد ، المعونة الدولية . انظر كذلك ، ليتل ، المعونة لافريقيا .

٤٠ ـ تبلغ المعونة الاميركية «المربوطة» على هذا النحو من ٨٠ بالمئة الى اكثر من ٩٠ بالمئة من مجمل المعونة الاميركية .

مثلا ، تصف مجلة الاعمال الاميركية فوربز وكالة الانماء الدولي بأنها « الوكالة الرئيسية =

لفرع التجارة الخارجية في « مكتب التجارة المحلية والاجنبية » الاميركي مؤتمر التجارة العالمي في شيكاغو عام ١٩٥٠ أن « الجوهر » الحقيقي لبرنامج النقطة الرابعة (سلف « التحالف من أجل التقدم ») هو « تشجيع المشاريع الخاصة والاستثمار الخاص في المناطق المتخلفة » (٤١) . ولا شك في أن بنية برامج العون الاميركية متسقة تماما في هذا المضمار . وقد لخصت واحدة من اقتصاديي جامعة كامبردج الوضع بقولها : « ان هدف المعونة هو الابقاء على النظام الذي يجعل المعونة ضرورية » (٤٢) .

وتستطيع الشركات الاحتكارية للبلدان الراسمالية النامية ، بدعم من قوى دولها ، الحيلولة دون تكون صناعات محلية في الاقطار التابعة ، تلك الصناعات التي لا غنى عنها للتقدم الاقتصادي للبلد التابع ولكن التي يمكن ان تنافس الصناعات التابعة لهذه الشركات الاحتكارية (٤٣) . كما تستطيع هذه الشركات ضمان استغلال الموارد الطبيعية لتصدير المواد الخام بدلا من استخدامها في التطوير الداخلي ، وكذلك تستطيع ضخ راس المال النادر خارج البلد المعني لا عن طريق الارباح التي تجنيها فحسب ، بل ايضا عن طريق ترتيبات مالية مجحفة والتلاعب بسوق السلع (٤٤) . وبالاضافة الى ذلك ، وبوصفها مؤسسات وكيلة لمجتمع طبقي ، فانها تشجع التوظيفات الطفيلية غير المنتجة للثروة الاقتصادية الوطنية (٤٥) . ان سيطرة راس المال التجاري على راس المال الصناعي ، تلك السيطرة التي تعيق النمو ، والاخضاع القاتل للحياة الاقتصادية في البلدان التابعة للتقلبات الحادة في اسواق السلع الاولية لا تمثل غير اثنين من الآثار المخربة لعلاقات التبعية هذه للقوى والمؤسسات الراسمالية الاجنبية .

ولذا فان من الواضح أن اقطارا كهذه لا يمكن اعتبارها متخلفة بالمعنى التقليدي ، أي انها ليست في أول طريق التطور الذي سارت عليه الراسماليات المتقدمة . على العكس من ذلك ، ليست خصائصها النموذجية خصائص المراحل غير الناضجة التي مرت بها المجتمعات الراسمالية النامية الآن ، بل هي خصائص « الاقتران المركب »

= التي تمول حكومة الولايات المتحدة عبرها المشاريع (الاميركية) في الخارج ... وتوزع وكالة الانماء الدولي ٢ بليون دولار في العام ، ينفق ٨٥ بالمئة منها في الولايات المتحدة لشراء المنتجات والمواد الخام الاميركية» (ومعظم هذه النقود يوزع على شكل قروض بفوائد مرتفعة) . ورد في اوغلسبي ، الاحتواء والتغيير ، ص ٨١ .

٤١ ـ ورد في جون رولنز ، المصدر السابق .

٤٢ ـ جوان روبنسون ، المركنتيلية الجديدة .

٤٣ ـ وهذا ينطبق على تطوير التقنيات كذلك . انظر كيردون ، المصدر السابق ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٤٤ ـ انظر مثلا ، فيتش وابنهايمر ، غانا : نهاية وهم في «مانتلي ريفيو» ، ١٩٦٦ .

٤٥ ـ باران ، المصدر السابق.

لمراحل متقدمة واخرى متخلفة الناجم من « التغلغل الجزئي » . واقتصاديات هذه البلدان ليست « ثنائية » (جزئيا رأسمالية وجزئيا اقطاعية) كما يقال احيانا ، بل انها « هجين » أو « مدجنة » (٤٦) . ولا تنبثق مشاكلها عن الفشل في التطور بل عن تطور مشوه لا يؤدي في النهاية الى سبيل النمو المعتمد على الذات بل الى طريق مسدود اقتصاديا . ولا يمكن تحقيق النمو الحقيقي في هذه الاقطار ذات الاقتصاد المدجن عبر عمليات تطورية عضوية ضمن البنى الاساسية القائمة (وبالطبع ليس عن طريق تدفق راس المال الاجنبي الخاص) بل فقط عبر التحويل الثوري للبنى ذاتها وكسر قيود التبعية أو القيود التي تخلقها (٤٧) .

ان هذه النتيجة معاكسة تماما للعقيدة التي ينادي بها روستو ، مدير هيئة تخطيط السياسة في وزارة خارجية الولايات المتحدة (٤٨) . فطبقا لروستو ، الذي تشكل موضوعته التبرير المنطقي الرسمي لتدخل اميركا المعادي للثورة في العالم المتخلف ، ليست « الشيوعية » (اي الثورة الاجتماعية المعادية للامبريالية) غير « مرض الانتقال » من التخلف الى النمو المعتمد على الذات . ذلك أن التحليل السابق (تدعمه الدلائل التاريخية حتى اليوم) يشير الى نتيجة معاكسة تماما هي : ان ثورة كهذه هي الشرط المسبق الذي لا غنى عنه اذا كان للانتقال ان يحدث على الاطلاق .

وتدعم هذه الموضوعة الحالة التاريخية الوحيدة التي حدث فيها « انتقال » راسمالي الى النمو المعتمد على الذات في الفترة التي لحقت بالتوسع والتغلغل الامبريالي في المناطق المتخلفة في القرن التاسع عشر ــ حالة اليابان (٤٩) . فقد تميز البلد الذي حدث فيه هذا الانتقال ــ اليابان ــ بأنه « البلد الوحيد في آسيا الذي استطاع أن يجتنب التحول الى مستعمرة او تابع للرأسمالية الاوروبية الغربية او الاميركية ، اي انه البلد الوحيد الذي ملك فرصة التطور القومي المستقل» (٥٠).

لقد اعتمد أفلات اليابان من السيطرة الامبريالية والتخلف المشوه على اقتران ظروف (بينها التوازن المؤقت بين القوى الامبريالية المتنافسة) ثبت انها لن تتكرر . وحالما يتم اختراق البلدان المتخلفة ، فانها تجد الطريق الياباني في التقليد الواعي

---

٤٦ ــ للاطلاع على نقد للنظريات «الثنائية» انظر اندريه غندر فرانك ، خرافة الاقطاع في الزراعة البرازيلية .

٤٧ ــ للاطلاع على دراسة لحالة من حالات فشل محاولة تحقيق هذا التطور دون ثورة كهذه ، انظر فيتش وأوبنهايمر ، المصدر السابق .

٤٨ ــ روستو ، مراحل النمو الاقتصادي .

٤٩ ــ ينطبق هذا التعميم على تلك الاقطار التي كان فيها مجتمع تقليدي او اقطاعي ثم «تغلغلت» اليها قوة رأسمالية متقدمة . وهذا يستثني الاقطار «المستوطنة» مثل استراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا .

٥٠ ــ باران المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

للراسمالية الغربية مسدودا امامها (٥١) . خاصة وأن بورجوازيات هذه البلدان سرعان ما تثبت عجزها عن قيادة نضال متماسك لكسر القيود الاقتصادية التي تشد البلد الى الحاضرة الراسمالية وعن تحطيم البنى الرجعية التي تسد طريق « التحديث » والتطور القومي . وعلى الرغم من ان الطبقات الوسطى في المناطق التابعة تستطيع قيادة النضال من اجل الاستقلال السياسي عن القوى الامبريالية ، الا انها لا تستطيع تنفيذ الثورات الاجتماعية والاقتصادية القصوى التي يتطلبها النمو المعتمد على الذات .

ان نمو القوة المستقلة للبورجوازيات الناشئة في هذه ألبلدان يجد نفسه معاقا بصورة حاسمة بفعل الآثار العميقة للتفلفل الجزئي بما في ذلك الافتقار الى قطاع صناعي متكامل محلي غير تابع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هناك ضعف هائل في الارادة الثورية للطبقات الوسطى وحلفائها ، وذلك كنتيجة مباشرة للنضوج الايديولوجي للجماهير التي تعاني قهرا مزدوجا وللتغير الثوري في وعيها .

ولا شك أن هناك عاملا أساسيا يجب اخذه في الحسبان عند تقدير الامكانات الثورية والاتجاه الثوري في المناطق المتخلفة هو تغير وعي الطبقات الدنيا في حقبة ما بعد عام ١٩١٧ . ذلك أن صعود الراديكالية الاشتراكية في المناطق المتخلفة ، ذلك الصعود الذي الهمته الثورة البلشفية ونشرته اجهزتها ، ادى الى حقن عقول « كل الجماعات المالكة » « بخوف مميت من نزع الملكية والفناء » ، والى « دفع كل العناصر ذات الموقع المتميز الى هذا الحد او ذاك ، كل العناصر الثرية الى هذا الحد أو ذاك ، في المجتمع ... الى تحالف مضاد للثورة واحد » . وبكلمات أخرى « مهما كانت الخلافات والتناقضات بين المصالح الاجنبية والمحلية ، فان هذه الاختلافات تنطمس الى حد بعيد وفي كل المراحل الهامة بفعل المصلحة المشتركة في اتقاء خطر الاشتراكية » ـ او بتعبير الحرب الباردة في « احتواء الشيوعية » . ونتيجة لهذه المحافظة الهجين التي تسم البورجوازيات الناشئة فيالاقطار المتخلفة وهذا الانحطاط المعادي للشيوعية الذي هوت اليه الليبرالية « تكاد تختفي امكانية حل المعضلة الاقتصادية والسياسية السائدة في الاقطار المتخلفة على أسس راسمالية تقدمية » (٥٢) .

وفي حين أن الخوف من نزع الملكية كان بالتأكيد أساس الولادة المجهضة للثورة البورجوازية في فترة ما بعد عام ١٩١٧ ، من وجهة نظر ايديولوجية ، الا ان ذلك لا يشكل بأي حال تفسيرا للامر كله . وبالمثل ليست فكرة الاشتراكية او الشيوعية هي وحدها التي تحفز الدفع الثوري في صفوف الجماهير المضطهدة . ذلك أن الثورة الاشتراكية لم تعد منذ عام ١٩١٧ توجد كفكرة فحسب بل وكتاريخ أيضا .

---

٥١ ـ انظر تعليق ماوتسي تونغ على محاولة الصين اتباع المثال الياباني ، وفشل هذه المحاولة نتيجة التدخل الامبريالي . حول دكتاتورية الشعب الديمقراطية ـ١٩٤٩ـ .

٥٢ ـ باران ، حول الاقتصاد السياسي للتخلف ، المصدر السابق .

للرأسمالية الغربية مسدودا امامها (٥١) . خاصة وأن بورجوازيات هذه البلـــدان سرعان ما تثبت عجزها عن قيادة نضال متماسك لكسر القيود الاقتصادية التي تشد البلد الى الحاضرة الرأسمالية وعن تحطيم البنى الرجعية التـــي تســـد طريـــق « التحديث » والتطور القومي . وعلى الرغم من ان الطبقات الوسطى في المناطـق التابعة تستطيع قيادة النضال من اجل الاستقلال السياسي عن القوى الامبريالية ، الا انها لا تستطيع تنفيذ الثورات الاجتماعية والاقتصادية القصوى التي يتطلبهـا النمو المعتمد على الذات .

ان نمو القوة المستقلة للبورجوازيات الناشئة في هذه البلدان يجد نفسه معاقا بصورة حاسمة بفعل الآثار العميقة للتغلغل الجزئي بما في ذلك الافتقار الى قطـاع صناعي متكامل محلي غير تابع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هناك ضعف هائل في الارادة الثورية للطبقات الوسطى وحلفائها ، وذلك كنتيجـة مباشرة للنضوج الايديولوجي للجماهير التي تعاني قهرا مزدوجا وللتغير الثوري في وعيها .

ولا شك أن هناك عاملا أساسيا يجب اخذه في الحسبان عند تقدير الامكانـات الثورية والاتجاه الثوري في المناطق المتخلفة هو تغير وعي الطبقات الدنيا في حقبـة ما بعد عام ١٩١٧ . ذلك أن صعود الراديكالية الاشتراكية في المناطق المتخلفة ، ذلك الصعود الذي الهمته الثورة البلشفية ونشرته اجهزتها ، ادى الى حقن عقول « كل الجماعات المالكة » « بخوف مميت من نزع الملكية والفناء » ، والى « دفع كل العناصر ذات الموقع المتميز الى هذا الحد أو ذاك ، كل العناصر الثرية الى هذا الحد أو ذاك ، في المجتمع ... الى تحالف مضاد للثورة واحد » . وبكلمات أخرى « مهمـا كانت الخلافات والتناقضات بين المصالح الاجنبية والمحلية ، فان هذه الاختلافات تنطمس الى حد بعيد وفي كل المراحل الهامة بفعل المصلحة المشتركة في اتقـــاء خطـــر الاشتراكية » ـ او بتعبير الحرب الباردة في « احتواء الشيوعية » . ونتيجة لهـذه المحافظة الهجين التي تسم البورجوازيات الناشئة فيالاقطار المتخلفة وهذا الانحطاط المعادي للشيوعية الذي هوت اليه الليبرالية « تكاد تختفي امكانية حل المعضلـــة الاقتصادية والسياسية السائدة في الاقطار المتخلفـة عـــلى أسس رأسماليـــة تقدمية » (٥٢) .

وفي حين أن الخوف من نزع الملكية كان بالتأكيد أساس الولادة المجهضة للثورة البورجوازية في فترة ما بعد عام ١٩١٧ ، من وجهة نظر ايديولوجية ، الا ان ذلك لا يشكل بأي حال تفسيرا للامر كله . وبالمثل ليست فكرة الاشتراكية او الشيوعية هي وحدها التي تحفز الدفع الثوري في صفوف الجماهير المضطهدة . ذلـــك أن الثورة الاشتراكية لم تعد منذ عام ١٩١٧ توجد كفكرة فحسب بل وكتاريخ أيضا .

---

٥١ ـ انظر تعليق ماوتسي تونغ على محاولة الصين اتباع المثال الياباني ، وفشل هذه المحاولة نتيجة التدخل الامبريالي . حول دكتاتورية الشعب الديمقراطية ـ١٩٤٩ـ .

٥٢ ـ باران ، حول الاقتصاد السياسي للتخلف ، المصدر السابق .

والمسار الفعلي الذي سارت عليه الثورة الروسية،والاعمال التي قامت بها واصبحت ملازمة للاشتراكية ، شكلت عوامل فعالة في اجتذاب الجماهير المفقرة الى الثورة ، بينما شكلت في الوقت ذاته قوة منفرة لليبرالي الطبقة الوسطى (وغير الطبقة الوسطى) . ولهذا السبب ، وكذلك لان سياسات الدول الشيوعية كان لها أعمق الاثر على التطورات الثورية اللاحقة ، يتعين علينا أن نحلل التقدم الفعلي للثورة البلشفية في محيطها المعزول المتخلف .

ثورة غير متقطعة : من لينين الى ستالين

- ٧ -

« ان ... السلطة في يد دولة روسيا البروليتارية كافية تماما للانتقال الى الشيوعية .
فما الذي نفتقر اليه ؟ من الواضح ان ما نفتقر اليه هو الثقافة بين تلك الشريحة من الشيوعيين الذين يقومون بمهام ادارية » .

لينين ، آذار ١٩٢٢

« ... ان النكبة التي حلت بنا نكبة عالمية ... وليس هناك من مخرج منها الا بالثورة العالمية » .

لينين ، نيسان ١٩٢١

كما كان من الضروري أن تؤخذ بعين الاعتبار ظاهرة التطور المتفاوت والمركب لفهم الشروط التي جعلت انتصار البلاشفة الاولي ممكنا ، كذلك من الضروري أن تؤخذ هذه الظاهرة بعين الاعتبار لفهم تطور روسيا وتحولها في ظل البلاشفة . بيد أن هذا ليس هو الاسلوب المتبع عموما ، وتشوه المنظور الذي ينجم عن محاولة فرض نظرية مراحل تاريخية « نقية » على الواقع الروسي المعقد لا يصيب الشروح والتقييمات الماركسية للثورة فحسب بل والشروح والتقييمات المعادية للماركسية ايضا . ونتيجة لذلك لا يساء بشكل عام فهم مصير الليبرالية الديمقراطية في روسيا ما بعد القيصرية فحسب ، بل يساء كذلك فهم المصير الاكثر تعقيدا الذي آلت اليه الاشتراكية ما بعد القيصرية .

بالنسبة لكثير من المؤرخين ، لم تكن الولادة المجهضة لليبرالية الديمقراطية في روسيا نتيجة لادخال الراسمالية المتاخر نسبيا في محيط سياسي واقتصادي بالغ التخلف وعلى الطريقة البروسية (١) ، بل نتيجة لنشاطات لينين والبلاشفـــة .
والافتراض الذي يقف خلف هذا التفسير هو أن روسيا القيصرية ، كانت عـــلى وشك البدء بالسير على طريق التطور الاجتماعي الذي سارت عليه الراسماليـــة الديمقراطية الاوروبية الغربية من قبل ، عندما صرفتها الحرب والبلشفية عن هذا السبيل التاريخي « السوي » . غير أن هذا الافتراض يتجاهل حقيقة ان انتصار البلاشفة (وهم الذين كانوا حزب اقلية في بداية عام ١٩١٧ حتى في المدن) لـم يكن ممكنا بفعل مهارتهم التاكتيكية فحسب ، بل وكذلك بفعل ضعف وتردد وعدم تماسك الاحزاب البورجوازية والاشتراكية المعادية للبلشفية التي لم تستطع خلال النضال الاحتفاظ بالدعم الشعبي الذي كانت تحظى به في بداية الامر .
لم يكن الانتصار البلشفي ضربة حظ على الاطلاق ، بل كان ضمن اطار القوى الاجتماعية والسياسية القائمة ــ نتيجة « منطقية » للصراع المكشوف عام ١٩١٧ .
هكذا يلخص التأريخ الليبرالي الموثوق للثورة الروسية هذا الصراع بالكلمات المعبرة التاليــة :
«اليوم ومن منظور التأمل في الماضي ، يبدو الانعطاف المستمر نحو اليسار ، الذي بدأ مباشرة بعد تحطم النظام الامبراطوري ووصل أوجه باستيلاء البلاشفة على السلطة ، يبدو منطقيا ومحتوما قدر ما بدا عند حدوثه شنيعا وغير معقول للطبقات الثرية والوسطى . لقد كانت الحكومة المؤقتة ، بتجسيدها للنعومة واللطف اللذين كان يتسم بهما الراديكاليون والليبراليون الروس قبل الحرب ، بلا حول تماما في وجه المطالب الشعبية الجامحة ، مطالب الارض والسلام والاشتراكية التي عنت للعامل غير المثقف نهب الغني لمصلحة الفقير . لم يكن باستطاعة هذه الحكومة لا صنع السلام ولا الحرب . كما لم تستطع وضع نفسها بجراة على راس الحركة الفلاحية الضخمة فتسن قانونا يقضي بانتزاع جذري للملكيات الكبيرة ، ولا فرض الاحترام لحقوق الملاك في الملكية . وفي ظل هذه الظروف لم يكن من الغريب ان تتهاوى الحكومة المؤقتة لمجرد افتقارها الى من يدعمها عندما قرر لينين في تشرين الثاني عام ١٩١٧ ان اللحظة قد ازفت للانقضاض على السلطة» (٢) .
ان وجهات النظر التي تسقط امكانية سبيل كلاسيكي «غربي» للتطور علىالوضع الروسي في عام ١٩١٧ ، انما تتجاهل ميزان القوى الاجتماعية في روسيا اذ ذاك

---

١ ــ اي لا من خلال نمو المشاريع الصغيرة التنافسية بل كعملية تطور «مركب» عبر الانتقالالمباشر لمشاريع احتكارية متقدمة من الخارج . ويبدو ان هذا الاصطلاح بدأ مع لينين . انظر باران ، التقدم الاقتصادي والفائض الاقتصادي . وكذلك فبلن ، المصدر السابق .

٢ ــ وليم تشمبرلين ، الثورة الروسية ، نيويورك ١٩٦٥ ، المجلد الثاني ص ٥٤٣ .
انظر ايضا ، ليونيل كوشان ، روسيا في الثورة ١٩٠٠ ــ ١٩١٨ ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦٧ وما بعدها.

وكذلك التجربة العامة للثورة البورجوازية المتأخرة ، وكلاهما يناقض اي تفاؤل كهذا وأي مفهوم يقول بوجود سبيل وحيد للتطور الاجتماعي الغربي (٣) . لقد باشرت المانيا الامبراطورية ثورة متأخرة على الاوتوقراطية الاقطاعية للمرة الثانية وعلى أنقاض هزيمة عسكرية ، وكأنها ما فعلت الا لتبرهن على صحة ما نذهب اليه. فبالمقارنة مع روسيا ، استطاعت الاحزاب «الديمقراطية» و«المعتدلة» ان تحتفظ بالسلطة هذه المرة (٤) . ولكنها ــ وهنا تتمتع لكن بأهمية حاسمة ــ لم تستطع ذلك الا بالارتباط بالعسكرية البروسية وقوى الرجعية الاجتماعية الالمانية . فقد لجأ وزير الحرب «الاشتراكي» نومسكه خلال الثورة ، وللحفاظ على «القانون والنظام» الى تشكيل قوات «فرايكوربس» ، النموذج المصغر لقوات الصاعقة الهتلرية ، اسحق اليسار الراديكالي (٥) بتمويل من رأس المال الالماني الكبير (كــروب ، كيردورف ، ستينز الخ) .

ولم ينجم عن انتصار الكيرنسكيين الالمان هذا وهزيمة البلشفية الالمانية هذه تطور ديمقراطي ثابت ، بحسب ما يفترضه ضمنا مفهوم سبيل «غربي» في روسيا. بل نجم بدلا عن ذلك اضطراب سياسي واقتصادي مزمن والصعود السريع للنازية والقوى الفاشية المضادة للثورة وفي النهاية بربرية الحرب العالمية الثانية (٦) ، وما ذلك الا لان ثمن الانتصار كان الحفاظ على الرأسمالية الالمانية والقوى الاساسية للماضي الالماني الاوتوقراطي والعسكري والقومي ، او على حد تعبير لينين الاحتفاظ «بروث القرون الوسطى» (٧) .

ولا شك في انه لو امكن تطور روسيا في ظل نظام من نوع نظام فايمر ، لكانت التجربة الروسية مختلفة جدا عن التجربة الالمانية (اذ لا بد ان تعكس اساسا مستوى التطور الرأسمالي والصناعي الروسي الاكثر انخفاضا بكثير) . ولكن ليس هناك من اساس للافتراض بأن القوى الوحشية شبه البربرية المتجذرة في التربة الاجتماعية والثقافية للامبراطورية الروسية ، والتي عبرت عن نفسها في المذابح القيصرية وفي عنف الارهابين الابيض والاحمر وفيما بعد في التطهيرات الستالينية الدموية ، كان يمكن التخلص منها بمجرد الحفاظ على الاشكال البرلمانية في عام ١٩١٧ وعقد جمعية تأسيسية .

---

٣ ـ انظر القسم الاول من هذا الكتاب .

٤ ـ للاطلاع على سرد لضعف هذه القوى الليبرالية بالمقارنة مع قوى عام ١٨٤٨ ، انظر تايلور، مسار التاريخ الالماني ، ص ٢١١-٢١٢ .

٥ ـ كانت هذه هي الجماعة التي اغتالت روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنشت .

٦ ـ بصدد تحليل النازية ضمن اطار القوى الطبقية للثورة والثورة المضادة الالمانية والنزعات التوسعية لرأس المال الالماني ، انظر ، نيومان ، العملاق . كان الوضع في روسيا اشبه من نواح كثيرة بوضع ايطاليا عام ١٩٢٢ ، قبيل انتصار الفاشية .

٧ ـ المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص ٣٠٠ .

وفي الواقع ، تم عقد الجمعية التأسيسية في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، ولكن البلاشفة حلوها بعد جلستها الاولى — ويعتبر الكثيرون هذا العمل مثلا على تدمير البلاشفة للبرلمانية الديمقراطية في روسيا . غير ان ذلك ان كان يبين شيئا فهو انما يبين ضحالة اساس البرلمانية الديمقراطية في روسيا . ذلك «ان حل اول برلمان روسي منتخب بحرية لم يثر بالكاد سوى مويجة من الاهتمام والاحتجاج ، بقدر ما يتعلق الامر بالجماهير» ، على حد ما يذهب اليه تشمبرلين (وما تؤكده مصادر موثوقة اخرى كثيرة) .

ويعزو تشمبرلين رد الفعل هذا لسببين . اولهما ان البلاشفة كانوا قد اتخذوا ونفذوا «القرارات التي كانت غالبية الشعب تريدها بشأن مسائل الارض والسلام» «فحرموا بذلك مداولات الجمعية من معظم الاهتمام» الذي كان يمكن ان تثيره . والسبب الثاني هو ان الجمعية انهارت «لان روسيا كانت تفتقر بوضوح الى كل الشروط التي تشير التجربة التاريخية الى انها ضرورية كي تعمل الديمقراطية البرلمانية بشكل فعال» . ولا شك في ان هذا المؤرخ الليبرالي يعي الدلالات الاعمق لهذا الاطار البنيوي :

«ولهذا السبب بالذات ، لو ان البلشفية فشلت في اجتياز محنة الحرب الاهلية التي كانت طلقاتها الاولى قد تردد صداها بالفعل ، لما كان البديل .. جمعية تأسيسية منتخبة على اساس احدث قواعد الاقتراع المتساوي والتمثيل المتناسب ، بل دكتاتورية عسكرية ، كولشاك او دينيكين يدخل موسكو على صهوة جواد ابيض ترافقه اجراس مئات الكنائس في العاصمة القديمة» (٨) .

كي نستطيع ان نقدر كم كان المحيط الروسي في عام ١٩١٨ معاديا لمؤسسات الديمقراطية ، وكي نفهم كذلك المأساة التي تلت ، ينبغي علينا ان نتذكر ان البلاشفة لم يكونوا ينوون اقامة دكتاتورية سياسية (٩) كأداة للتحويل الاجتماعي . فمثلا كتب لينين عام ١٩٠٥ من منظور يتفق تمام الاتفاق مع مفهوم ثورتين ، بورجوازية واشتراكية ، يقول :

---

٨ — تشمبرلين ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٣١٧ .

٩ — ان مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» هو مفهوم دكتاتورية طبقة بموازاة «دكتاتورية البورجوازية» التي تعمل في الظروف العادية عبر الوسط الدستوري للديمقراطية البورجوازية . ويكمن جوهر مفهوم دكتاتورية البروليتاريا في الادراك ان البورجوازية ، عندما يتهدد الخطر قاعدة وجودها (الملكية الخاصة) لا تقتصر في معارضتها على الاساليب القانونية والدستورية . ومن هنا فان قبول حزب ثوري لمفهوم الدكتاتورية يعني استعداده للجوء الى القوة ضد الثورة المضادة حتى ولو استتبع ذلك الخروج على اطار المؤسسات القانونية التي أقيمت في المجتمع القديم في ظل الحكم الطبقي للبورجوازية ذاتها . «عندما تحارب طبقة ثورية مقاومة الطبقات المالكة ، يجب على هذه المقاومة ان تسحق . وسنسحق مقاومة الطبقات المالكة مستخدمين الوسائل ذاتها التي استخدمت لسحق البروليتاريا — ذلك انه لم تخترع وسيلة اخرى —» لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٣٥٤ .

«ينبغي علينا ، نحن الماركسيين ، ان نعلم انه ليس هناك ، ولا يمكن ان يكون هناك ، طريق للحرية الحقيقية للبروليتاريا والفلاحين غير طريق الحرية البورجوازية والتقدم البورجوازي . ينبغي علينا ان لا ننسى انه ليس هناك ، ولا يمكن في الوقت الراهن ان يكون هناك ، وسيلة أخرى لجعل الاشتراكية أقرب منالا غير الحرية السياسية ، غير جمهورية ديمقراطية ، غير دكتاتورية العمال والفلاحين الثورية ـ الديمقراطية » (١٠) .

وقبل ثورة ١٩١٧ بقليل كرر لينين هذه الموضوعة مؤكدا ان النضال من اجل الديمقراطية ليس حرفا عن السبيل السوي ، بل «كما ان الاشتراكية لا يمكن أن تنقد الا اذا حققت ديمقراطية كاملة ، كذلك لن تستطيع البروليتاريا الاعداد للنصر على البورجوازية الا اذا شنت نضالا متماسكا ثوريا متعدد الجوانب من اجل الديمقراطية» (١١) .

كان الشكل السياسي للديمقراطية التي حمل البلاشفة لواءها يتجسد بمجالس العمال والفلاحين او السوفياتات ، التي كانوا يعتبرون انها تقدم نمطا من المشاركة الديمقراطية في الحكم اكثر مباشرة وتقدما مما تقدمه المؤسسات البرلمانية (١٢) .

---

١٠ ـ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، ص ١١٢ .

١١ ـ هذا المقتطف من مقالة للينين بعنوان «البروليتاريا الثورية وحق الامم في تقرير مصيرها» كتب عام ١٩١٥ . المسألة هنا لها اهمية اساسية ، كما انها تتعرض لسوء فهم عام يجعل من المناسب ايراد الفقرة بكاملها : «مما يقوله (رادك) ، يبدو انه يرفض بازدراء ، وباسم الثورة الاشتراكية ، اي برنامج ثوري متناسق في حقل الديمقراطية . وهو على خطأ في ذلك . فالبروليتاريا لا يمكن ان تنتصر الا عبر الديمقراطية ، اي الا باعطاء الديمقراطية مداها الكامل وربط كل مرحلة من مراحل النضال بمطالب ديمقراطية تصاغ بابلغ التعابير حزما .. ينبغي علينا ان نقرن النضال الثوري ضد الراسمالية ببرنامج ثوري وتاكتيكات ثورية بصدد كل المطالب الديمقراطية : جمهورية ، ميليشيا ، الانتخاب الشعبي للموظفين ، حقوق متساوية للنساء ، حق الامم في تقرير مصيرها الخ . وطالما ظلت الراسمالية على قيد البقاء ، فان هذه المطالب ـجميعاـ لا يمكن ان تحقق الا كاستثناء ، وحتى لو تحققت فانها ستتحقق بشكل ناقص ومشوه . ونحن اذ ننطلق من الديمقراطية التي تم تحقيقها ونعري نقصها في ظل الراسمالية ، نطالب بالاطاحة بالراسمالية ونزع ملكية البورجوازية كاساس ضروري للقضاء على فقر الجماهير وتحقيق كل الاصلاحات الديمقراطية بشكل كامل وشامل» .

١٢ ـ هكذا يثبت لينين في كتابه «الدولة والثورة» ملاحظات ماركس حول عامية (كومونة) باريس « (كتب ماركس) كان على العامية ان تكون هيئة عاملة تشريعية وتنفيذية في آن معا ، وليس هيئة برلمانية . وبدلا من ان يتقرر مرة كل ثلاث او ست سنوات اي افراد الطبقة الحاكمة سيسيء تمثيل الشعب في البرلمان ، كان على الاقتراع العام ان يخدم الشعب المنظم في عاميات كما يخدم الاقتراع الفردي كل موظف آخر في بحثه عن عمال او مديرين لاعماله» . واضاف لينين «اذا نظرنا بشكل اكثر دقة الى آلة الديمقراطية الراسمالية ... فاننا سنجد قيدا اثر قيد على الديمقراطية (الحقيقية) ... وهذه القيود بمجموعها الكلي تستثني الفقراء من السياسة ، من المشاركة الفعالة في الديمقراطية » .

اعلن لينين في خطاب القاه على اجتماع للجنود بعيد عودته الى روسيا في نيسان ١٩١٧ بقليل :

«ان كل السلطة في الدولة ، من القمة الى القاعدة ، من أقصى قرية والى آخر شارع في بتروغراد ، يجب أن تكون لسوفيات ممثلي العمال والجنود والفلاحين.. يجب الا يكون هناك شرطة ، ولا بيروقراطيون غير مسؤولين امام الشعب مباشرة ويقفون فوق الشعب ، ولا جيش دائم ، بل فحسب الشعب المسلح الموحد في سوفياتات ــ وأبناء الشعب هم من يجب ان يدير الدولة» (١٣) .

واصبح شعار «كل السلطة للسوفيات» ، الذي شكل احد النقاط الاساسية في موضوعات نيسان ، فيما بعد شعار ثورة اكتوبر .

عكس الصدام بين الجمعية التأسيسية والسوفياتات الصدام الاساسي بين الثورتين (البورجوازية ــ الديمقراطية والبروليتارية ــ الاشتراكية) اللتين كانتا متشابكتين كل التشابك في عام ١٩١٧ . وبالضبط لان القوى البورجوازية ــ الديمقراطية فشلت في تنفيذ ثورتها بشكل متناسق وفي عقد الجمعية عندما كان لها من السلطة ما يمكنها من ان تفعل ، برزت المسألة في نطاق مختلف اساسا . ذلك ان الثورة البلشفية كانت اذ ذاك قد تخطت الثورة البورجوازية ــ الديمقراطية. ولذا فقد انعقدت الجمعية في ظل السلطة السوفياتية الجديدة . اضافة الى ذلك، لم يكن الصراع ضد الثورة ــ المضادة العسكرية الاقطاعية ، ذاك الصراع الذي كانت القوى الديمقراطية قد تذبذبت فيه في السنة المنصرمة ، قد انتهى البتة . فعندما دعا البلاشفة الجمعية الى الانعقاد في النهاية ، كان الجنرال كالادين وحزب الكاديت، تدعمهما القوى الرأسمالية الاجنبية ، قد بدآ ثورتهما المضادة العسكرية ضد النظام السوفياتي . ولم تكن الجمعية التأسيسية خارج هذا الصراع ، بل كانت في مركزه . فقد وقفت قوى كالادين ــ الكاديت خلف شعار «كل السلطة للجمعية التأسيسية» (التي سعوا في السابق الى منعها او تأخيرها) ، وما ذلك الا لان الجمعية كانت ستمثل سلطة اكثر محافظة من سلطة النظام السوفياتي المنتصر . وفي ظل هذه الظروف ، كان الشرط الذي يمكن للنظام السوفياتي ان يكون على استعداد بموجبه للتسامح تجاه الجمعية هو ان تكون الجمعية ذاتها على استعداد لدعمه في الحرب الاهلية ، اي ان «تعلن بلا تحفظ اعترافها بالسلطة السوفياتية والثورة السوفياتية وسياستها بصدد مسائل السلم والارض والسيطرة العمالية، وتنضم بحزم الى اعداء معسكر الكاديت ــ كالادين المضاد للثورة» (١٤) . وعندما رفضت الجمعية هذا الشرط الذي كان قد أعلن قبل انعقادها بأسابيع ثلاثة ، غدا حلها امرا محتوما .

---

١٣ ــ ورد في The new Cambridge Modern History, P. 403 .

١٤ ــ «موضوعات حول الجمعية التأسيسية» ، نشرت في «البرافدا» ، ٢٦ كانون الاول ١٩١٧ . لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٣٨٣ .

لكن السوفياتات نفسها لم يكن مقدرا لها ان تخرج من الحرب الاهلية مؤسسات ديمقراطية ، ولا ان تحفز «شكلا اعلى من الديمقراطية في روسيا ، كما كان لينين ينوي . فقد اختفت في بحر الدم والعنف خلال الحرب الاهليـــــة كل الشروط الاساسية للديمقراطية السوفياتية ــ النظام متعدد الاحزاب (١٥) ، غياب الجيش الدائم ، غياب شرطة الدولة . فمن جهة ، لم يبخل البلاشفة بالارهاب المضاد لمواجهة الارهاب ، فكان التصعيد محتوما . ومن جهة أخرى، اتخذ البلاشفة الاجراءات القاسية التي اتخذوها ــ من الاحتفاظ بعقوبة الاعدام وخلق الشرطة السرية الى حظــر الاحزاب السياسية الاخرى ، ومــا نجم عن ذلك من دولة دكتاتورية قاسية في خضم عاصفة من الخيانة والثورة المضادة والانتفاضة المكشوفة ضد النظام من جانب جميع قوى المعارضة . وفي نهاية الامر ، لا يكاد يمكن ان توضع مسؤولية الديمقراطية على باب حزب واحد او جناح واحد . فعلى حد قول كار :

«اذا كان صحيحا ان النظام البلشفي لم يكن مستعدا بعد مضي الشهور القليلة الاولى على السماح بمعارضة منظمة ، فان من الصحيح وبالقدر ذاته ان ايا مـــن احزاب المعارضة لم يكن على استعداد للبقاء ضمن الحدود القانونية . لقد كانت مقدمة الدكتاتورية مشتركة بين جانبي النزاع (١٦) » .

في نهاية الحرب الاهلية ، خرج الحـزب البلشفي المعزول «منتصرا» ليمارس احتكارا لسلطة الدولة على مجتمع أمي بشكل غالب وينتمي الى القرون الوسطى واقتصاد متخلف (١٧) زراعي اساسا .

---

١٥ ــ لم يكن النظام متعدد الاحزاب احد الشروط التي ذكرها لينين ، ويعود ذلك بصورة رئيسية الى ان الامر لم يطرح . لقد كان هناك نظام متعدد الاحزاب في ظل الديمقراطية البورجوازية المحدودة، ولم يكن من برنامج البلاشفة في اي وقت تغيير ذلك .

١٦ ــ كار ، الثورة البلشفية ١٩١٧–١٩٢٣ ، المجلد الاول ، ص ١٩٠ .

دويتشر ، النبي مسلحا ، الفصول ١٠–١٣ .

دويتشر ، النبي أعزل ، الفصل الاول .

انظر كذلك نيتل ، الانجاز السوفياتي ص ٥٥ : «هكذا لم ينبثق مفهوم حصر السلطة في حزب واحد عن ميل عقائدي اساسا ، بل عن وضع ثوري لم يكن للحياد واللامبالاة فيه من معنى . فمن لم يكن مع البلاشفة ، كان ضدهم» .

١٧ ــ «عشية حرب ١٩١٤ ، كانت الصناعة الروسية تنتج ٣٠ كيلوغراما من الحديد للشخص الواحد من السكان مقابل ٢٠٣ كيلوغرامات في المانيا و٢٢٨ في بريطانيا و٣٢٦ في الولايات المتحدة . اما انتاج الفحم للشخص الواحد من السكان ، فقد كان في روسيا ٢ر. طن وفي المانيا ٨ر٢ طن وفي بريطانيا ٣ر٦ طن وفي الولايات المتحدة ٣ره طن ... ولم تكن روسيا تملك غير بدايات صناعة كهربائية وتجميع آلات ، بينما لم تكن تملك اي مصانع للالات او مصانع كيماوية او مصانع للسيارات» . التاريخ الحديث : طبعة كامبردج الجديدة ، ص ٣٨٨ . انظر كذلك موريس دوب، التطور الاقتصادي السوفياتي منذ عام ١٩١٧ ، ص ٣٦ وما بعدها .

وإذ صان البلاشفة وعززوا سلطتهم في وجه التدخل الاجنبي المسلح والثورة ــ المضادة المحلية ، اصبحوا يقفون على راس أمة تعيش عمليا حالة من التحلل . ففي نهاية الصدام ، وقبيل قحط ومجاعة كان من شدتهما ان ظهر أكل لحوم البشر في الريف ، كان الدخل القومي ثلث ما كان عليه عام ١٩١٣ فقط . وكانت الصناعة تنتج أقل من خمس البضائع التي تنتجها في العادة ، بينما كانت مناجم الفحم تنتج العشر فقط ومسابك الحديد جزءاً من اربعين . وبالاضافة الى ذلك ، لحق الدمار بالخطوط الحديدية جميعا واستهلكت المخزونات تماما . وتوقف تبادل السلع بين الريف والمدينة توقفا كاملا . وغدت مدن روسيا ، وهي التي كانت من قبل مراكز القوة الثورية والدعم البلشفي ، خالية من السكان (١٨) لدرجة انه كان في موسكو عام ١٩٢١ نصف سكانها السابقين فقط ، بينما كان في بتروغراد ثلث السكان فحسب . وكان التيفوس متفشيا «وعاش سكان العاصمتين اشهرا عدة على حصة غذائية تبلغ أوقيتين (٦٢ غراما) من الخبز وبضع حبات مثلجة من البطاطا ، وكانوا يدفئون مساكنهم بحرق خشب اثاثهم» (١٩) .

هذه كانت حالة الخراب الذي لحق بالامة في السنة الرابعة للثورة . وبالاضافة الى ذلك ، لم يكن هناك اي مساعدة خارجية للتخفيف من هذا الوضع ، بل على العكس من ذلك لم يخف الضغط الخارجي المباشر وغير المباشر على النظام (الا بالطبع التدخل العسكري المكشوف) .

واذا كانت المصاعب التي واجهها البلاشفة في بداية الامر جمة ، فان الآفاق بعيدة المدى المفتوحة امامهم كحزب اشتراكي بروليتاري يملك سلطة الدولة في محيط معاد يتسم بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي العميق لم تكن تقل شؤما . وقد وجدت المشاكل التي جابهتهم ، والتي تهددت بالخطر استقرارهم بل بقاءهم ذاته، تعبيرا عنها في المصاعب الحادة التي كانت جذورها ضاربة في ما أسماه المنظرون البلاشفة «التناقض» بين الريف والمدينة ، الصناعة والزراعة ، البروليتاريا والفلاحين .

وخلف هذه التناقضات تكمن حقيقة ان قرابة ٨٥ بالمئة من سكان اول بلد انتصرت فيه الثورة البروليتارية كانوا بعد سنوات خمس من الثورة يعيشون في المناطق الريفية ويعملون في وظائف ريفية . واذا كان للبلاشفة ان يبنوا فوق انقاض الامبراطورية القيصرية اتحادا اشتراكيا لجمهوريات سوفياتية ــ اي مجتمعا مثقفا متقدما تقنيا (٢٠) وديمقراطيا بشكل كامل ــ فقد كانوا يعلمون حق العلم انه يتعين

---

١٨ ــ بصدد اهمية اثر تشتت الطبقة العاملة على تطور الحزب والدولة كلية السلطة ، انظر ، دويتشر . النبي اعزل ، وخاصة الفصل الاول ، وكذلك كار ، الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد الاول ، ص ٩٩ وما بعدها .

١٩ ــ المصدر ذاته ، ص ٤ ، انظر كذلك فكتور سيرج ، مذكرات ثوري ، الفصلين الثاني والثالث.

٢٠ ــ سجل احصاء عام ١٩١٠ الحالة التقنية البدائية في القطاع الرئيسي للاقتصاد ــ الزراعة. =

عليهم اولا ان يكسبوا الفلاحين ، الذين يمثلون جمهرة السكان ، الى قضية الاشتراكية . ولكن وفي الوقت ذاته ، كان عليهم كي يبنوا مجتمعا كهذا قادرا على الصمود في وجه التدخل العسكري المتوقع من جانب القوى الرأسمالية المعادية ، ان يقوموا بثورة صناعية كاملةشرطها المسبق «تراكم بدائي اشتراكي لرأس المال»(٢١). في هذه الضرورات المتناقضة ، كانت تكمن جوانب المعضلة المأسوية التي واجهتها الثورة البلشفية في روسيا .

ذلك ان الفلاحين كانوا «سيسلكون طريق التجميع بشكل اكثر طواعية وأكثر نجاحا ، كلما كانت المدينة أقدر على اخصاب اقتصادهم وثقافتهم» (٢٢) . غير ان المدينة الروسية ، بمستوى صناعتها وثقافتها المنخفض (٢٣) ، كانت أعجز من ان تقوم بهذا الدور . فعلى ادنى المستويات وأكثرها اساسية ، كانت منتجات المدينة، ان وجدت ، مهلهلة مرتفعة الثمن . ونتيجة لذلك ، كانت ردة فعل الفلاح ادخار محصوله . فوقفت المدن ، التي كانت تمثل بقايا المراكز الصناعية والثقافية الروسية ، على حافة المجاعة .

وكان الميل السائد للاقتصاد الاجتماعي تقوية الزراعة الريفية على حساب الصناعة المدينية ، وبشكل عام الانزلاق الى بدائية اقتصادية وثقافية واجتماعية . اما ما حدث من تراكم ضئيل ضمن هذا الاطار ، فكان التراكم ألذي حققه المزارعون الاغنياء (الكولاك) على اساس استغلال الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين الذين لا يملكون ارضا ، وفي ظل ظروف كانت في كثير من الوجوه أسوأ من تلك التي كانت سائدة في عهد النظام القديم . كذلك كانت هناك طبقة أخرى من المراكمين تشكلت من الوسطاء والمضاربين الذين اثروا في ظل «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي تبناها البلاشفة عام ١٩٢١ كتنازل منهم امام قوة الميول الرأسمالية في الاقتصاد .

واجه النظام البلشفي خطرا سياسيا متزايدا تمثل بالقوة المتزايدة لهذه القوى المعادية للاشتراكية . ولذا كان على البلاشفة أن يفعلوا اكثر من مجرد ترؤس تطور طبيعي للاقتصاد باتجاه صناعي ــ اشتراكي . فقد كانوا في الواقع يواجهون

= فقد بين هذا الاحصاء انه كان هناك ١٠ ملايين محراث خشبي و٢٥ مليون مسحاة خشبية مقابل ٢ر٤ مليون محراث حديدي فقط واقل من نصف مليون مسحاة حديدية . كما كان اكثر من ثلث المزارع لا يملك اية معدات على الاطلاق .

٢١ ــ انظر بريو براجنسكي ، الاقتصاد الجديد .

٢٢ ــ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ص ١٢٤١ .

٢٣ ــ لا يعني هذا انه لم تكن هناك ثقافة في روسيا قبل الثورة ، ولكنه يعني فحسب ان الثقافة كانت مقتصرة على الطبقات العليا والوسطى قليلة العدد وعلى بضعة مراكز مدينية كبيرة . اكثر من ذلك ، كان المثقفون بشكل عام معادين للثورة ، وفي كثير من الحالات غادروا روسيا طواعية أو اجبروا على ذلك . لقد كان ثلث الرجال وربع النساء فقط في روسيا الاوروبية غير أميين في عام ١٩٢٠ ، اما في سيبريا فقد كانت النسبة خمسا وعشرا على التوالي .

باطراد ، وكمسألة بقاء ، الحاجة الملحة الى ارغام الاقتصاد الاجتماعي نحو تطور تقدمي كهذا . كانت خطورة هذه المهمة والاخطار التي كانت تنذر بها هي ما جعل القادة البلاشفة الاوائل يحجمون عنها ويتطلعون الى العون من حلفاء اشتراكيين صناعيين (وعلى الاخص المانيا اشتراكية) كشرط لا غنى عنه للانتقال الى تطور اشتراكي متقدم .

بصرف النظر عن الاعتبارات العسكرية ، كان يؤمل ان يقدم هؤلاء الحلفاء للمجتمع الروسي المتأخر رأس المال والتقنية للقطاع الصناعي الضعيف الى حد خطر ، وكذلك تأثيرا ايديولوجيا وثقافيا حضاريا . وكان ذلك من الاهمية بمكان ، لا لان جمهرة الموجيك (الفلاحين الفقراء) الاميين كانت تفوق اعضاء الحزب عددا بشكل هائل فحسب ، بل وكذلك لان المستوى الخلقي والثقافي والتربوي للحزب كان منخفضا الى حد مذهل (ويتضمن ذلك مستوى ماركسية الحزب) (٢٤) . وقد وصف لينين في هذه الفترة جهاز الدولة البلشفي بأنه «مؤسف» بل «مثير للتقزز» واكد على اهمية ايجاد طريقة لمجابهة نقائصه «واضعين في الذهن ان هذه النقائص متجذرة في الماضي الذي تمت الاطاحة به ، ولكن لم يتم التغلب عليه بعد ...»(٢٥)

وكلما كان رأس المال الخارجي المتوفر للنظام لتوسيع القطاعات الصناعية وحث الفلاحين على الافراج عن فائضهم أقل ، كان يتوجب عصر الفلاحين اداريا لاجبارهم على ذلك . وكلما كان التأثير الايديولوجي والتقني اقل توافرا ، اصبح التراكم البدائي اكثر بدائية وقسوة واصبحت المقاومة الشعبية له اكثر يأسا وشراسة .

كان احتمال ثورة اقلية عنيفة كهذه (والانتقال الكامل لا يمكن ان يعني أقل من ذلك) غير مقبول للقادة البلاشفة حتى ولو افترضوا ان باستطاعتهم الانتصار في هذه الحرب الاهلية الثانية ، وكذلك كانت فكرة التصنيع المفروض بالقوة منفرة لهم الى

---

٢٤ ــ «... اننا نسمع اناسا يسهبون اكثر مما يجب في الحديث عن «ثقافة بروليتارية» ويثرثرون حول ذلك اكثر مما يجب . كبداية ، علينا ان نقنع بثقافة بورجوازية حقة ، كبداية علينا ان نكون مسرورين اذا تخلينا عن اكثر انواع الثقافة ما قبل البورجوازية فجاجة ، اي الثقافة البيروقراطية او ثقافة الاقنان الخ» . لينين ، افضل أقل ، ولكن افضل ، ٢ اذار ١٩٢٣ .

٢٥ ــ لينين ، افضل اقل ولكن افضل . تحدث لينين في تقريره للمؤتمر الحادي عشر للحزب حول العلاقة بين ٤٧٠٠ شيوعي في جهاز موسكو الاداري والعدد الضخم من الموظفين الذين ورثوا عن آلة الدولة القديمة ، وتساءل «من يوجــه من ؟» . وقال ان ثقافة البيروقراطيين غير الشيوعيين «تعيسة ورثة ، ولكنها لا تزال على مستوى اعلى من مستوانا . انها على تعاستها وانخفاضها لا تزال أرفع من ثقافة اداريينا الشيوعيين المسؤولين ، لان هؤلاء يفتقرون حتى الى القدرة الادارية . وكثيرا ما يخدع الشيوعيون الذين يوضعون على رأس الدوائر ــ وفي احيان كثيرة يلجأ مخربون عامدون الى وضعهم في هذا الموقع ليستخدموهم غطاء لهم . ان هذا اعتراف مؤلم .. ولكنني اعتقد اننا يجب ان نعترف به ، لان هذه في الوقت الحاضر مشكلة بارزة» المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .

درجة رفضوا معها حتى ان يبحثوها . وقد كان لينين قاطعا بصدد هذه المسألة ، فقد قال عام ١٩١٩ : «ان عمل البناء الاشتراكي يعتمد كلية على السرعة التي تنتصر بها الثورة في اهم اقطار اوروبا» ، واضاف يقول «وفقط بعد هذا الانتصار يمكننا ان نبدأ هذا البناء بجدية» . وقال في الذكرى الثالثة لثورة اكتوبر بصراحة : «لقد اكدنا دائما اننا ننظر من وجهة نظر عالمية وان من المستحيل تحقيق عمل كالثورة الاشتراكية في بلد واحد» (٢٦) .

وقد كانت هذه لا وجهة نظر لينين وحده بل وجهة نظر تروتسكي وبوخارين وستالين والقيادة البلشفية كلها حتى عام ١٩٢٤ (٢٧) . اذ كانوا جميعا يرون ان مصير الاشتراكية في بلد متخلف واحد ، أتت فيه البروليتاريا الى السلطة «قبل الاوان» ، يعتمد على قدرة الثورة على الاستفادة من تقسيم عمل بين الامم ضمن اطار مجموعة من الامم الاشتراكية المصنعة اكثر مما يعتمد على القوى الانتاجية المحلية . وكان برنامجهم الاحتفاظ بالسلطة وتثقيف السكان ووضع أسس البناء الاشتراكي (ادخال التخطيط بصورة تدريجية ، التجميع الطوعي التدريجي للزراعة) (٢٨) . ولم يكونوا يفكرون باتمام هذا البناء وحدهم .

غير ان تحولا عميقا وارتدادا الى الداخل بدأ يطرأ على تصور الحزب عام١٩٢٣ ، بعد ان سحق اليسار في المانيا سحقا كاملا وبدا أن ذلك انهى احتمال قيام الثورة في اوروبا وبالتالي احكم طوق العزلة على روسيا . ومما عجّل بهذه العملية ، التي كانت تتطور منذ بعض الوقت ، وفاة لينين وتدفق عناصر جديدة الى الجهاز الحزبي (تضاعف عدد اعضاء الحزب ثلاثين مرة بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٢ فقط ، بينما تضاعف خمسمائة مرة خلال العقد الاول من الثورة) . وكان ستالين هو الذي عبّر عن هذا المزاج الجديد ، فصاغ بصورة أولية في البداية ، ثم بقدر اكبر من الجزم فيما بعد ، خطا يقوم على فكرة الاكتفاء الذاتي القومي وامكانية بناء «الاشتراكية في بلد واحد» ؛ تلك الفكرة التي كانت مرفوضة حتى ذلك الحين .

لم يعبر هذا الخط ، الذي كان له فيما بعد ابلغ الآثار وابعدها ، عن تحليل وبرنامج تم التفكير بهما مليا . فحتى عندما رفع ستالين شعار «الاشتراكيةفي بلد واحد» الى مصاف عقيدة دوغمائية ، فانه لم يتقدم ببرنامج للانتقال السريع والتصنيع المفروض بالقوة كذلك الذي طبقه فيما بعد . على العكس من ذلك ، شن ستالين صراعا شرسا خلال السنوات الخمس اللاحقة على المعارضة اليسارية بقيادة تروتسكي ، التي انضم اليها فيما بعد زينوفييف وكامينيف ، والتي كانت تنادي

---

٢٦ ــ ورد في دويتشر ، النبي اعزل ، ص ٢٩٠ . ورد الشطر الثاني من الفقرة آخر مرة في طبعة عام ١٩٢٨ من المؤلفات الكاملة ، ولكنه حذف من جميع الطبعات اللاحقة .

٢٧ ــ انظر ملاحظة ستالين في نيسان ١٩٢٤ . الملاحظة رقم ١٦ في المقدمة .

٢٨ ــ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٩ ، ص ٢١٠ ، المجلد ٣١ ، ص ٥٢٥ .

بالبدء بالتجميع التدريجي وتسريع التطور الصناعي . فقد رفض ستالين هذه المقترحات ، التي كانت اكثر اعتدالا بكثير من الاجراءات التي طبقها هو ذاته في الممارسة فيما بعد ، بوصفها خططا «طوباوية» ، «لاستغلال» الفلاحين واشعال الصراع الطبقي في الريف وشطحات خيال «فوق ــ مصنّعين» .

بدا ان «عقيدة» ستالين في «الاشتراكية في بلد واحد» تلخص ، من وجهة نظر قومية ، الوضع الذي وجد النظام نفسه فيه وتجعل من الضرورة فضيلة . كان هذا الشعار قيما بالنسبة لستالين ، المنظم الحزبي غير المنظّر ، فقد لقي الترحيب من الاعضاء الحزبيين ، اذ كان هؤلاء يتوقون الى فترة هدوء واستقرار ، كما كانوا قد سئموا التقليل من اهمية روسيا «المتأخرة» ، ذلك التقليل المرتبط بالمنظور القديم، ونفروا من اعتمادهم على ثورات غير روسية تتأجل باستمرار . وباختصار كانوا عرضة للتأثر بالمناشدة القومية المتضمنة في شعار «الاشتراكية في بلد واحد» (٢٩). وفي الوقت ذاته ، اثبت هذا الشعار انه أفضل احباط لشعار «الثورة الدائمة» الذي ارتبط باسم تروتسكي ، والذي حاول هذا به الدفاع عن التحليل القديم والنظرة القديمة .

وبينما كان شعار تروتسكي وتحليله يتضمنان المخاطرة والاضطراب الدائم والصراع و«التشاؤم» بصدد الامكانات القومية ، بدا شعار «الاشتراكية في بلد واحد» ــ خاصة كما ترجم في الممارسة في سنواته الاولى ــ وكأنه يقدم النقيض: رسالة قومية وفي الوقت ذاته تطور ثوري ، تصور دخول الكولاك في الاشتراكية ، وبالتالي عزوف عن مباشرة اية برامج يمكن ان تستعدي (كما لا بد لاية برامج تصنيع او تجميع أن تفعل) تلك الطبقات التي كانت تزيد من قوتها بموجب السياسة الاقتصادية الجديدة . ولربما كان حذر الجناح الذي عزز سيطرته على الحزب في ظل راية «الاشتراكية في بلد واحد» ينعكس افضل ما ينعكس في الخطة الخمسية الاولى (١٩٢٧) . فقد توقعت الخطة ان تبلغ موازنة الدولة في نهاية السنوات الخمس ١٦ بالمائة فقط من الدخل القومي اي أقل من موازنة روسيا القيصرية قبل الحرب والتي بلغت ١٨ بالمائة (٣٠) . غير ان ستالين اندفع خلال سنتين (جزئيا بضغط الظروف وجزئيا بمحض رغبته الذاتية) ليتخذ اجراءات على نطاق وباتجاه

---

٢٩ ــ انظر ، كار ، الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد الثاني ، ص ٤٧ـ٤٨ .

٣٠ ــ البرنامج السياسي للمعارضة اليسارية ـ١٩٢٧ـ . نشر ايضا في تروتسكي ، الوضع الحقيقي في روسيا . كتب هذا البرنامج تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وسميلغا وبياتاكوف وغيرهم . يمكن العثور على تحليل هام للصراع الحزبي الداخلي في هذه الفترة وأساسه التاريخي : قام به عضو سابق من اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني واللجنة التنفيذية للكومنترن : في ارثر روزنبرغ ، تاريخ للبلشفية .

لم يكن هو ولا غيره قد تنبأ حتى ذلك الحين بكونهما ممكنين (٣١) .

اجرى تروتسكي من منفاه ، وفي السنة ذاتها التي حصل فيها «التغيير العظيم» (١٩٢٩ — ١٩٣٠) ، مسحا للتجربة الروسية في الفترة السابقة من وجهة النظر الاممية الكلاسيكية التي كان البلاشفة جميعا يشتركون فيها قبل عام ١٩٢٤ . فكتب يقول : «ان الحفاظ على ثورة بروليتارية ضمن اطار قومي لا يمكن ان يكون غير حالة مؤقتة ، حتى ولو كانت حالة مؤقتة طويلة الامد كما اثبتت التجربة الروسية» . ففي الدكتاتورية البروليتارية المعزولة :

«تنمو التناقضات الداخلية والخارجية بصورة محتومة جنبا الى جنب مع النجاحات . ولذا ، اذا ظلت الدولة البروليتارية معزولة فانها في النهاية لا بد ان تقع ضحية هذه التناقضات . والمخرج الوحيد يكمن في انتصار بروليتاريا الاقطار المتقدمة » (٣٢) .

كان الكثير مما حدث في الفترة السابقة يعزز هذا التحليل . فقد زادت حدة التوترات التي واجهت الدولة البلشفية منذ نهاية الحرب الاهلية ، كما تعاظمت المصاعب التي لقيتها ، ومع ذلك بدت قدرتها على التغلب على هذه المصاعب والتوترات أقل بكثير . فمع العزلة الخارجية التي عاناها النظام في البداية ، بدأ النظام ينعزل داخليا اكثر فأكثر كلما اجبرته الحالة الاقتصادية السيئة على تقوية تلك الطبقات الاكثر معاداة للاشتراكية وتوسيع قاعدتها في القطاعات الراسمالية التي كانت لا تزال سائدة . وفي الوقت ذاته ، عانى الحزب تدهورا خطيرا في معنوياته وتماسكه الداخلي ، واصبحت الوسائل والطرق البيروقراطية الاعتباطية الوحشية التي وسمت عهد ستالين تتغلغل فيه باطراد ، وغدا قادته يزدادون احتقارا للجماهير التي يقودونها (٣٣) . وكلما تعاظم خنق الديمقراطية الداخلية في الحزب ، اضمحلت قدرته على عكس التيارات والقوى خارجه والاستجابة عقلانيا للتحديات ، وازداد اعتماده على الارهاب (داخله وخارجه على حد سواء) .

مع عام ١٩٢٨ ، كان النتاج القومي في المستوى الذي كان عليه عام ١٩١٣ ، وكان السوق يسيطر على الاقتصاد سيطرة كاملة . ولم تكن هناك اي محاولة جادة

---

٣١ — «لم تكن الطريقة الدرامية المرتجلة التي باشر ستالين التجميع بها قابلة للتصديق لولا انه سجل آراءه على الورق في الفترة السابقة من عام ١٩٢٤ الى وقت متأخر من عام ١٩٢٩ . فقد احجم حتى اللحظة الاخيرة عن احداث الثورات ولم تكن لديه اية فكرة عن المدى والعنف اللذين كان له ان يتخذهما فيما بعد . ولم يكن وحيدا في ذلك ، فما من جماعة بلشفية او جناح او كتلة فكرت بتصنيع في كثافة وسرعة التصنيع الذي اطلقه ستالين ولا بتجميع في شمول وجذرية التجميع الذي بدأه». دويتشر ، ستالين ص ٣١٩—٣٢٠ . يمكن الاطلاع على سرد تقني مثير للاعجاب للمناقشات التي جرت في الفترة السابقة في الكسندر ايرليخ ، مناقشات التصنيع السوفياتية ١٩٢٤ — ١٩٢٨ .

٣٢ — تروتسكي ، الثورة الدائمة ، مقدمة الطبعة الروسية .

٣٣ — انظر مثلا الفقرة المتعلقة بالحزب في البيان السياسي للمعارضة اليسارية .

لتجميع الفلاحين الاكثر فقرا او زيادة سرعة التصنيع . وكنتيجة مباشرة لذلك ، غدت الازمة الغذائية المزمنة ، التي كانت تعكس اكثر تناقضات الاقتصاد الاجتماعي اساسية ، تقترب من ابعاد تتهدد الحزب وقاعدته المدينية بالخراب الكامل . وعندما بدأ الكولاك يحاصرون المدن ويرفضون بيع الحبوب بالاسعار المحددة ، فقبضوا بذلك «على خناق النظام» ، بدا ان تحليل تروتسكي يوشك ان يثبت صحته .

وفي هذه اللحظة بالذات خرج ستالين من المأزق ، اذ عكس خطه وقام بثورة جديدة . فأرسل القوات المسلحة الى الريف ، اولا لمصادرة مخزونات الحبوب وفيما بعد لسوق الفلاحين بالقوة الى المجمعات . وأشعل الصراع الطبقي في الريف بطريقة لم يكن الحزب البلشفي ليحلم بمثلها في السابق . وأعلن ستالين «ينبغي علينا ان نسحق الكولاك ، ان نقضي عليهم كطبقة» (٣٤) .

كان سفك الدماء في هذا الصراع الذي سرعان ما تحول الى حرب اهلية ضد جميع شرائح الفلاحين لا يقدر . حتى ان ستالين ابلغ تشرشل ان التجميع خلق حالة اكثر خطرا من تلك ألتي واجهتها روسيا في الحرب العالمية الثانية. فقد رد الفلاحون على المصادرة بحرق محاصيلهم وقتل قطعانهم ، فقتل بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٤ ـ طبقا للارقام الرسمية ـ ١٨ مليون حصان و٣٠ مليون بقرة وقرابة ١٠٠ مليون من الاغنام (٣٥) ، بينما تركت مساحات شاسعة من الارض دون زراعة ، فكانت النتيجة ان ظهرت المجاعة مرة اخرى في السهوب الروسية .

اتت هذه الثورة ، على عكس ثورة أكتوبر ، في وقت «بلغ فيه وعي الامة الاجتماعي وطاقتها السياسية أخفض مستوى لهما» . لقد كانت «ثورة من فوق ، تقوم على قمع كل نشاط شعبي عفوي ، ثورة لم تكن قوتها الدافعة اي طبقة اجتماعية بل آلة الحزب» . ولذا بدا هذا الثوران لتروتسكي ، الذي كان تفكيره راسخا بعمق في التقليد الاوروبي للثورة الكلاسيكية ، على انه «ليس ثورة على الاطلاق ـ لقد كان فحسب أغتصابا للتاريخ اقترفته البيروقراطية الستالينية» . ومع ذلك ، وكما أوضح دويتشر عن حق : «مهما كانت ثورة ستالين الفوقية «غير مشروعة» من وجهة النظر الماركسية الكلاسيكية ، الا انها احدثت تغييرا ثابتا وعلى نطاق لم يسبق له مثيل في علاقات الملكية وفي طريقة الامة في الحياة» (٣٦) .

ان ثورة ستالين بتحويلها لعلاقات الملكية ومعها البنية الاجتماعية الروسية ودحرها لقوى الردة المحلية واقامتها لقاعدة صناعية صلبة ، انما دحضت وجهة نظر تروتسكي التي قدمت خيارا بين بديلين : الثورة في الاقطار المتقدمة او الانهيار السوفياتي . ولكنها مع ذلك لم تدحض التحليل العام الذي انبثقت نظرة تروتسكي

---

٣٤ ـ ستالين ، اللينينية .

٣٥ ـ المصدر ذاته .

٣٦ ـ دويتشر ، النبي منبوذا .

عنه . على العكس من ذلك ، ان كون ثورة ستالين قد مثلت عكسا للسياسة «التدريجية» السابقة ، كونها ثورة فادحة الثمن خطرة النتائج لانها لم تكن متوقعة ولم يتم الاعداد لها بشكل مناسب ، هو الدين الذي كان على «الاشتراكية في بلد واحد» ان تدفعه لبصيرة نظرية «الثورة الدائمة» ووجهات نظر البلاشفة بقيادة لينين . واذا نظر للامر عبر هذا المنظور ، فان «التصنيع والتجميع القسري» لم يكن غير بديل «لانتشار الثورة» بينما لم يكن «القضاء على الكولاك في روسيا» غير بديل «للاطاحة بحكم البورجوازية في الخارج» (٣٧) .

---

٣٧ ـ المصدر ذاته .

- ٨ -

تطور متفاوت ومركب : عهد ستالين

« ان البلشفية بمعنى من المعاني صيرت الاطار الجوهري للمجتمع الروسي «غربيا». ولكنها لم تستطع ذلك الا لانها «استشرقت» هي ذاتها . وقد شكل هذا التغلغل المتبادل بين التقنية الحديثة والاشتراكية الماركسية من جهة وبين البربرية الروسية من جهة أخرى محتوى عهد ستالين » **دويتشر** .

كانت ثورة ستالين الفوقية ، التي دفعت بقسوة ثقافة بدائية وبربرية الى العهد الذري ، حدثا صنع حقبة . ومع ذلك ، كان اثرها متناقضا وغامضا . ويجد هذا الغموض جذوره في طبيعة الثورة ذاتها التي كانت هجينا وثنائية ـ بقدر ما كانت نتاج التطور المركب للمجتمع الروسي ـ مثلما كانت ثورة اكتوبر من قبلها . هكذا ، بينما اعطى تطور روسيا المتخلف الذي جاء في وقت متأخر طابعا بروليتاريا لثورتها المعادية للاقطاع ، جعل تطورها المبكر نسبيا (باتجاه اشتراكي) تقدمها الثوري الاشتراكي متخلفا الى حد بعيد . ففي الثورة الاولى كانت فجاجة البنية الاجتماعية الروسية تثقل على النظام القديم جاعلة من الممكن بل من الضروري ان تفرض الطبقة العاملة نفسها «قبل الاوان» وتقود العملية الثورية . اما الان فقد اصبحت البدائية الهائلة السائدة تثقل على القوى الثورية فارضة سيطرتها على التحول الذي كان عليها ان تقوم به ، مشوهة في نهاية الامر هذا التحول .

بشكل عام ، اعتبرت الطبيعة «الثنائية» للتطور التاريخي الروسي نتاجا للاطار الاوروبي ـ الآسيوي للمجتمع الروسي ـ كون الامبراطورية الروسية واقعة ، على

حد تعبير لينين «على الحد الفاصل بين الاقطار المتمدينة والاقطار التي دفعت بها هذه الحرب (١) للمرة الاولى وبصورة قاطعة الى مدار المدينة» . وكان تخلفروسيا تخلفا شرقيا هو الذي جعلها اضعف حلقة في السلسلة الراسمالية عام ١٩١٧ . اما قربها من ألغرب الاوروبي المتقدم فهو الذي دفع بها بشكل مباشر ومدمر الى حلبة الصدام وحبا ثورييها برؤيا ماركسية ناضجة ونفاذة في وقت مبكر جدا .

لربما كان ابلغ تعبير عن الطابع الثنائي او المركب للثورة الروسية الثانية وعن موقعها التاريخي ضمن الاطار الروسي هو بالضبط «لاشرعيتها» من وجهة النظر الماركسية الغربية . ذلك ان وجهة النظر هذه اعتبرت ان الفعل الواعي لطبقة هو العامل «السوي» في التحويل الاجتماعي ، وليس الارهاب البيروقراطي لجهاز حزبي . غير ان الثورة لم تكن «غير مشروعة» على الاطلاق اذا نظر اليها من زاوية المحيط القومي الذي وجدت نفسها معزولة ضمنه ، والذي سيطر عليها بمعنى جزئي وان يكن عميقا . هكذا كانت الدولة الاوتوقراطية المركزية في روسيا قبل الثورة تسيطر على كل مستوى من مستويات المجتمع سيطرة فائقة جدا في مداها . فحتى أرفع النبلاء لم يكونوا غير «اول عبيد للقيصر» ولم يكونوا يملكون ما «يقيهم من الاعدام الاعتباطي المفاجىء ومصادرة ملكياتهم» (٢) . والأهم من ذلك ، ان هذه الدولة كانت العامل الرئيسي في التطور والاصلاح الاجتماعي الروسي (٣) .

ان استبداد ستالين الثوري وضعه ضمن تقليد القياصرة على اكثر من نحو . ففي أوصاف بطرس الاكبر ، الذي حاول هو ايضا تنفيذ ثورة من فوق لجعل المجتمع الروسي «غربيا» ، تتردد اصداء الثوران المخيف الذي وقف «الامين العام» على رأسه :

«كانت اعماله الخيرة تنفذ بعنف منفر . وكانت اصلاحاته صراع الاستبداد مع الشعب بخموله . لقد كان يأمل ان يستطيع بتهديد سلطانه ان يحفز المبادرة في مجتمع مستعبد ... ويدخل الى روسيا العلم الاوروبي والثقافة العامة بوصفهما الشرط الضروري للمبادرة الاجتماعية .. تداخل الاستبداد والحرية ، الثقافة والعبودية ــ هذه هي الاحجية التي عكفنا على حلها طيلة قرنين منذ عهد بطرس الاكبر ولم نجد لها بعد حلا» (٤) .

كتبت هذه السطور قبل ان يحطم التحويل الاوتوقراطي الوحشي الاطار القديم للمجتمع الروسي والثقافة الروسية ويدفع بروسيا الى العصر الحديث دون رجعة. وكان ستالين قادرا على حل الاحجية حيث فشل القياصرة من قبله . ذلك

---

١ ــ الحرب العالمية الاولى .

٢ ــ تشمبرلين ، الثورة الروسية .

٣ ــ اعتقد المؤرخ الليبرالي ميليوكوف ان الدولة في روسيا هي التي خلقت الطبقات بعكس ما تم في الغرب .

٤ ــ كلوشيفسكي ، ورد في تشمبرلين ، الثورة الروسية .

انهم اقاموا ثوراتهم الاوتوقراطية على البنية الاجتماعية القائمة وعلى الحفاظ على مؤسساتها الطبقية التقليدية ، اما ستالين فقد اقام ثورته على اساس ثابت هو مكتسبات اكتوبر . لقد حطمت ثورة اكتوبر الشرط القانوني للحكم الطبقي في روسيا ووضعت اساس الاقتصاد المخطط . واكثر من ذلك رفعت الى السلطة حزبا مكرسا لتنفيذ العناصر الاساسية في البرنامج الثوري على الاقل (٥) .

وبالضبط لان ثورة ستالين كانت ثورة من فوق تقوم لا على طبقة بل على بيروقراطية ، لا على انتفاض شعبي بل على قمع الارادة الشعبية ، فانها ظلت بصورة محتومة محدودة ومتناقضة في تقدمها ، وفي النهاية ناقصة . اكثر من ذلك ، دفعت هذه الثورة ، خلال مسيرتها بتطورات بدت رجعية بالمقارنة مع عام ١٩١٧ .

هكذا ، وبينما صفى النظام الستاليني الحكم الطبقي في الريف ، فانه اخضع حياة الفلاحين في مجتمعاتهم الجديدة كما اخضع جيلا كاملا من العمال الروس . فهو اذ وضع اسس التصنيع السريع ، جند العمال بطريقة عسكرية للصناعات المدينية ودمر القدر اليسير من الاستقلال الذاتي الذي كانت النقابات تتمتع به حتى ذلك الحين . وبشكل عام حدّ الى درجة رهيبة من الحريات التي اكتسبت في اكتوبر البلشفي . وفي حين قصم النظام الستاليني ظهر الفردية الريفية ، تبنى روحا تنافسية «ستاخانوفية» شرسة في صفوف الطبقة العاملة الروسية جماعية الروح تقليديا . وفي الوقت الذي شجع فيه التعلم وحيازة المعرفة العلمية على نطاق لم يسبق له مثيل ، نشر عقائد فكرية بشعة (٦) وأطلق حملات اصطياد ضد تلك القطاعات من الانتلجنسيا التي سعت الى تثبيت اي قدر من استقلالها . وبينما ادخل الخدمات الاجتماعية واسعة النطاق ومجد العمل الانساني ، اعاد ادخال اكثر اشكال العمل مقتا في معسكرات العقوبات . وفي حين اعلن ان رعاياه يشكلون مجتمعا «لاطبقيا» ، خلق اللامساواة والامتيازات على نطاق واسع .

وبينما قضى النظام الستاليني على الدين باسم الماركسية والعقلانية العلمية ، صيَّر الماركسية دينا وألّه الدولة والحاكم معا (٧) . واخيرا ، بينما اعلن عن نفسه اكمالا «للينينية» ، شجع عودة القومية الروسية الى الحياة وهي التي شكل رفضها اساس شقاق اللينينية مع الاشتراكية الديمقراطية وخلق الاممية الشيوعية .

---

٥ ــ يرد دور الحزب الاساسي في الحفاظ على المكتسبات الثورية ، ودفعها الى الامام في فترة ما بعد عام ١٩٢٣ ، بشكل جيد في كار ، الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد الاول ، ص ١٢٤ــ١٣٦ .

٦ ــ مثلا تلك المرتبطة بالجدانوفية وفكرة ان نظرية النسبية لاينشتاين بورجوازية بشكل ما وبالتالي خاطئة .

٧ ــ يقف خلف هذا رد فعل بدائي لضعف روسيا وعزلتها . فضرورة الخلاص ومع ذلك استحالته جعلا من الضروري الاعتقاد بمخلص فوق انساني . فعزيت الى الماركسية قدرة مقدسة على صنع الاعاجيب ، وصار ستالين («لينين عصره») نبيها وحبرها معا .

كان هذا التقدم الى الامام ــ الخلف ، هذا المزج بين الهمجي والحديث ، بين اللاعقلاني والعلمي ، بين اللاانساني والبربري من جهة والتقدمي المستنير من جهة اخرى ، يسم التطور الستاليني لروسيا . وكان هذا التطور ذاته نتيجة لاقتران العناصر المتقدمة والمتخلفة في الاطار الذي كان على الثورة في النهاية ان تنفاق فيه.

وكان التطور القومي للثورة نتيجة مباشرة لعزلة روسيا عالميا . ولكن كما ان مسار التطورات الثورية العالمية كان له اثره العميق داخليا ، كذلك كان لهذا التطور القومي اصداؤه العالمية الهامة . ذلك ان فشل الثورات في الاقطار المتقدمة في فترة ١٩١٧ ــ ١٩٢٣ لم يترك تخلف روسيا القومي ليسيطر على تقدم ثورتها فحسب ، بل مهد السبيل ايضا امام الشيوعية الروسية لتسيطر على الاممية الشيوعية وبالتالي تفرض عناصرها البدائية ذاتها على الحركات الشيوعية في الاقطار الاخرى . وفي هذا المحيط العالمي ، كان للعناصر المتناقضة ضمن التطور القومي آثار متعاكسة و«متفاوتة» تتفق مع التفاوت الاساسي للتطور العالمي .

وبالطبع مارست الملامح الاكثر تقدمية للتحويل الستاليني اهم تأثير في المناطق المتخلفة . فقد كان من المحتم ان يكون لصعود روسيا الزراعية خلال عقدين من الزمن الى قمة تطور صناعي مديني وقفزها من تقنية المحراث الخشبي الى عصر الفضاء اثر ثوري على مطامح المناطق المتخلفة المفقرة من العالم . اذ ان هذا التطور المشهود خلال جيل واحد اكد وأبرز بشكل مؤلم التعاسة والانحطاط البالغين اللذين يفرضهما على الامم المتخلفة موقعها المستغَل في النظام الراسمالي العالمي والتضحيات الجسام التي يتعين على الاجيال الراهنة والمقبلة في هذه الامم ان تقدمها بلا ثمن(٨).

وبالقدر ذاته من الاهمية ، ضمنت القوة الصناعية والعسكرية لروسيا الستالينية حماية جزئية على الاقل للدول الثورية الاخرى من ذلك النوع من العزلة والتدخل العسكري الذي ساعد على تعزيز الظروف التي كانت الستالينية قد ولدت في ظلها. فمثلا ليس هناك ادنى شك في ان امتلاك روسيا لاسلحة ذرية في اوائل الخمسينات شكل رادعا قويا في وجه طموح بعض القادة العسكريين والسياسيين الاميركيين الكبار الذين كانوا يريدون القيام بهجوم ذري ماحق على الصين في ذلك الحين (٩) (وبالمثل يمكن القول ان بقاء كوبا الثورة يعتمد على القوة العسكرية السوفياتية) .

---

٨ ــ «لم يكن القادة الآسيويون والافريقيون يملكون الا ان يلاحظوا .. ان الروس فعلوا لتثقيف الشعوب التي تعيش في القفقاس والدائرة القطبية الشمالية ، التي لم تكن لديها في عام ١٩١٧ حتى لغة مكتوبة ، في ربع قرن اكثر مما فعله البريطانيون في الهند خلال احتلال دام قرابة مائتي سنة». جيوفري باراكلو ، مقدمة للتاريخ المعاصر ٥ ص ٢٢٤ .

٩ ــ من بين من عرف عنهم انهم يفكرون بامكانية كهذه او دافعوا عن ذلك علنا ، الجنرال دوغلاس ماكارثر ، القائد الاعلى في الشرق الاقصى حتى عام ١٩٥١ ، ووزير الدفاع لويس جونسون ، ووزير البحرية فرانسيس ماتيوس . وقد قال الادميرال رادفورد للجنة من لجان الكونفرس « ان الصين =

لم يحم تحالف موسكو المبكر مع بكين الصين من الهجوم عليها فحسب ، بل دفع الثورة الصينية ايضا الى الامام ممهدا امامها سبيل التطور الصناعي . هكذا ، فان الماوية ، رغم كل ملامحها الستالينية ، وكونها تضرب جذورها بعمق ، كما في روسيا «في الصدام ما بين جهود الثورة وظروف المجتمع ما قبل الصناعية» (١٠)، لا تمكن مساواتها بالستالينية . ولا شك في ان قدرة الصين (في نضال لم ينته بعد) على تحرير نفسها من بشاعات التخلف والاستغلال الاجنبي دون دفع الثمن الباهظ الذي كان على الصعود الروسي ان يدفعه (مع انه كانت هناك تكاليف ضخمة) ، يعزز بالطبع قدر السبيل «الاشتراكي» في اعين العالم المتخلف ويدفع عجلة التغيير الثوري بقوة مضاعفة .

وبينما شكلت الثورة الروسية (وخاصة مرحلتها الثانية) حافزا مباشرا وقويا للحركات الثورية في المناطق المتأخرة ، الا ان تأثيرها في الاقطار الراسمالية المتقدمة كان بالتأكيد اكثر تعقيدا وتناقضا . فمن جهة ، كان نمو احزاب شيوعية جماهيرية في عدد من الاقطار الاوروبية كنتيجة مباشرة للثورة ونشاطات الكومنترن . ومن جهة أخرى كان توقف هذه الحركات وفشلها في التطور على الاطلاق في بعض من اهم الاقطار الراسمالية .

لا شك في ان عوامل عديدة اسهمت في الاستقرار السياسي للراسمالية المتقدمة ، خاصة في العقدين الاولين من فترة «الحرب الباردة» التي تلت الحرب العالمية الثانية ، ولكن ليس هناك من شك ايضا في ان نجاح الحملة المعاديةللشيوعية كان من ابرزها . كما لا شك في ان الفظاعات الستالينية شكلت عوامل رئيسية في جعل هذا النجاح ممكنا . فقد كان من الطبيعي في اقطار تملك القاعدة المادية التي حاول الصعود الستاليني اقامتها ان يكون للملامح المتخلفة من التطور الروسي الاثر الابلغ .

والعامل الثاني الذي لا يقل اهمية في تحديد اثر الثورة على الغرب هو سلوك الاحزاب الشيوعية الغربية ذاتها ومنظورها . فقد اعتبرت الدفاع عن الثورة الروسية مهمة اولى متخذة موقعا داخل الاممية خاضعا للحزب الروسي الاقوى ، وبالطبع اذعنت هذه الاحزاب للسجل الثوري الروسي الناجح فتبعت النموذج الروسي الى درجة فائقة . وقد تبنى لينين نفسه هذا الخط (١١) ، ففشل بذلك

= الحمراء يجب ان تدمر حتى وان اقتضى ذلك حربا تستمر خمسين عاما، ودافع بوصفه رئيس هيئة الاركان المشتركة عن اقتراح باستخدام ٥٠٠ طائرة لالقاء قنابل ذرية تاكتيكية على قوات الفيتمنه قبيل سقوط ديان بيان فو . وقد قيل لنا بصورة غير رسمية ان بكين كانت ستتلقى معاملة ذرية اذا تدخلت الصين» . انظر س. رايت ميلز «النخبة الغالبة» ، ص ٢١٠-٢١١ .

١٠ ــ دويتشر ، «ثلاثة تيارات في الشيوعية» .

١١ ــ مثلا الشروط التي يبلغ عددها واحدا وعشرين التي وضعها لعضوية الاممية الثالثة .

في التقاط احد المضامين العميقة لقانون التطور المتفاوت . غير ان ذلك لم يفت روزا لوكسمبورغ التي كانت قد حذرت من خطر اتخاذ روسيا كنموذج اشتراكي . فكتبت تقول :

«اننا لنطالب لينين ورفاقه بأمر فوق انساني اذا كنا نتوقع منهم في ظروف كهذه (اي ظروف خراب روسيا وعزلتها وتدخل الحلفاء) ان يخلقوا من العدم ارفع ديمقراطية ودكتاتورية بروليتارية مثالا واقتصادا اشتراكيا مزدهرا» .

لقد قدم لينين والبلاشفة بتصميمهم الثوري واخلاصهم الكامل للاممية الاشتراكية «كلما تمكن المساهمة به في ظل هذه الظروف الشيطانية في صعوبتها». ولكنها حذرت :

«يبدأ الخطر .. عندما يجعلون من الضرورة فضيلة ويريدون ان يجمدوا كل التاكتيكات التي فرضتها عليهم هذه الظروف القاتلة في نظام نظري كامل ويوصوا بها البروليتاريا الاممية كنموذج مثالي على التاكتيك الاشتراكي . وعندما يخبىء البلاشفة الخدمة التاريخية الحقيقية التي ادوها تحت ركام الخطوات التي فرضتها عليهم الضرورة ، فانهم يؤدون خدمة شحيحة للبروليتاريا الامية التي ناضلوا من اجلها وقاسوا ، ذلك انهم يريدون ان يضعوا في مخزنها كل التشويهات التي فرضتها الضرورة والقسر في روسيا وكأنها اكتشافات جديدة ، وما تلك الضرورة وذلك القسر ، في التحليل الاخير ، غير نتائج عرضية لافلاس الاشتراكية العالمية في الحرب العالمية الراهنة » (١٢) .

ان ما كان نزوعا في ظل قيادة لينين غدا قاعدة في ظل قيادة ستالين ، ونتيجة لذلك عكست الاحزاب العالمية في محيطاتها المتقدمة الملامح المتخلفة للتطور الروسي وبشكل اكثر حدة . وبهذه الطريقة حقق اختلال توازن القوى العالمية الثورية سابقا في روسيا انتقاما جزئيا . ذلك ان تسارع الثورة العالمية (بما في ذلك الحركات الثورية في الغرب في البداية) ، الذي كان نتيجة ضعف احدى اكثر حلقات السلسلة الراسمالية تخلفا ، انعكس فأصبحت العملية الثورية في الغرب الاقوى تتباطأ بفعل جعل اكثر مراتب الطليعة الثورية العالمية ستالينية (عمليا جعلها بدائية).

وليس هذا الاثر الابطائي للثورة الروسية ظاهرة معقدة فحسب ، بل هو كذلك ظاهرة غير مستقرة . وفي عدم الاستقرار هذا يكمن اساس امكانية اعادة ترتيب للقوى يمكن ان يؤثر بعمق على الحرب الباردة وخط سير التطور الثوري العالمي . ولكي يصبح بمقدورنا النفاذ الى دينامية هذه العملية ، يتوجب علينا ان نبحث ثانية العلاقة بين الثورة ذاتها في تطورها الشرقي وبين الاشتراكية كبرنامج ثوري في الغرب المتقدم .

كانت احدى النتائج الفورية بعيدة المدى لتبني الحزب البلشفي في منتصف

---

١٢ ـ روزا لوكسمبورغ ، الثورة الروسية .

العشرينات عقيدة الاكتفاء الذاتي القومي هي احداث فجوة خطيرة ، لم تكن موجودة سابقا ، بين ما يعلنه الحزب وبين حقائق الحياة السوفياتية . ذلك ان تبني برنامج لبناء مجتمع اشتراكي متقدم في وضع من التخلف البائس وفي وجه عداء داخلي وخارجي هائل ادى بطبيعته الى خلق خرافات لتعزية النفس وحفزها . فبينما كانت الصراحة بين البلاشفة بصدد جلل محنتهم (محنة عدم تلقيهم دعما من الخارج) هي القاعدة في السابق ، بدأ قادة الحزب وبشكل منهجي يقللون من اهمية الصعاب التي تكتنف بناء الاشتراكية في بلد واحد (كبت القطاعات المعارضة في الحزب) والمبالغة في تقدير التقدم الذي تم احرازه نحو اتمام هذا البناء . ولم يكن صنع الخرافات هذا يزود بيروقراطية معلقة فوق الجماهير ، كما وجد الحزب نفسه عند نهاية الحرب الاهلية ، بتبرير للذات فحسب ، بل وايضا كان هناك شعور بأنه امر ضروري لدفع اليأس المدمر الذي إتسم به فترات يائسة كهذه (١٣) . على اية حال ، نما هذا الخداع ، الذي كان في البداية حييا خجولا ، ليصبح بسرعة كذبة مكشوفة ضخمة .

في المؤتمر الخامس للحزب في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، استعاد ستالين برنامج اقامة نظام اشتراكي جديد ، وهو البرنامج الذي كان انغلز قد أورده في «مبادىء الشيوعية» قبل ذلك بسبعين سنة ، وأضاف :

«قال انغلز ان الثورة البروليتارية ذات البرنامج المشار اليه لا يمكن ان تنجح في بلد واحد . غير ان الحقائق تبين .. ان ثورة كهذه قد تحققت بالفعل في أكثر اجزائها حيوية في بلد واحد فقط ، ذلك اننا حققنا تسعة أعشار هذا البرنامج في بلدنا » (١٤) .

تشير ملاحظات ستالين هذه الى عظم الفجوة التي كانت قد بدات بالفعل تفصل بين عقيدة الحزب والحقيقة لتغطي الفجوة بين الواقع والهدف ، تلك الفجوة التي القتها على كاهل بقايا البلاشفة المنتصرين الحرب الاهلية والعزلة . ذلك انه لا يمكن القول ان بلدا لم يكد يتضاءل وجود الفقر والحرمان والبطالة والامية فيه خلال العقد

---

١٣ ــ كان تروتسكي يعارض وجهة النظر هذه بشدة : «ان العامل الذي يفهم استحالة بناء جنة اشتراكية كواحة في جحيم الراسمالية العالمية ، ويفهم ان مصير الجمهورية السوفياتية وبالتالي مصيره هو ذاته يعتمد كلية على الثورة العالمية ، سيؤدي واجباته بحيوية اكبر من العامل الذي يقال له اننا نملك تسعين بالمائة من الاشتراكية» الاممية الثالثة بعد لينين ، ص ٦٨ .

١٤ ــ قارن ذلك بملاحظات لينين قبل ثلاث سنوات فقط : «أفدح الامور ضررا ان نعتمد على الافتراض .. بأننا نملك عددا كبيرا من العناصر الضرورية لبناء جهاز دولة جديد، جهاز دولة اهل لان يسمى اشتراكيا سوفياتيا الخ. كلا ، اننا نفتقر الى جهاز كهذا الى حد سخيف ، بل ونفتقر حتى الى عناصره ، ويجب علينا ان نتذكر انه ينبغي علينا الا نبخل بالوقت لبنائه وان ذلك يتطلب سنين عديدة عديدة» افضل اقل ، ولكن أفضل .

الاول بعد الثورة (١٥) ؛ ولم تكن فيه بعد ديمقراطية سياسية لاية طبقة ، قد تقدم بعيدا على السبيل الى مجتمع اشتراكي . وبالتأكيد لم يقطع معظم الطريق كما ادعى ستالين .

ومع ذلك ، سرعان ما غدا هذا الادعاء ركنا من اركان العقيدة الحزبية . وبدلا من ان تضيق في الفترة اللاحقة الفجوة بين ادعاءات الحزب وحقائق الحياة السوفياتية القاسية ، استمرت هذه الفجوة تنمو بسرعة رهيبة . ففي عام ١٩٣١ ، كان التجميع الجهنمي قد دفع بالريف الى حرب اهلية دموية ، لم تنجم عنها خسارة هائلة في الارواح فحسب ، بل وادت كذلك الى تدمير نصف قطعان الامة . ومع ذلك ، وفي ظل ظروف تشرف على حافة المجاعة ، ظروف كانت لا تزال قبل صناعية (لم يكن متوافرا في الاتحاد السوفياتي كله عند بداية التجميع غير سبعة آلاف جرار) ، اعلن ستالين ان روسيا قد دخلت في النهاية «عهد الاشتراكية» .

وكان هذا التشويه لم يكن كافيا ، فأعلن ستالين في منتصف الثلاثينات ان : «الانتصار الكامل للنظام الاشتراكي في كل حقول الاقتصاد الوطني اصبح حقيقة واقعة » .

وما الذي يعنيه ذلك ؟

«انه يعني ان استغلال الانسان للانسان قد قضي عليه وازيل ... (!) » .

جاء هذا الادعاء في أعقاب الثورة الصناعية الروسية ، اي في وقت كانت تتسع فيه اللامساواة والامتيازات وتزداد . وقت كان فيه الفقر الطاحن لا يزال قدر جماهير واسعة من ابناء الشعب . وقت كانت فيه حياة الشعب مخضعة بالارهاب كما لم يحدث قط من قبل . وقت كانت فيه معسكرات العمل مزدحمة بالسجناء السياسيين . وقت صارت فيه الدولة ، بدل ان تضمحل ، مؤسسة اكثر قمعية وجلالا اكثر من اي وقت منذ عام ١٩١٧ . وقت كانت قد بدات فيه محاكمات التطهير ، تلك المحاكمات التي انتهت بتصفية القيادة البلشفية القديمة كلها ، بما في ذلك المكتب السياسي كما انشىء في عهد لينين .

وليتوج ستالين هذا «التحويل» الذي نوه به ، أمر بوضع دستور سوفياتي جديد ، صورته دعايته «اكثر دساتير العالم ديمقراطية» ، ذلك الدستور الذي الغى من بين اشياء اخرى نظام الانتخاب السوفياتي واستبدله بمفهوم بورجوازي هو مفهوم الاقتراع الشامل للشعب كأفراد . وبهذه الوثيقة ، وصل تقليص الهدف الاشتراكي ليصبح ايديولوجية تبرير للذات ذروة تطوره . ففيها جعل نظام الحزب الواحد ، الذي ادخله البلاشفة سابقا كاجراء مؤقت في ظروف الحرب الاهلية ، مبدأ اشتراكيا مقدسا والتعبير التنظيمي عن لا طبقية النظام الجديد وتناغمه

---

١٥ ـ مثلا ، كانت البطالة الصناعية ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ عام ١٩١٣ و١٫٢٥٠٫٠٠٠ عام ١٩٢١ – ١٩٢٢ واصبحت ١٫٩٠٠٫٠٠٠ عام ١٩٢٥ . كار ، الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد الاول ، ص ٢١٨ .

المزعومين . ولم يكن ذلك سخرية بحقائق الحياة الروسية عام ١٩٣٦ ـ المعسكرات، فرق الاعدام ، العمل الالزامي ـ فحسب ، بل وكذلك سخرية بالمثال الاشتراكي في العقيدة الماركسية التي لا تشترك بشيء مع دكتاتورية الحزب الواحد (١٦) . ولسوء الحظ ، لم يحل ذلك دون تبني الحركة الشيوعية العالمية الستالينية ، وخاصة في الغرب ، للمبدأ الجديد البناء «الاشتراكي» في برامجها .

شجب تروتسكي منذ البداية ، بوصفه قائدا للمعارضة اليسارية ، التشويه المتنامي للوضع الحقيقي في روسيا ، واستمر في التحذير من نتائجه المحتومة . فكتب في تقرير الى اللجنة التنفيذية للكومنترن عام ١٩٢٨ يقول : «لا يجد المرء تصريحا اكثر عداء للاشتراكية والثورية ، من ذاك الذي ادلى به ستالين مؤكدا ان الاشتراكية قد تحققت بالفعل بنسبة تسعين بالمائة في الاتحاد السوفياتي» . فتصريحات كهذه يمكن ان تستخدم «لتشويه فكرة المجتمع الاشتراكي في اعين جماهير الشغيلة» (١٧) طالما ظل الاتحاد السوفياتي بلدا فقيرا متخلفا .

وبعد ان اعلن ستالين دخول روسيا عهد الاشتراكية عام ١٩٣١ ، كتب تروتسكي مرة ثانية من منفاه معريا تشويهات الدعاية الرسمية والصورة الانيقة المزيفة للمجتمع الروسي وكذلك الصورة غير الواقعية لتعاسة الجماهير في ظل الراسمالية المتقدمة والتي كان الحزب ينشرها . فقال ان ابلاغ الشعب السوفياتي ان القهر والجوع والحرمان التي يتعرض لها هي ثمرة الاشتراكية ، انما يعني قتل رغبته في الاشتراكية ويجعل منه عدوا لها . وذهب الى حد القول ان تلك هي «جريمة ستالين الكبرى» ، ذلك انها جريمة اقترفت بحق اعمق مطامح الطبقة العاملة وتهدد بالحاق الضير بمستقبل الثورة والحركة الثورية (١٨) .

غير ان الاحداث اثبتت ان هذه المخاوف تنطبق على اوروبا والغرب الراسمالي المتقدم اكثر بكثير مما تنطبق على روسيا . وقد تسببت في ذلك ثلاثة عوامل . ففي المقام الاول ، لم يكن المثال الاشتراكي كتحويل بعد ـ صناعي يؤدي الى الديمقراطية والعقلانية يعني الكثير لمجتمع أمي «قبل ـ راسمالي» فلاحي لا يملك غير وسائل انتاج متخلفة ولا يتمتع بتقليد ديمقراطي في الحكم . ومن هنا كان الشعور «بفشل» هذا المثال ، من وجهة نظر تحويل كهذا ، اي من وجهة النظر التي

---

١٦ ـ ومن نافل القول ، انها كانت تقوم ايضا على كاريكاتير لمفهوم الطبقة الماركسي . فالطبقات هي الاخرى متغايرة العناصر ، ويمكن حتى لطبقة واحدة ان تشكل اساسا لعدة احزاب . انظر بحث تروتسكي للحزب والطبقة في نقده للدستور في «الثورة المغدورة» . او موقف ماركس المعارض للسلطوية في الدولة قبل الثورة وبعدها . انظر مثلا رالف ميليباند ، ماركس والدولة ، سوشاليست رجستر ١٩٦٥ .

١٧ ـ تروتسكي ، الاممية الثالثة بعد لينين .

١٨ ـ دويتشر ، النبي منبوذا ، ص ١٠٣ .

كان لا بد ان ينظر له منها في الغرب المتقدم ، تقول : من هنا كان الشعور بهـــذا «الفشل» اضعف بكثير في روسيا المتخلفة .

وفي المقام الثاني ، كانت التغييرات الايجابية التي حققتها الثورة الستالينية في روسيا هائلة . فتصنيع وتثقيف وتحديث الامبراطورية القيصرية القديمة وتحرير قارة بأكملها من ربقة الجهل والتخلف ، وبكلمة التحويل الذي عرفت به الاشتراكية في روسيا ، جعلت جميعا من الممكن الحفاظ على هدوء الجماهير على الاقل (وذلك امر لا يمكن ان يحققه الارهاب المحض وحده) وفيما بعد تحقيق قبولها بل ودعمها ، مع ان الميزان كان ابان حياة ستالين متقلقلا محفوفا بالمخاطر .

واخيرا ، اعطى ستالين للتحويل « الاشتراكي » في روسيا تعبـــيرا قوميـــا صريحا (١٩) . فبرر الصعود القاسي السريع على انه ضروري لاجتنـــاب محنـــة « روسيا القديمة » ، التي كان البلاشفة من قبل قد شجبوها بوصفهـا مستغـــلا امبرياليا لامم صغيرة ، والتي اصبح ستالين يصورها بأنها كانت « تقهر باستمرار وبسبب تخلفها » من جانب المغول والاتراك والسويديين واليابانيين الخ. واعلـــن ستالين : « اننا خلف الاقطار المتقدمة بخمسين او مائة سنة ، فاما ان نقطع هـــذه الفجوة في عشر سنين ، واما ان يسحقونا » .

وبالفعل ، مع مضي عقد من الزمن على هذا التحذير ، غزت الجيوش النازيـــة روسيا ، ولكن من السخرية ان ستالين لم يكن مستعدا للهجوم الفعلي (٢٠) وانـــه اضعف دفاعات روسيا الى حد مدمر عبر التطهيرات التي قام بها وعلى الاخص في القوات المسلحة . وفي « الحرب الوطنية الكبرى » التي تلت ، عندما سمح ازدهار روسيا التقني حديث العهد لها بصد جيش في ضعف حجم الجيش الذي هزمها في الحرب العالمية الاولى ، رسخ نظام ستالين و « اشتراكيته » التصنيعية جذورهما في الارض الروسية .

ولاسباب مشابهة ، لم تؤد مماثلة « الاشتراكية » بالصعـــود الستالينـــي في ظروف ندرة قصوى الى الضير من المثال الاشتراكي في المناطق المتخلفة على الاطلاق،

---

١٩ ـ بالطبع ، لم يكن ستالين ، بمعنى من المعاني ، يفعل غير اعطاء تعبير مكشوف لنمط قومي كامن في البلشفية منذ البداية . انظر ، كار ، الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد الاول ، ص ٨ وما بعدهـا .

٢٠ ـ قبل الهجوم النازي بأسبوع ، هاجم ستالين السفير البريطاني لنشره «شائعات» عن هجوم توشك المانيا ان تقوم به على روسيا . وعلى الرغم من ان البريطانيين ابلغوا ستالين بالموعد المحـــدد للهجوم الالماني بالضبط ، الا انه فشل في تعبئة قواته الى حد كاف ودفعها الى الحدود . اذ لم يكن يريد استثارة هتلر ودفعه الى نقض حلف الحياد . ونتيجة لذلك ، وايضا نتيجة لهبوط معنويات القوات المدافعة بسبب التطهيرات ، خسر ستالين في الحال كل المنطقة الحاجزة التي كان قد كسبها في حلفه مع هتلر .

بل بالعكس من ذلك كان لها الاثر الكبير في تعزيز هذا المثال . فكما لاحظ توينبي :

« اذا اخذنا بالاعتبار كم كانت سيطرة الغرب على معظم ما عداه من العالم ساحقة خلال المائتين وخمسين عاما السابقة ، تبين لنا عظم العمل الفذ الذي قامت به روسيا الشيوعية اذ قاومت الغرب . وفي الواقع اصبحت ... روسيا مثالا والهاما ... في نظر الآسيويين والافريقيين والهنود الاميركيين المعادين للغرب ... ذلك ان روسيا كانت أول بلد غير غربي يستجمع من الشجاعة ما يمكنه من الوقوف أمام الغرب ومن القدرة على هزيمته في لعبته ذاتها بالسيطرة على الاسلحة الغربية وبذ اصحابها أنفسهم في استعمالها » (٢١) .

وبهذه الطريقة ارتبط التطور القومي للثورة « الاشتراكية » في روسيا مباشرة وبشكل ايجابي بالثورة القومية في العالم المستعمر .

وبالمقابل ، كان للمماثلة بين الاشتراكية والصعود الروسي آثار سلبية عميقة على الحركة الثورية في الغرب الراسمالي المتقدم . فهنا ألحقت المبالغات الستالينية بصدد الانجازات السوفياتية (والاكاذيب بشأن مؤامرات القوى المعارضة الشيوعية) الضير بأولئك الاشتراكيين والشيوعيين الذين رددوها ، بينما زرعت بشاعات الواقع السوفياتي الشك في برنامجهم ومثالهم ، حتى كما كانت بشاعات التصنيع في انجلترا قد زرعت الشك في الراسمالية في نظر الاشتراكيين الاوائل . وفي النهاية فتت مماثلة الستالينية للاشتراكية بجحيم التراكم البدائي السوفياتي في عضد عدد من الاشتراكيين في الغرب أكثر بكثير مما في روسيا ذاتها ، ففيها كان الاضطهاد والفقر محسوسين فعلا ولكن التحويل ترك أعمق أثر فيها كذلك .

غير أن بذور قلب هذه الوجهة في الغرب كامنة في التطور اللاحق للتحويل الذي جرى في الشرق . ذلك أن الستالينية جعلت نفسها ، عبر هذا التحويل ، مفارقة ضمن الاطار الروسي ذاته . ففي حين سيطرت بربرية روسيا البدائية على الطليعة البلشفية ذات التوجه الغربي ، استطاعت البيروقراطية الستالينية ذات التوجه القومي باستبدادها كسر اطار هذا التخلف وحله ، كما استطاعت ان تخلق من التخلف « وعلى جماجم بناته » حضارة حديثة تنتمي الى القرن العشرين . لقد كهربت الستالينية وصنّعت اقتصادا مماتا ، واخرجت جيلا كاملا من الموجيك من ظلام خرافات القرون الوسطى وعبادة الايقونات لتثقفهم وتعلمهم التقنيات الحديثة والفنون الصناعية ومبادىء الثقافة الغربية ، وبذلك دمرت التربة الوحيدة التي يمكن لماركسية بيزنطية مثلها وارهاب طقوسي كذاك الذي فرضته ان ينموا فيها ويزدهرا. وكما لاحظ دويتشر باختصار بارع ، ان امة

« استطاعت بنجاح معالجة مشاكل التقنية الذرية قبل أمم اوروبا الصناعية القديمة بكثير ، ان أمة كهذه لم يعد من الممكن ان تحكمها « الشمس الصاعدة » او ابو الشعب ، وتشدها بخشوع سلسلة كاملة من الطواطم والتعاويذ تنتمي اساسا

---

٢١ ــ ارنولد توينبي ، دراسة للتاريخ ، المجلد ١٢ ، ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧ .

الى مرحلة من المدنية ابكر وادنى » (٢٢) .

ومع تحديث روسيا وتمدينها ، لم تعد نظرية الستالينية البدائية وممارستها تتفق مع غلافها الاجتماعي ، وبالتالي تمزق الغلاف . لكن اصلاح الستالينية بعد ستالين ، رغم كونه بعيد الاثر في النتائج التي تمخض عنها ، لم يصل حد الثورة . فهو ، مثله في ذلك مثل الاصلاحات القيصرية ، قد أتى من فوق كاجراء ناقص ، كتنازل للحفاظ في الحالة التي نحن بصددها على ساطة وامتيازات البيروقراطية الستالينية الحاكمة وقاعدتها في الدولة ـ الحزب . ولذا فانها لم تعد الديمقراطية الى السوفياتات ولم تحي الاستقلال الذاتي للنقابات ولم تحقق الحرية الكاملة للتعبير والانتظام ولم تحدث شقا في البنية المتصلبة للحزب الذي ظل يمسك بزمام السيطرة على الاقتصاد والدولة .

ومع ذلك ، كان هذا التوازن الاجتماعي ـ السياسي الجديد غير مستقر . فكما ان المحيط الروسي لم يعد يتفق مع الستالينية ، كذلك صار أقل قبولا باطراد للحكم البيروقراطي لاقلية متميزة وللتفاوتات الصارخة التي يذود هذا الحكم عنها . فمن جهة ، غدا الوفر الاقتصادي المتزايد يحرم هذا الحكم من أساسه المادي (ذلك انه حيثما كانت ندرة ، لا بد ان تكون اللامساواة وامتيازات الاقلية . وحيثما كانت هناك لا مساواة وامتيازات ، لا بد ان يكون هناك نزوع الى اللامساواة في السلطة لفرض هذه الامتيازات) (٢٣) . ومن جهة أخرى ، بدأت نهاية عزلة روسيا تحرم اوتوقراطية الحزب من دعائمها الايديولوجية ، فقد عزز تدفق الافكار الديمقراطية من الحركات الثورية الاخرى ومن الغرب التيارات الديمقراطية داخل الاتحاد السوفياتي نفسه . وبكلمات أخرى ، شهدت نهاية عهد ستالين تسوية جزئية للتطور بين الغرب والشرق .

غير ان العلاقات الاجتماعية في روسيا قد تخطت بالفعل ، وبمعنى هام جدا ، مثيلتها في الغرب . فبناء اقتصاد مخطط في الاتحاد السوفياتي لم يسمح بالقضاء السريع على التخلف فحسب ، بل سمح كذلك بتقسيم للموارد الاساسية أكثر عقلانية وفائدة اجتماعية مما في الاقطار الراسمالية المتقدمة . هكذا استطاع الروس بالسيطرة على قوى الاقتصاد العمياء تجنب المعاناة الانسانية وتبديد القوة الانسانية الناجمين عن البطالة المزمنة وانخفاض استغلال السعة الاقتصادية المتوافرة اللذين يشكلان مرضا مستوطنا في الانظمة الاقتصادية الرأسمالية . فمثلا يقدر الناتج الذي ضاع عبر هذه المسببات في الولايات المتحدة وحدها بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٦٤ ب ٥٥٠ بليون دولار (٢٤) ، اي اكثر من ضعف الدخل السنوي للعالم المتخلف كله .

---

٢٢ ـ دويتشر ، سخريات التاريخ ، ص ٢١ .

٢٣ ـ انظر مثلا ، تروتسكي ، الثورة المغدورة ، وخاصة الفصل الثالث .

٢٤ ـ ليون كيزلنغ ، تقدم ام فقر . كان كيزلنغ رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين للرئيس ترومان .

أضافة الى ذلك ، حتى عندما يتم استثمار المصادر استثمارا كاملا في الاقطار الرأسمالية المتقدمة ، استخدامها يساء بشكل هائل ، وبالاحرى تضاع من وجهة نظر اجتماعية . هكذا يبلغ الدخل الذي ينفق على الاعلان في الولايات المتحدة قرابة ثلاثة اضعاف موازنات كل مؤسسات التعايم العالي الاميركية مجتمعة (٢٥) . من جهة أخرى ، خصص الاتحاد السوفياتي نسبة مئوية من الناتج القومي تبلغ ضعفي او ثلاثة اضعاف ما تخصصه الولايات المتحدة ، رغم أن الدخل للفرد الواحد في الاتحاد السوفياتي يساوي فقط نصف الدخل الفردي في الولايات المتحدة (٢٦) .

وفي اواسط الستينات ، ورغم اللاعقلانيات الموروثة عن الماضي وتلك التي يفرضها عليه الغرب (مثلا ضرورة برامج التسليح الموهنة) ، بدأ الاتحاد السوفياتي يقترب من القاعدة المادية التي يعتبرها البرنامج الماركسي ضرورية للانتقال الى الاشتراكية . اما كيف ستتقدم عملية التطور السوفياتي والى أي مدى ستتقدم بالاتجاه الاشتراكي الكلاسيكي فلا تزال مسألة عرضة للنقاش حتى بعد مضي عقد من الزمن على بداية الحملة ضد الستالينية . فطالما ظل احتكار السلطة (لا من قبل الحزب فحسب ، بل من قبل جزء صغير منه) (٢٧) غير معرض للتحدي ، تظل مسألة ما اذا كان حكم الشرعية المتميزة يستطيع البقاء مع هذا الاحتكار مسألة لم تتم الاجابة عليها ولم يسبر غورها (٢٨) . والآن ، وبعد مضي نصف قرن على أكتوبر البلشفي لا يزال الطريق الى الاشتراكية في روسيا هو ذاته الطريق عبر الثورة الديمقراطية التي اشار لينين اليها عام ١٩٠٥ .

لكن هناك علاقة تبدو واضحة . لقد أدى ادخال قدر من الليبرالية في روسيا الى انبعاث أولي ليسار اشتراكي متقدم في ألدول الغربية الرأسمالية . وكل تقدم في عملية القضاء على الستالينية ، كل خطوة نحو بعث اليسار السوفياتي (والكتلة السوفياتية) ، كل خطوة نحو تطور اشتراكي حقيقي في الاتحاد السوفياتي (ودول الكتلة الاخرى) ستؤدي الى تدفق الحافز الثوري مرة أخرى من الشرق الى الغرب.

---

٢٥ ـ راس المال الاحتكاري ، ص ٣٠٧-٣٠٨ . الارقام مأخوذة من تقارير مختلفة للكونغرس الاميركي. اذا احتسبت نفقات الدعاية مع نفقات الترويج من كل نوع ، مثل التغييرات السنوية في موديلات السيارات ، فان المجموع يساوي الانفاق على التعليم في كل مراحله .

٢٦ ـ المصدر ذاته .

٢٧ ـ استحدثت قاعدة حظر الاجنحة كاجراء مؤقت في وضع خطير في نهاية الحرب الاهلية (انظر كار ، الثورة البلشفية ، المجلد الاول ، ص ٢٥٠ وما بعدها) . ولكنها ابقيت ، ككثير غيرها من الاجراءات المؤقتة ، لتخدم اغراضا اخرى ، ولا تزال مطبقة في معظم الاحزاب الشيوعية .

٢٨ ـ «في المجتمع السوفياتي ، ليس هناك من آلية اقتصادية اوتوماتيكية تبقي الجماهير خاضعة، بل القوة السياسية المحضة هي التي تفعل . صحيح ان البيروقراطية تستمد جزءاً من قوتها من الموقع المسيطر الذي تحتله في الاقتصاد ، ولكنها لا تحتفظ بهذا الموقع ذاته الا بالقوة السياسية. وهي بدون تلك القوة لا تستطيع الحفاظ على سيادتها الاجتماعية ، وأي شكل من اشكال الرقابة الديمقراطية يحرمها من هذه القوة» اسحق دويتشر ، الثورة الناقصة .

القسم الرابع

التعايش والثورة

- ٩ -

روسيا والكومنترن والغرب

« لن تصبح الحروب مستحيلة الا بعد أن نطيح ببورجوازية العالم كلـه ، وليس فقط بورجوازية بلد واحد ، ونهزمها وننتزع ملكيتهـا » .

لينين ، ١٩١٧

منذ البداية ، امتد تأثير الثورة الروسية ونفوذها أبعد بكثير من حدودها في بلد واحد ، ولم يقتصر هذا التأثير على دور الثورة كنموذج لتحتذيه الحركات الثوريـة الاخرى . ذلك ان امتلاك القادة الروس لسلطة دولة اضاف بعدا آخر لنشاطاتـهم التي ذهبت أبعد من مجرد قدرتهم على التأثير بالقدوة. وبالاضافة الى ذلك، فرضت « أهمية الثورة كدولة » (١) ضرورياتها ومسؤولياتها على الكرملين داخليا وخارجيا، ومارست كذلك تأثيرا مماثلا (محافظا بشكل عام) على سيـاسـات ونظرة النظـام الثـوري .

كثيرا ما صورت السياسة الخارجية السوفياتية ، رغم تعقيدها أو ربما بسبب هذا التعقيد ، بطريقة وحيدة الجانب وغير مرضية . هكذا رأى الكثيرون في نظـام ستالين المحرض والملهم لكل الانتفاضات في الاقطار الاخرى ، بينما أنبـه البعـض

---

١ ــ استخدم هذا الاصطلاح ستيكلوف ، محرر ازفستيا ، في مقالة افتتاحية اشارت الى امكانية تلقي دعم من اميركا بسبب من تنافسها مع الامبريالية الالمانية واليابانية . وقد ظهرت هذه المقالةفي ١٥ اذار ١٩١٨ . ورد في كار : الثورة البلشفية ، المجلد الثالث ، ص ٧٩ .

وشجبوه في الوقت ذاته بوصفه الممثل المحافظ للمصالح السوفياتية القومية وحفار قبر الثورة العالمية . غير ان الواقع ليس وحيد الجانب بهذا الشكل ، وكي نلتقط ديناميته يتوجب علينا ان نفهم شكل الصراع العالمي في عهد ما بعد اكتوبر .

كما ان الماركسية الكلاسيكية اعتبرت ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تقوم الا على أساس قوى انتاجية بالغة التطور ، كذلك راى البلاشفة الاوائل في الثورة الروسية شرارة الثورة العالمية وليس مركزها . فكتب لينين في عام ١٩١٧ يقول :

«ان شرفا عظيما قد وقع على عاتق البروليتاريا الروسية ، ذلك هو شرف بدء سلسلة من الثورات جعلتها الحرب الامبريالية حتمية موضوعية . لكن فكرة ان البروليتاريا الروسيةهيالبروليتاريا الثوريةالمختارةمنبينعمالالعالمغريبةعنا تماما».

واضاف انه بسبب من تخلف روسيا « لا تستطيع البروليتاريا الروسية وحيدة حمل الثورة الاشتراكية الى نهايتها المنتصرة » . لكن الاندفاع الثوري لفلاحي روسيا « يمكن ، اذا حكمنا على الامور بتجربة عام ١٩٠٥ ، ان يعطي دفعا هائلا للثورة البورجوازية الديمقراطية في روسيا ويمكن ان يجعل ثورتنا مقدمة للثورة الاشتراكية العالمية وخطوة نحوها » (٢) .

وكتب تروتسكي بعد ذلك بعقد من الزمن مدافعا عن هذه الافكار ضد عقيدة « الاشتراكية في بلد واحد » : « ان الاهمية الضخمة للاتحاد السوفياتي تكمن في كونه قاعدة الثورة العالمية وليس في الادعاء بأنه قادر على بناء الاشتراكية باستقلال عن الثورة العالمية » (٣) . وكان لينين قد اعلن في شباط ١٩٢١ : « لقد اوضحنا للعمال دائما وباستمرار ان المهمة الرئيسية والشرط الاساسي لانتصارنا هو نشر الثورة الى عدد من الاقطار الاكثر تقدما على الاقل » . وطبقا لهذا المنظور ، كان البلاشفة قد شكلوا قبل ذلك بسنتين « أممية الاحزاب الشيوعية الثورية » (الكومنترن) . وتمسكت الاممية ببرنامجها الثوري عدة سنوات بعد تأسيسها وخاصة في فترة التدخل الرأسمالي المكشوف في روسيا . لكن منظور الكرملين بصدد الاممية تغير تغيرا حاسما مع فشل التدخل وكذلك فشل الثورة الاوروبية المأمولة وعقب موجة من الاعترافات الرسمية بالنظام الجديد من جانب الدول الرأسمالية (٤) . فنقل المشروع الثوري في روسيا من محيط دائرة الثورة العالمية الى مركزها . وبدلا من ان يعتبر القادة الروس تطورهم الاجتماعي معتمدا على تقدم الثورات الاجنبية ، تبنوا وجهة نظر تقضي بأن على الثورات الاشتراكية الاخرى ان تنتظر تطورهم . ولم تعد المهمة الاولية للكومنترن في نظرهم حفز ومساعدة ثورات جديدة عالميا(تلك الثورات التي أصبح يقال انها غير مأمولة وانها تزعج علاقات روسيا

---

٢ ـ لينين ، رسالة وداع الى العمال السويسريين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٣ .

٣ ـ تروتسكي ، الاممية الثالثة بعد لينين ، ص ٦٣ .

٤ ـ في اعوام ١٩٢٣ و١٩٢٤ و١٩٢٥ منحت ايطاليا وبريطانيا وعدد من الدول الاخرى اعترافها ، ووقعت عدة معاهدات تجارية ، وكان هناك انفراج عام في العلاقات بين روسيا والغرب .

المفيدة مع الدول الرأسمالية) (٥) بل الدفاع عن الثورة الروسية . هكذا أصبح هدف سياسة الكومنترن احداث ضغط على الطبقات الحاكمة في الاقطار الراسمالية لتتعايش مع الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وليس تشجيع استيلاء الشيوعيين على السلطة في هذه البلدان .

وبهذه الطريقة ، غدت عقيدة « الاشتراكية في بلد واحد » تمثل عكسا مباشرا للمنظور اللينيني بشأن الكومنترن والاممية الثورية . وبالطبع لم يكن باستطاعة الحزب الروسي ولا ألكومنترن الذي تسيطر عليه روسيا التخلي علنا عن برنامج اصولهما وماضيهما القريب وافكاره الثورية . ولكن اذا كانت اشكال العقيدة الشيوعية قد حوفظ عليها الى هذا الحد أو ذاك برهة من الزمن ، فان محتواها العملي كان في اواسط العشرينات قد تعرض لتحول حاسم .

كان أول تعبير عن هذا التغير هو الاستراتيجية التي شجع الكومنترن عليها في الثورة الصينية من عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٢٧ . كان تخلف المجتمع الصيني شبه ــ الاقطاعي ــ شبه ــ الراسمالي ، الذي اثبتت ثورته البورجوازية الديمقراطية ضعفها وعدم قدرتها على حل مسائل التطور القومي والديمقراطي الملحة ، يشير الى صلة قربى وثيقة مع المنظور البلشفي الكلاسيكي . ومع ذلك فرض الكومنترن على الثورة الصينية استراتيجية معاكسة تماما أدت الى نتائج مهلكة . فقد أعلن الكومنترن ان الثورة الصينية ليست ، بسبب من تخلف محيطها ، « ناضجة » لاستيلاء اشتراكي على السلطة وانها لذلك ستنحصر تماما ضمن المرحلة البورجوازية ــ الديمقراطية . وبالتالي عزا للبورجوازية الصينية ألدور القيادي في النضال ضد الاقطاع وضد الامبريالية ــ بعكس جوهر موقف لينين في روسيا ــ (٦) وامر الشيوعيين الذين كانوا قد انضموا الى الكومنتانغ بالخضوع لانضباطه الحزبي .

وعلى الرغم من ان الكومنتانغ كان حزبا بورجوازيا ــ قوميا (٧) ، الا انه سمح

---

٥ ــ حدث في تلك الفترة حادث بالغ الاهمية والدلالة يتعلق بـ «انذار كيرزون» الذي شكا من نشاطات الكومنترن وهدد بنقض الاتفاقية التجارية التي عقدت عام ١٩٢١ . فقد خضعت الحكومة السوفياتية المضعفة لهذا الضغط والزمت نفسها بأن «لا تساعد بالاموال او بأي شكل آخر الاشخاص او المؤسسات او الهيئات التي تهدف الى نشر الاستياء او تثير القلاقل في اي جزء من اجزاء الامبراطورية البريطانية» . وأعطي هذا الوعد في حزيران عام ١٩٢٣ .

٦ ــ «ثورتنا ثورة بورجوازية ، ويجب على العمال ان يدعموا البورجوازية ــ هذا ما يقوله سياسيو معسكر التصفويين الذين لا يساوون شيئا . اما نحن الماركسيين فنقول ان ثورتنا ثورة بورجوازية . ويجب على العمال ان يفتحوا اعين الشعب على خداع البورجوازية ، ويعلموه الا يثق بالوعود وان يعتمد على قواه الذاتية وتنظيمه الذاتي ووحدته الذاتية واسلحته وحدها» . لينين ، ورد في «الاممية الثالثة بعد لينين» ، ص ١٧٩ .

٧ ــ اي من حيث برنامجه . اما تركيبه فقد كان يعكس التطور المتأخر والمركب للثورة ، اذ تشكل من ملاك الارض والجنرالات وكذلك من عناصر بورجوازية .

له بأن يمثّل في الاممية الشيوعية بحقوق عضو مشارك، بينما منح شيان كاي شيك مقعدا فخريا في اللجنة التنفيذية للكومنترن .

كان يمكن في الحال ، ضمن اطار النظرية الماركسية في الثورة البورجوازية المتأخرة ، التنبؤ بالعقدة المأسوية التي أدت اليها هذه الاستراتيجية . اذ وجد قادة الكومنتانغ من البورجوازيين وملاك الارض انفسهم بين حجري رحى ثورتين (وتحت ضغط من القوى الامبريالية) ، فسارعوا الى التحرك لكبح القوى التي كانت تدفع بالاحداث أبعد من المرحلة البورجوازية ـ الديمقراطية (وأبعد من سيطرة قادة الكومنتانغ) . وكان على راس هذه القوى الطبقة العاملة المدينية تدعمها ، كما في روسيا ، عاصفة الثورة الفلاحية التي بدات تلوح في الافق .

ووصل الصدام بين الثورتين البورجوازية والاشتراكية أوجه في عام ١٩٢٧ ، عندما هب عمال شنغهاي للسيطرة على المدينة. فعندما ظهر جيش شيان كاي شيك الذي دربه الكرملين على مسرح الاحداث ، عمد القادة الشيوعيون ، بدلا من الدفاع عن مواقعهم ، الى استخدام نفوذهم (طبقا لاوامر الكرملين) لنزع سلاح العمال محافظة منهم على « التحالف المعادي للامبريالية » مع الكومنتانغ . وعندما تم نزع سلاح العمال بهذه الطريقة ، تقدم جيش شيان كاي شيك ليذبح عشرات الآلاف بمن فيهم القادة الشيوعيين سيئي الحظ . وقد امتد تطهير الكومنتانغ للشيوعيين أبعد من احداث شنغهاي (بلغت حصيلة الاعدامات السياسية مئات الآلاف حتى عام ١٩٣١) ، كما استمرت المحاولات العقيمة ، بتوجيه من الكرملين ، للتعاون مع شيان كاي شيك بالمساعدة على احتواء اندفاع الجماهير الصينية الى اليسار (٨) . وفي النهاية استغرقت الشيوعية الصينية عدة سنوات لتستعيد قوتها بعد هذه الضربات الساحقة (ولم تستعدها اطلاقا في المدن) . وعندما عاد الحزب في النهاية الى البروز ثانية كقوة تحت قيادة ماوتسي تونغ ، فانه ما فعل الا لتخليه عن نصيحة الكومنترن ، التي ظلت اساسا على ما هي عليه وان تكن صقلت وعدلت (٩) ، ولاكتشافه من جديد وبالعلاقة مع ظروفه هو النظرية البلشفية في الثورة الدائمة (١٠) .

---

٨ ـ كان سير الاحداث بالنسبة للثورة الزراعية شبيها في مأسويته بثورة الطبقة العاملة المدينية ، وذلك لان «معظم ضباط جيش الكومنتانغ كانوا من نبلاء الارض» (براندت) . انظر ايزاكس ، مأساة الثورة الصينية ، الفصل الثالث عشر. وكذلك براندت ، فشل ستالين في الصين، الفصل الخامس.

٩ ـ اتخذ جزء من هذا التعديل شكل سياسة «فوق يسارية» انتحارية ، كانت ثمراتها انتفاضات فاشلة والمزيد من المذابح .

١٠ ـ كان الصراع حول السياسة المتعلقة بالصين آخر صدام كبير بين ستالين وتروتسكي قبل ان يطرد تروتسكي من الحزب وينفى . انظر ، دويتشر ، النبي اعزلا ، ص ٣١٦ وما بعدها . كما لاحظنا سابقا ، سعت النسخة الماوية للثورة الدائمة الى ايجاد قاعدتها بين فلاحي الريف بدلا من بروليتاريي المدن . ولكنها كانت في نظرتها الى السلطة البورجوازية وضرورة الاعتماد على الذات متفقة مع توجهات لينين وتروتسكي وبالتالي على طرف نقيض مع توجهات ستالين .

بالطبع يكمن الاساس المباشر لسياسات الكرملين قصيرة النظر بالنسبة للصين في العزلة الداخلية والخارجية للنظام الروسي ، وكذلك في تبني بيروقراطية الحزب لمنظور يتمحور حول الدولة . فقد طرح قادة الكرملين جانبا احتمال نجاح الثورة في الصين (وظل هذا الشك قائما حتى نهاية عام ١٩٤٨) ، وسيطرت على نظرتهم مصالح أمن الدولة الروسية المباشرة ، مما ادى بهم بسرعة الى اخضاع المبدأ الثوري لمصلحة الدولة . ففدت الضرورات الاولية، في تصورهم البيروقراطي ، التعايش مع القوة القائمة ، التي مثلها في الصين الكومنتانغ ، وتجنب مخاطر تدخل رأسمالي اجنبي محتوم اذا استولى الشيوعيون بالفعل على السلطة .

تمكن بسهولة رؤية ان هذه الاعتبارات تنطبق على أية ثورة شيوعية بشكل عام. فطالما ظلت اولويات الكرملين على ما هي عليه . ظت نظرة قادته واستراتيجيتهم هي ذاتها ايضا . غير اننا كي نستطيع فهم التغيرات في سياسة الكومنترن بعد لينين فهما كاملا ، يتعين علينا ان نبقي في الذهن علاقات الكومنترن بالاممية الثانية التي انبثق الكومنترن عنها بالتدريج .

كان التمرد اللينيني على الاممية الثانية تمردا على توجهاتها الاصلاحية والقومية (« الاشتراكية ــ الوطنية ») ، وخاصة فشلها في معارضة الحرب العالمية او تحويل ذاك الصدام الى نضال من اجل السلطة البروليتارية . ففي روسيا التزم ممثلو الاممية الثانية من المناشفة التزاما كاملا باستراتيجياتها الاصلاحية والقومية ، فدعموا الحرب باعتبارها حربا « دفاعية » ضد المانيا ، كما دعموا الحكومة البورجوازية المؤقتة « الثورية » . فكانت موضوعات لينين في نيسان ، التي عارضت الحرب وانشقت عن الحكومة وطرحت برنامجا اشتراكيا يتخطى الثورة البورجوازية،هي التي رسمت الحد الفاصل بين التوجه الاصلاحي ــ القومي للاممية الثانية والتوجه الثوري ــ الاممي لخليفتها التي لم تولد بعد .

لقد رأينا فيما سبق أن القومية ليس لها محتوى اجتماعي محدد ، اذ يمكنها ان تكون اطارا للشوفينية الاستعمارية او لتقرير المصير الثوري . ويمكن ان يرى بسهولة ان لها محتوى غير محدد كذلك بالنسبة للصراع الثوري داخل الامم ، فانحيازها (مضاد للثورة ، ثوري ، اصلاحي) يتحدد بفعل عوامل اجتماعية اخرى، وعلى الاخص ميزان القوى الطبقية . ولكن في حالة الاممية الثانية كانت ظاهرة القومية مرتبطة ارتباطا وثيقا لا انفصام له بظاهرة الاصلاحية .

أعلن « البيان الشيوعي » في جملة شهيرة أن « العامل لا وطن له » . والفكرة التي تكمن خلف هذه الجملة هي ان اولئك الذين يفتقرون الى الملكية يفتقرون كذلك الى الحقوق البورجوازية والتمثيل البورجوازي ، ولذا فهم « خارج » المجتمع البورجوازي ، ومن هنا ليست لهم أية مصلحة في « الامة » البورجوازية . اما اعلان البيان ان العمال « ليس لديهم ما يخسرون » ، فانه يعبر فحسب عن الجانب الثوري للنمط الاجتماعي ذاته .

اما الآن فقد اكتسب العمال والطبقات الدنيا احساسا بهويتهم ومصلحة في الامة البورجوازية ، بالقدر الذي استطاعت به الرأسمالية خلال تطورها دمجهم

بشكل عام في المجتمع البورجوازي والسياسة البورجوازية ـ اي اعطاءهم شيئا يخسرونه الى جانب قيودهم . ومن هنا ، يصبح مفهوما لماذا لاقت النداءات اللينينية للثورة خلال الحرب العالمية الاولى (أي خيانة الدولة القومية) آذانا صماء في الغرب، حيث استطاعت اكبر منظمات الطبقة العاملة واكثرها قوة ان تكسب للعمال التمثيل الانتخابي واجورا اعلى وحماية قانونية وفوائد أجتماعية . كذلك ليس من الغريب ان يستجاب للنداء البلشفي ، استجابة صنعت حقبة تاريخية ، في روسيا المتخلفة حيث كان العمال والفلاحون يشكلون طبقتين تقيدهما « قيود جذرية » ، طبقتين في المجتمع المدني ولا تنتميان الى المجتمع المدني وبالتالي طبقتين لم يكن الدفاع عن القيصر وارض الوطن يعنيهما في شيء .

هكذا ادى التوجه ذو الطابع الاصلاحي في الاساس للاممية الثانية مباشرة الى الانحراف القومي والانهيار الاخلاقي عام ١٩١٤ ، حين جرى تمويه عدم الرغبة في الانشقاق عن المجتمع البورجوازي واعتبر وطنية ودفاعا عن أرض الوطن ضد القيصرية الروسية والرجعية . لم تنبثق الاممية الثالثة مباشرة عن الانهيار الاخلاقي والايديولوجي للاممية الثانية ، بل عن الثورة البلشفية اللاحقة في روسيا . غير أن المسائل المطروحة لم تكن مختلفة ، وفي الممارسة ثم الاستقطاب بالعلاقة مع حدث تاريخي ملموس .

فقد هاجمت الاممية الثانية السياسات الثورية للبلاشفة المنتصرين ، وفي الواقع انضمت الى قوى الثورة المضادة عالميا . ولذا كان نداء لينين لتأسيس أممية ثالثة ، وبالقدر ذاته ، نداء للتضامن مع النظام السوفياتي القائم وتأكيدا لسبيله الثوري المحدد الى السلطة . ولذا اعتبرت احزاب الاممية الثالثة الجديدة نفسها احزابا ثورية لا بشكل مجرد بل بالدفاع الملموس عن الثورة البلشفية ومسيرتها الثورية الملموسة ، وكذلك (بشكل أقل قابلية للتبرير) باستعدادها لتبني اشكال بلشفية محددة في تنظيماتها الحزبية . هكذا ومنذ البداية ، كانت الاممية الشيوعية أممية من نوع خاص ، تعبر عن التضامن مع **تعبير قومي مخصوص** عن الثورة العالمية .

وبالاضافة الى ذلك لم تؤد التطورات التاريخية الى التقليل من هذا التأكيد القومي في الاممية الشيوعية بل أدت الى تكثيفه . فقد ظلت الثورة الروسية سنوات عديدة جزيرة وعد « اشتراكي » فريدة في خضم بحر من الرجعية الراسمالية والاقطاعية . اما في داخل روسيا ، فقد أدت العزلة الى صعود القيادة الستالينية بتوجهها القومي والبيروقراطي الحاد . فأدى تضافر هذه العوامل الى توجه اصلاحي في احزاب الكومنترن المختلفة . اذ عملت هذه الاحزاب ضمن المرحلة البورجوازية للثورة بدلا من دفعها الى المرحلة الاشتراكية ، ودعمت البورجوازية الوطنية متبنية بذلك موقفا اصلاحيا تجاه السلطة البورجوازية والوضع الراهن الراسمالي . وكانت هذه جميعا اوجها مختلفة لغرض واحد اساسي هو تفادي الصدام بين نظام الدولة البورجوازي وبين الاشتراكية في بلد واحد . وبالتالي كان لا بد أن يؤدي التأكيد الاولي على التعايش الخارجي مع الدول البورجوازية الى سياسة تعايش بين الطبقات

الاجتماعية ضمن الدول . ومن هنا نجمت عن أممية الكومنترن المتمحورة حول أمة واحدة (روسيا) اصلاحية لا تختلف عن اصلاحية الاممية الثانية . لكن الشيوعية ، بسبب من اقترانها الذي لم يكن منه مفر مع الثورة الروسية وكذلك بسبب تفاوت مستويات التطور العالمي ، ظلت على النطاق العالمي اصلاحية غامضة في افقها ، وكذلك على صعيد الامكان ، كما أثبتت الثورتان الصينية والفيتنامية فيما بعد .

كان الاستثناء الرئيسي الواضح لنهج الاممية الثالثة الاصلاحي هو السياسة فوق ـ اليسارية التي تبناها مجلس الكومنترن عام ١٩٢٨ ، عندما أدى توقع قيام ثورة وشيكة وهجوم نهائي على النظام الامبريالي الى تغير جذري في تاكتيكات وبرامج الحزب الشيوعي . وفي الواقع ، ما كان هذا الاستثناء ، بالقدر الذي كان به استثناء بالفعل (١١) ، غير تأكيد للتوجه العام الاساسي لاحزاب الكومنترن : اذ انه لم يكن غير تعبير آخر عن امميتها المقلوبة وسيطرة التطور المحلي للثورة الروسية على المنظور الاممي لهذه الاحزاب .

ذلك أن الانعطاف المؤقت الحاد في استراتيجية الكومنترن لم يكن ناجما عن اي تغير مماثل في ميزان القوى الطبقية داخل النظام الراسمالي (١٢) ، بل كان نتيجة للانعطاف اليساري البيروقراطي الحاد في الاتحاد السوفياتي، وعلى الاخص الصراع مع جناح بوخارين داخل الحزب الروسي (١٣) والتجميع وحملة التصفية ضد الكولاك الروس . فقد انعكس الانهاء المفاجيء للتعايش بين القطاعات والطبقات الداخلية في الاقتصاد السوفياتي على هيئة انهاء مفاجيء كذلك لتوقع الاممية ان تستمر فترة « التعايش السلمي » مع القوى الراسمالية مدة خمسة عشر الى عشرين عاما . كما انعكس أيضا في تحول الكومنترن عن سياسة محاولة التقارب مع احزاب الاممية الثانية الى الهجوم على هذه الاحزاب بوصفها تشكل « الخطر الرئيسي » .

وبينما كان الانعطاف الحاد في السياسة الروسية نتيجة لوضع اجتماعي داخلي

---

١١ ـ مثلا ، في الحرب الاهلية الاسبانية خلال هذه الفترة ، قرن الشيوعيون التاكتيكات فوق ـ اليسارية (بما في ذلك رفض مطالب الحريات الديمقراطية ونعت كل الاحزاب البورجوازية والاصلاحية بانها «فاشية») بمنظور استراتيجي يقضي بالبقاء ضمن الحدود البورجوازية ـ الديمقراطية للثورة. هيو توماس ، الحرب الاهلية الاسبانية ، ص ١٠٦ وما بعدها . وكذلك دويتشر ، النبي منبوذا ، ص ١٦٠ .

١٢ ـ على الرغم من ان الازمة الاقتصادية الحادة التي تنبأ بها الكومنترن عام ١٩٢٨ اتت في السنة اللاحقة .

١٣ ـ كان البوخاريون الممثلين الرئيسيين لخط تطوري بصدد تطور الاقتصاد الروسي . وكانوا كذلك قد سيطروا على الاممية وصاغوا خطها في التعايش السلمي مع القوى الراسمالية والطبقات الحاكمة البورجوازية . وعندما انتقل صراع ستالين مع هذا الجناح الى الكومنترن ، اتخذ الصراع لاسباب تاكتيكية شكل صراع مع هذا الخط .

مستقطب بحدة ، لم يعكس الانعطاف في خط الاحزاب الشيوعية العالمية أي ظرف واقعي مشابه وجرى في نطاق اجتماعي مختلف تماما . فلم يفعل التصلب الجديد الفائق للاحزاب الشيوعية شيئا غير تعرية ضعفها وزيادة حدة عزلتها الواضحة ، بينما أدى مباشرة في اكثر الاقطار اهمية ـ المانيا ـ الى هزيمة مأسوية .

كانت الطبقة العاملة في المانيا، وهي التي مثلت القوة الرئيسية المعادية للفاشية، قد أوهنت قواها خلال السنوات التي سبقت استيلاء النازية على السلطة بفعل التعادي بين الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين ورفض الطرفين انشاء جبهة موحدة معادية للفاشية . وقد سبق الانشقاق بين الطرفين سياسات الكومنترن فوق اليسارية . لكن اعتبار الاصلاحيين « فاشيين اجتماعيين » (وكلما كانوا الى اليسار اكثر ، كان خطرهم اكبر) والنظر اليهم على انهم لا يمثلون بديلا حقيقيا لهتلر ، ساهم في تعميق الشقاق . اما الاشتراكيون الديمقراطيون فقد ردوا بالعداء من جانبهم ، فمثلا في كانون الثاني ١٩٣٣ ، وقبل صعود هتلر الى السلطة ببضعة ايام فقط، كتب منظر الاشتراكيين الديمقراطيين الرئيسي ـهيلفردينغـ في احدى صحف الحزب يقول ان الهدف الاول للاشتراكيين هو محاربة الشيوعية (١٤) . وقد مكن التشوش الناجم عن هذا كله في صفوف حركة الطبقة العاملة النازيين من سحقها وقهرها دون مقاومة عمليا . ولم يكن انهيار المعارضة المعادية للنازية عاملا قليل الاهمية في تشكيل الطابع التوتاليتاري لعهد هتلر .

وبعد ذلك بعامين ، أي في عام ١٩٣٥ ، وعندما انتهى التجميع في روسيا وتمت الخطة الخمسية الاولى وبدات موسكو تسعى الى اقامة تحالفات دفاعية مع الحكومات الغربية ضد الخطر النازي ، اجتمع الكومنترن ثانية وعكس السياسة التي كانت سائدة في الفترة السابقة . واصبح الدفاع عن الديمقراطية صيحة الساعة ، والجبهات الشعبية مع الليبراليين أداة هذا الدفاع . وخلال السنوات الاربع اللاحقة ، شكل الاتحاد السوفياتي والكومنترن العمود الفقري للنضال ضد الفاشية في اوروبا ، وكان لهم الدور ذاته في النضال ضد الاحتلال النازي فيما بعد . فكان ان شهدت تلك الفترة اتساعا هائلا في الاحزاب الشيوعية في الغرب وارتفعت منزلة الشيوعية الروسية في هذه البلدان أيما ارتفاع . وكانت تلك هي النقطة التي غرست عندها الاحزاب الشيوعية ، التي غدت جماهيرية ، جذورها في التربة الاجتماعية ذاتها التي كان الاشتراكيون الديمقراطيون من قبل قد غرسوا جذورهم فيها . وبذلك وضعت هذه الاحزاب أسس تطورها بعد الحرب الى احزاب اصلاحية في طابعها كما في اتجاهها .

كان تاكتيك الجبهة الشعبية ، مثله في ذلك مثل السياسة السابقة ، خاضعا تماما للمصالح الضيقة للدولة السوفياتية . فنجم عن ذلك أن المناورات الانتهازية للقيادة السوفياتية كانت تضعف الجبهة وتلحق بها الضير باستمرار . ولربما كانت

---

١٤ ـ ورد في نيومان ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

هذه الانتهازية قد وصلت أوجها مع توقيع الحلف السوفياتي ـ النازي ، عندما اجبرت موسكو الاممية واحزابها على التخلي عن النضال ضد الفاشية . وقد كان لهذا التخلي ، وان يكن مؤقتا ، آثار معنوية رهيبة .

لم يسع الاتحاد السوفياتي خلال فترة الجبهة الشعبية الى التعايش مع القوى الراسمالية الديمقراطية فحسب ، بل سعى كذلك الى الدخول في حلف عسكري دفاعي معها ضد الخطر الفاشي . ولكن ومهما كان الموقف الذي اتخذه الكومنترن اصلاحيا ومعتدلا ، فقد وجد الاتحاد السوفياتي نفسه غير قادر على تهدئة المخاوف والاحقاد التي اثارها مجرد وجود قوى الاممية في قلوب الطبقات الراسمالية الحاكمة ، خاصة في وقت كان النظام الذي تسيطر عليه هذه الطبقات يعاني أزمة عميقة شاملة معقدة . ونتيجة لذلك تجلت التناقضات الجذرية للسياسة السوفياتية ـ بين الطابع الطبقي لنظام الكومنترن والتوجه القومي لبيروقراطية الكرملين ؛ بين التعايش والثورة ـ في كل حدث ، ولكنها لم تفعل ذلك بشكل أكثر مأسوية واهمية مما في الحرب الاهلية الاسبانية .

ففي عام ١٩٣١ ، قامت في اسبانيا ثورة بورجوازية متأخرة اطاحت بالملكية . وتبع ذلك مازق فشلت فيه عدة حكومات بورجوازية في احتواء زخم الثورة ، أو من جهة اخرى دفعها الى الامام . وكانت قوى المستقبل الاشتراكية ، كما في روسيا ١٩١٧ ، واضحة في المرحلة البورجوازية ، ووجدت هذه القوى ابلغ تعبير عنها في « اكتوبر » الاسباني عام ١٩٣٤ الذي تتوج بانتفاض عمال مناجم استوريا . وفي عام ١٩٣٦ ، اكتسحت جبهة شعبية امتدت من الشيوعيين الى الليبراليين الانتخابات ، لتجد نفسها في الحال في مواجهة تمرد عسكري فاشي يدعمه تدخل ايطالي ، وفيما بعد الالماني . فكان من افتقار الحكومة البورجوازية الى الحزم في وجه هذا التهديد الماثل من اليمين ـ عزوفها عن تسليح الشعب ـ ان وجدت نفسها في وجه خطر لم ينقذها منه غير الانتفاض العفوي للطبقة العاملة المدينية ، التي بدات مجالسها والميليشيا التابعة لها تذكر بسرعة «بالسلطة المزدوجة» عام ١٩١٧ . وفي الحرب الاهلية التي تبعت ذلك ناضل الشيوعيون لا لتنتقل السلطة الى منظمات الطبقة العاملة ، كما فعل البلاشفة من قبل ، بل لتثبيت سلطة الحكومة البورجوازية المركزية . لم يسعوا الى دفع الثورة الى الامام ، بل سعوا الى كبحها بصرامة ضمن الحدود البورجوازية .

ومع تقديم روسيا للعون الى اسبانيا الجمهورية وتزايد نفوذ الشيوعيين في الحكومة ، تعاظمت الكوابح على التحول الاجتماعي الذي كان قد قطع شوطا متقدما. فقد كان اقصاء الاشتراكيين اليساريين عن الادارة شرطا مسبقا للعون السوفياتي . ثم حلت مجالس العمال والفلاحين والميليشيا (١٥) واوقفت سيطرة العمال على

---

١٥ ـ كان لحل الميليشيا تبرير عسكري معقول (انظر توماس ، المصدر السابق ، ص ٣٤٠ الخ) . لكن نتائجه السياسية لم يكن ممكنا فصلها عن الآثار العسكرية ، ولا كان يراد لها ان تكون كذلك . (مثلا توماس ، ص ٤٥٨) .

الصناعات وتم احتواء الانتفاضة الزراعية . وبالاضافة الى ذلك ، وجزئيا كرد فعل للتطهيرات في روسيا ذاتها ، ارسل عملاء ستالين من افراد«ادارة الدولة السياسية» ليخترقوا صفوف احزاب اليسار ويغتالوا كثيرين من قادة الطبقة العاملة غير المحبذين للخط الشيوعي .

كان غرض ستالين من وراء هذه المناورات ، التي شقت اليسار الاسباني وفتت في عضده واضعفت مقاومته الى حد قاتل ، تجنب استعداء الحكومات البورجوازية الغربية ، وخاصة بريطانيا وفرنسا اللتين كان ستالين اذ ذاك يسعى الى الوصول الى اتفاقات أمن جماعية معهما . فقد كان ستالين يأمل أن يحصل على دعم القوى الراسمالية ضد العدو المشترك باجبار الثورة الاسبانية على البقاء ضمن القالب البورجوازي تماما وحماية المستثمرين المحليين والاجانب وتصوير الصراع على انه صراع بين الفاشية والديمقراطية فحسب .

لكن الممارسة برهنت انه لا يمكن افراغ المسألة الطبقية من الصدام الاسباني ولا فصل الصراع الاسباني عن الصراع الطبقي في باقي اوروبا حيث كانت الاضرابات والتظاهرات الجماهيرية تشكل ، رغم اعتدال الشيوعيين ، خطرا قاتلا في نظر العناصر الاجتماعية المالكة. وعندما واجهت الطبقتان الحاكمتان البريطانية والفرنسية خيارا بين انتصار العقب الحديدي للفاشية في اسبانيا وبين حمل الجماهير الاسبانية المفتقرة للسلاح ، لم يساورهما اي شك في اي الجانبين تفرض عليهما مصالحهما ان تختارا (وفي فرنسا استطاعت الطبقة المالكة ان تجرف معها الاشتراكيين الديمقراطيين الحاكمين) . لقد قررت الديمقراطيات الراسمالية الغربية مصير اسبانيا الجمهورية وفتحت الباب امام الحرب العالمية الثانية (١٦) ، باسم الحفاظ على السلام الاوروبي والالتزام بمبدأ عدم التدخل (ذلك المبدأ الذي لم يكن يوما ما يقف عائقا في وجه عدوانها الامبريالي والذي كانت القوى الفاشية قد خرقته بالفعل) .

---

١٦ ـ «لقد قررت السياسة البريطانية والفرنسية .. نتيجة الحرب الاهلية الاسبانية . لقد كان للجمهورية مصادر اكبر وقدر اكبر من الدعم الشعبي . ولقد كان باستطاعتها الانتصار لو انها تلقت المعاملة الصحيحة التي كانت اهلا لها طبقا للقانون الدولي» . تايلور ، أصول الحرب العالمية الثانية، ص ١٢١ . تمكن الملاحظة هنا بشكل عابر ان الولايات المتحدة ، التي رفضت الاعتراف بالحكومة السوفياتية طيلة ستة عشر عاما ، اعترفت بنظام فرانكو الفاشي خلال اربعة ايام من سقوط مدريد (٢٨ آذار ١٩٣٩) .

- ١٠ -

الحرب العالمية والحرب الباردة

«تبدأ الثورة الاشتراكية في الميدان القومي وتترعرع في الميدان الدولي وتكتمل في الميدان العالمي . هكذا تصبح الثورة الاشتراكية ثورة دائمة بمعنى جديد أوسع، انها تصل تمامها بالانتصار النهائي للمجتمع القديم على كوكبنا كله» **تروتسكي** .

كان للصراع العالمي الثاني بين القوى الكبرى جذور سياسية ودبلوماسية واضحة في الصراع الاول (١) . ولكن كان له ، في الوقت ذاته ، طابع طبقي اكثر تعقيدا . وعلى الرغم من ان هذا البعد الطبقي كثيرا ما يهمل او يساء فهمه ، الا انه يشكل مفتاحا هاما لفهم الاحداث اللاحقة . فبينما تتوجت الحرب العالمية الاولى باتحاد القوى المنتصرة التي نظمت تسوية بعد الحرب ووقفت على رأسها ، شهدت نهاية الحرب الثانية انحلالا مفاجئا لائتلاف الحرب ، وانقلابا دراميا لم يسبق له مثيل في التحالفات في الغرب ـ اصبح فيه الاعداء القدامى حلفاء موثوقين ـ وصراعا عالميا جديدا اشرس من سابقه . (من الواضح ان كون هذا الصراع قد احتوى ضمن حدود الحرب «الباردة» بفعل العامل الرادع الذي مثلته الاسلحة النووية لا يبدل من اهميته ومن حدته شيئا) . ومن هنا فان التغاضي عن الطابع الاجتماعي لتحالفات الحرب وصراعاتها والتركيز فحسب على محتواها القومي يعني ببساطة جعل التطور

---

١ ـ تايلور ، أصول الحرب العالمية الثانية ، الفصل الثاني .

اللاحق كله غامضا غير مفهوم .

اذا اخضعت صراعات الحرب لتحليل صحيح ، تسهل رؤية ان هذه الصراعات تعكس التطور المركب والصدام المتبادل بين القوى الاجتماعية العالمية القائمة في اطار الاقتصاد العالمي الراسخ . هكذا ومن خلال تطور الصدام ذاته ، يتبين ان الدول المتحاربة الرئيسية تقع في ثلاث مجموعات متميزة يمثل كل منها احد السبل التاريخية الثلاث الرئيسية الى التطور الصناعي (٢) . فهناك اولا الدول الغربية المتحالفة السائدة عالميا التي تسيطر على تطورها الحديث ، بهذا القدر او ذاك ، طبقات راسمالية تجارية والتي تقوم على ثورات بورجوازية ديمقراطية مكتملة الى حد بعيد (٣) . وهناك ثانيا الدول المتفوقة حديثة العهد (٤) ، التي كانت اما ضحية لتسوية فرساي او مستثناة من منافعها والتي كانت جميعا قد سارت على سبل تطور تاريخي تسيطر عليه تحالفات بورجوازية — ارستقراطية وتقوم على ثورات بورجوازية متأخرة او ناقصة . وثالثا كانت هناك روسيا الشيوعية ، دولة غير راسمالية سيطرت على صعودها الصناعي الحديث نخبة بيروقراطية — ثورية وتقوم على اساس ثورة عمالية — فلاحية شاملة سابقة كانت قد كنست الطبقات الحاكمة مالكة الارض والصناعية — بقدر ما كانت هذه الاخيرة موجودة .

ليست هناك حاجة لقول الكثير بصدد تحالف القوى الراسمالية الليبرالية السائدة عالميا ، والتي وضعت نظام فرساي وكانت المستفيدة منه ، وان كان يتعين علينا ان نلاحظ ثانية التطور الاستثنائي نوعا ما للولايات المتحدة . فهنا راسمالية صناعية حديثة العهد لم يثقلها اطار اقطاعي كان موجودا في الاصل ، وتعايشت وفي النهاية تصادمت مع نخبة تقوم على الاسترقاق في الجنوب . وكانت هذه الراسمالية قد اتمت في ١٨٦٠ — ١٨٦٥ آخر ثورة بورجوازية حاسمة (٥) . وبالاضافة الى

---

٢ — انظر مور ، الاصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية .

٣ — قد يبدو طرح المسألة بهذه الجراة غير منطبق على انجلترا وفرنسا ، خاصة انجلترا حيث كانت العلاقة بين البورجوازية والارستقراطية بالغة التعقيد . غير اننا كي نستطيع تقديم تفسير كاف للفارق ما بين التطورات الراسمالية الليبرالية وغير الليبرالية ، البورجوازية وغير البورجوازية ، ينبغي علينا ان نميز بين نوعين من الارستقراطية : اي الارستقراطية من النوع اليونكري التي تقوم على الزراعة المكثفة واشكال قمعية من علاقة الفلاح — السيد . والارستقراطية من نوع النبلاء ، كما في انجلترا ، حيث طرد الفلاحون من الارض وحازت العلاقات الزراعية فيها على بنية تجارية ليبرالية في وقت مبكر . انظر مور ، المصدر السابق بصدد اليابان ، انظر نورمان ، ظهور اليابان كدولة حديثة ، ص ١٤٩ وما بعدها . وبصدد خصوصيات التطور الانجليزي انظر المناقشة بين اندرسون — نيرن من جهة وادوارد ثومسون من جهة اخرى في نحو الاشتراكية ، سوشاليست رجستر ١٩٦٥ ، نيولفت رفيو كانون الثاني شباط ١٩٦٦ .

٤ — ايطاليا والمانيا واليابان ، او «دول النهضة» كما وصفها الكتاب النازيون .

٥ — مور ، المصدر السابق .

ذلك ، استطاعت هذه الرأسمالية مع نهاية القرن ، جزئيا بسبب الجغرافيا وجزئيا بسبب قوتها ، شق سبيل لتوسعها وهيمنتها في النظام الامبريالي العالمي أنكر على القوى الكبرى الاخرى حديثة العهد ، المانيا واليابان .

اما بصدد الاشتراكية البيروقراطية الفجة في الاتحاد السوفياتي ، والتي شكلت دولتها الشق الآخر من معسكر «الديمقراطية» خلال الحرب ، فمن المهم ان نلاحظ بشكل خاص ارتباطها عبر الاممية مع قوى الثورة في المناطق المتخلفة والمناطق المتقدمة من العالم معا ، من اوروبا الغربية الى الصين . ذلك ان هذا الامر زاد ، كما رأينا سابقا ، من حدة الاهمية الطبقية العالمية للدولة السوفياتية وأثرها ، كما زاد بالتالي من حدة التوترات والصدامات الطبقية بين الدول والتي سعى النظام السوفياتي عبثا الى كبتها واحتوائها طيلة الثلاثينات وما بعدها (٦) .

غير ان التشابك المعقد للقوى الاجتماعية في صدامات الحرب العالمية الثانية يجد بؤرته الحقيقية في موقف المحور الفاشي «المعادي للكومنترن» . ذلك ان الفاشية كشكل من اشكال التطور الراسمالي يمكن القول انها تمثل مرحلة حادة وجديدة نوعيا في الازمة الدائمة للثورة البورجوازية المتأخرة التي تفاقمت بعد عام ١٩١٤ وعلى الاخص بعد «أكتوبر» . هكذا لعبت العوامل المرتبطة بالثورةالبورجوازية المتأخرة — ضعف القوى الليبرألية الديمقراطية المتأصل ، قوة التقليد الاقطاعي — العسكري المحافظ ، التوترات الاجتماعية الداخلية التي خلقها التطور المشوه ، الازمة الرأسمالية ، وخطر الثورة الاشتراكية الوشيكة الحاسم (الذي تعزز بالانتصار البلشفي وبصعود الشيوعية بعد عام ١٩١٧) — لعبت جميعا ادوارا حاسمة في ظهور الفاشية في المناطق الصناعية المتقدمة كألمانيا كما في البلدان الاكثر تأخرا كايطاليا واسبانيا .

كان التطور الفاشي في الاطار المتقدم الاحتكاري في المانيا واليابان مؤسسا بعمق أكبر في التطور البنيوي للاقتصاد الاجتماعي ذاته (٧) ، وكذلك في الضغط نحو التوسع العسكري — الامبريالي (كان التأكيد العسكري نفسه نتيجة للتطور الداخلي والخارجي المتأخر) . هكذا كان لضرورة التعبئة الشاملة من اجل الحرب الامبريالية اثر عميق على ظهور الفاشية في كلا البلدين (٨) ، وكذلك على طابعها

---

٦ — مثلا في عام ١٩٤٣ ، قام ستالين رسميا بحل الامية الشيوعية كبادرة حسن نية تجاه حلفائه الرأسماليين .

٧ — مثلا «... ترعرعت نشاطات المشاريع الصناعية والتجارية فياليابان ، ومنذ ايامها الاولى ، في جو تسوده الى حد بعيد ، واحيانا كليا ، مبادىء ومعايير وفلسفات اجتماعية تتفق داخليا مع ما اصبحنا نحن في العالم الغربي نسميه فاشية» . انظر برادي «الشركات كنظام سلطة» ص ٨٤—٨٥ .

٨ — كان هذا التأثير حاسما في اليابان ، فحتى الاطار الدستوري المحدود اثبت انه عقبة كؤود في وجه برنامج الامبريالية العسكرية . بصدد دور العسكر في ظهور الفاشية اليابانية ؛ انظر تانين ويوهان ، العسكرية والفاشية في اليابان .

التوتاليتاري الذي كان بالتناسب أقل وضوحا في الدول الاقل توسعية .

اما النازية في المانيا فقد تأثرت بالملامح المميزة لتطور المانيا : دمجها للبربرية الشرقية بالصناعة الغربية ، توحيدها المتأخر (بالغزو العسكري) ؛ هزيمتها حديثة العهد والنتائج الاقتصادية والسياسية والنفسية لهذه الهزيمة . ونتيجة لذلك مثلت المانيا الشكل الاقصى للظاهرة الفاشية ، فلم تكن في هذا المضمار مثلا نموذجيا . ومع ذلك تندرج ملامح النازية الرئيسية في السياق العام للفاشية .

هكذا كان العداء لليبرالية والامبريالية الغربية (وخاصة الانجليزية) ، الذي شكل القطب المميز للبرنامج النازي ، راسخ الجذور في مسار بروز المانيا المتأخر كله ، مثله في ذلك مثل توسع المانيا نحو الشرق السلافي الشيوعي وغير الشيوعي. ولم يمثل نظام فرساي ، الذي وضعه منافسو المانيا في نهاية الحرب العالمية الاولى، ولا حل الملكية وتأسيس جمهورية فايمر (الذي لعب فيه الوجود المسلح للقوى الغربية دورا حاسما) ، اي خطوة حقيقية نحو تدمير الاسس البنيوية للتوسعية الالمانية العسكرية — الامبريالية . ونتيجة لضعف الليبرالية الالمانية (بما في ذلك شكلها الاشتراكي الديمقراطي) ، وعزوف المنتصرين الراسماليين عن اضعاف بنية الوضع الراهن الالماني الاقتصادية — الاجتماعية في وجه ما اعتبروه خطرا بلشفيا ماثلا ، كانت ثورة ١٩١٨ — ١٩١٩ جزئية جدا حتى في وجهها الديمقراطي . فلم تمس قوى النظام القديم ولا الجيش الامبراطوري ولا بيروقراطية الحكم المطلق ولا الطبقة الرأسمالية الحاكمة ، وتركت قواعد سلطتها الاقتصادية والاجتماعية على حالها . فكانت النتيجة المباشرة لذلك الحيلولة دون التوسيع الضروري للسوق الداخلي عبر اعادة توزيع الداخل والسيطرة على الاحتكارات . اما النتيجة العامة الاخرى المرتبطة بذلك فكانت ضمان ان لا تكون جمهورية فايمر اكثر من فترة انتقالية قبل الانتصار المحتوم لقوى الثورة المضادة وعودة ما انقطع من مسار التوسع العسكري — الامبريالي الالماني قبل الحرب (٩) .

اثرت أصول هذه الفترة الانتقالية ، التي تعود الى الهزيمة ، وتاريخها ، الذي هو تاريخ ازمة ، تأثيرا عميقا على خصائص الردة . ومن السخرية ان يكون هناك عامل ، مساهم آخر هو ادخال الحكم البرلماني . فقد اجبر ذلك الرجعية على السعي الى ايجاد جذور شعبية لها واضطرت اصحاب القوة الاقتصادية والاجتماعية في المانيا الى عقد تحالفات مع القوى السياسية الديماغوجية التي تتمتع بالشعبية مثل «الاشتراكيين القوميين» الهتلريين . ولكن هذا يجب ان لا يطمس الطابع الطبقي للردة ذاتها (١٠) . فقد كان عداء النازية للشيوعية (الذي كان يعني العداء الوحشي

---

٩ — انظر تايلور ، مسار التاريخ الالماني ، الذي يبين بوضوح ان الفاشية لم تكن ثورة بل ردة .

١٠ — بصدد الطبقة الحاكمة اقتصاديا في المانيا النازية ، انظر نيومان ، المصدر السابق . وكذلك برادي ، المصدر السابق . وايضا برادي ، روح الفاشية الالمانية وبنيتها . بصدد علاقة =

لمنظمات الطبقة العاملة والاحزاب الاشتراكية) وكذلك سلطويتها وعسكريتها وقوميتها العرقية ، كانت هذه جميعا عناصر اساسية في البرنامج التقليدي للطبقة الحاكمة الالمانية الامبريالية التقليدية . وبدا هذا في أوضح صوره في الدور الايديولوجي المزدوج الذي لعبته العرقية النازية . ذلك ان عقيدة التفوق العرقي قدمت داخليا بديلا واضحا للصراع الطبقي موجهة المشاعر المعادية للرأسمالية نحو اقلية (غير آرية) يمكن الاستغناء عنها ، اما خارجيا فقد قدمت تبريرا ضروريا لبرنامج التوسع العسكري ضد الدول الاوروبية القوية (١١) .

وبالاضافة الى ذلك ، تخلى النازيون عند استيلائهم على السلطة ، وبضغط من كبار الرأسماليين ، عن البنود المعادية للرأسمالية في البرنامج النازي والتي كانت اجتذبت الى النازية عناصر بورجوازية صغيرة وفلاحية وعناصر متساقطة طبقيا(١٢). (لم يحدث ضغط مماثل فعال لكبح جماح البربريات النازية ، فلا شك في ان بعض قطاعات النخبة الحاكمة في المجتمع الالماني لم تكن تستسيغ الوسائل النازية ، ولكن معارضتها لهذه الوسائل لم يكن لها محتوى من المصلحة الطبقية فلم يكن لها وزن مشابه) . وكانت العقيدة «الاشتراكية» الوحيدة التي نفذها النازيون هي «الامبريالية الاشتراكية» اي «الحرب البروليتارية» ضد الدول الرأسمالية المسيطرة التي لم تكن سوى النسخة النازية من امبريالية «الذين لا يملكون» في عالم النظم الامبريالية الراسخة (١٣) . ولم تكن هذه «المعاداة للرأسمالية» منفرة للطبقة الحاكمة عسكرية

= الطبقات الحاكمة عامة مع القوى الوسيطة في البنية الاجتماعية ، انظر بيري اندرسون، الاشتراكية والتجريبية الزائفة .

١١ ــ كما اوضح نيومان تميل القومية السياسية (على عكس القومية العرقية) التي تؤكد على سيادة الامة الى «المساواة» بين كل الامم فترفع بذلك حاجزا في وجه التفوق القومي. «وفي الواقع، حينما تلجأ الدول الديمقراطية الى التوسع (الامبريالي) فانها دون استثناء تقريبا تتخلى عن المفهوم القومي وتعمل على تمجيد الخصائص العرقية والبيولوجية التي يزعم انها تجعلها متفوقة على الامم المقهورة» . ويلاحظ نيومان ان نظريات كهذه ساعدت على توسع انجلترا واميركا ، ولكنها لم تصل الابعاد والاهمية التي وصلت اليها في المانيا . ويعزو نيومان ذلك الى ان انجلترا واميركا قهرتا دولا ضعيفة جدا ، فلم تكن هناك من حاجة الى مثل هذه النظريات «لتنظيم القوة الكلية للامة من اجل الحرب» . اما في حالة المانيا «فقد كان التوسع ولا يزال موجها ضد دول قوية . فعندما برزت المانيا كقوة امبريالية ناشطة ، وجدت الارض مقتسمة بين عدد من الاجهزة العسكرية . فكانت اعادة التقسيم ، حيثما كان ذلك غير ممكن سلما ، تتطلب قوة السلاح وتضحية هائلة بالدم والمال ، فنشأت الحاجة الى ايديولوجية تبرر المجهود الضخم في أعين الشعب . فكان ان لعب التفوق المزعوم للعرق الالماني هذا الدور» . نيومان ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

١٢ ــ استثارت هذه «الخيانة» رد فعل هام ادى الى «ليلة السكاكين الكبيرة» التي قضي فيها على النازيين «اليساريين» .

١٣ ــ انظر نيومان ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ وما بعدها .

وتوسعية النزعة ، خاصة وان حربا كهذه كانت السبيل الوحيد المفتوح امام هذه الطبقة ضمن الاطار الاقتصادي والدولي القائم .

وفي الشرق الاقصى ابدى الصدام مع الفاشية اليابانية نقاط شبه واضحة في اصله وتطوره بالصدام مع المانيا في الغرب . ذلك ان محاولة اليابان اقامة «منطقة ازدهار مشترك في آسيا الشرقية الكبرى» ، لتزويد اقتصادها الاحتكاري بأسواق اجنبية ومنافذ (١٤) وكذلك بالمواد الخام التي كانت اليابان تفتقر اليها للانتاج المكتفي ، هي التي سببت صدامها مع القوى الغربية المسيطرة في آسيا (هولندا ، الولايات المتحدة ، بريطانيا) (١٥) ، تماما كما سبب التوسع الالماني الصدام في الغرب . ولا شك فيان الطريقة التياشار بها الساسة الالمان واليابانيون الى منطقة نفوذ الولايات المتحدة بموجب «مبدأ مونرو» على انها تقدم نموذجا لمفاهيمهم الامبريالية تؤكد الى اي مدى كانت الحرب العالمية الثانية ، كالحرب الاولى ، حربا امبريالية لاعادة اقتسام العالم بالمعنى اللينيني تماما .

ولكن هذا التشابه بين الحربين ، على أهميته ، يجب ان لا يسمح له بطمس الفوارق بينهما ، تلك الفوارق آلتي كانت لها جذورها في التطورات الاجتماعية خلال الفترة التي فصلت بينهما . ولا شك في ان اهم هذه التطورات هو ظهور الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية في العالم ودورها كأطراف رئيسية في الصراع العالمي الثاني . وقد تجلى هذا الفارق اكثر ما تجلى في التطورات الثورية في اوروبا الشرقية والصين عند نهاية الحرب ، ولعب دورا بارزا في الانقلاب اللاحق في التحالفات الذي اشعل شرارة صراع ما بعد الحرب . والمشكلة الاساسية التي يثيرها هذا التطور امام التحليل هي تفسير كيف وجدت الدول الرأسمالية الغربية نفسها في تحالف غير متوقع ووثيق لا مع الدولة السوفياتية وحدها بل وايضا مع الاحزاب الشيوعية الثورية (مثلا يوغوسلافيا) في صراع ضد دول رأسمالية أخرى.

يكمن الجواب على هذا السؤال جزئيا في ضعف الاتحاد السوفياتي عند بداية الحرب (توقع الخبراء الغربيون ان تنهار روسيا بسرعة امام الهجمة الالمانية) الى حد لم تكن معه القوات السوفياتية تمثل تهديدا للمعسكر المحافظ يعمل على توحيده . والشق الآخر من التفسير يكمن ، كما يشير تحليلنا السابق للفاشية ، في ان الصدام بين الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية لم يكن يمثل صراعا بين قوى امبريالية قومية على الهيمنة ضمن نظام شامل واحد (١٦) فحسب ، ولكنه كان

---

١٤ ــ كذلك تحدث دعاة الامبراطورية اليابانيون عن ضغط فائض السكان . غير ان «فائضالسكان» كان مرتبطا مباشرة بضيق السوق الداخلي الذي نجم بدوره عن البنية الاحتكارية للاقتصاد .

١٥ ــ تعاونت فرنسا فيشي مع اليابانيين في آسيا كما تعاونت مع الالمان في اوروبا .

١٦ ــ غير انه ينبغي ان لا يقلل من اهمية هذا العامل . لقد توقع الكثيرون اذ ذاك ان تتفق بريطانيا مع هتلر كحليف طبقي ، بينما بدا رد فعل بريطانيا تجاه الحرب الفنلندية وكأنهيشير الى =

ايضا يمثل والى درجة هامة صداما بين انظمة اجتماعية امبريالية . فقد كانت هناك فجوة تاريخية عميقة بين النظم السياسية والاجتماعية للقوى الفاشية والنظم المثيلة في الديمقراطيات البورجوازية في الغرب ، وذلك على الرغم من الاطر الراسمالية المشتركة . وامتدت هذه الفجوة بدرجات مختلفة الى النظم الاوسع للدول الراسمالية ، ووجدت اوضح واهم تعبير عنها في الفارق بين الامبريالية التي استغلت الولايات المتحدة بها مناطق اميركا اللاتينية التي نص عليها «مبدأ مونرو» (قدر لهذا النظام ان يصبح نمط العلاقة الامبريالية في فترة ما بعد الحرب) و«النظام الجديد» الذي سعت المانيا الى فرضه على دول اوروبا الشرقية والوسطى. وانعكس فارق شبيه وان يكن اكثر دقة في التطورات في آسيا ، حيث بدأ «النظام الياباني الجديد» توسعه بفوائد جمة جناها برنامجه «المعادي للامبريالية البيضاء» ، ولكنه لم يستطع اقامة نظام استعماري ـ جديد بالتعاون مع القوى القومية المعادية للغرب وذلك بسبب مفهومه الامبريالي الشوفيني القمعي والاقطاعي اساسا .

كان اساس هذا الصدام بين النظم الامبريالية كامنا في افتراق التطورات التاريخية للراسمالية في شكليها البورجوازي ـ الديمقراطي والعسكري ـ الاقطاعي المتأخر ، وفي هذا يكمن مصدر اختلاف طابع الحرب العالمية الثانية عن الحرب الاولى . ذلك ان هذا الافتراق تعمق خلال الازمة العامة بعد عام ١٩١٧ . وبسبب من القوة الصناعية ـ العسكرية المدهشة الاستثنائية للنظم المتأخرة التي مكنتها من تحدي الهيمنة العالمية تحديا خطيرا ، اتخذ صدام الحرب طابع نضال من أجل الثورة البورجوازية ـ الديمقراطية . وخلق ذلك ارضية للتحالف المؤقت بين القوى البورجوازية والاشتراكية ضد خطر الرجعية الفاشية المعادية الشيوعية وللديمقراطية (١٧) .

غير ان هذا التحالف لم يستمر (ولم يكن ليستمر لطبيعة الامور ذاتها) بعد

= قيام حلف رأسمالي عام ضد روسيا. لكن النظرة القومية لقادة مثل ونستون تشرشل تدعمها المشاعر الشعبية الثائرة ضد الالمان بعد احتلالهم للاراضي الواطئة حالت دون سير الامور في هذا الاتجاه . لقد كان انتصار المانيا في اوروبا (وهذا هو الاحتمال الذي كانت الدبلوماسية والاسلحة البريطانية قد عبئت لمواجهته على مدى ما يقرب من قرن كامل) يعني ضربة قاضية للمصالح البريطانية وبالتالي لمصالح الطبقة الحاكمة البريطانية كذلك . من جهة اخرى اعتبرت روسيا ضعيفة الى حد ان القليلين فقط توقعوا ان تصمد في وجه الهجوم الالماني ، ولم يتوقع احد ان يصبح الجيش الاحمر القوةالمحررة لاوروبا الشرقية . وعندما اصبح هذا الاحتمال يبدو قائما ، توجهت الاستراتيجية العسكرية البريطانية للحيلولة دونه ولابقاء الثقل الاساسي للقوات الالمانية موجها ضد روسيا .

١٧ ـ مثلا في يوغوسلافيا تسنم الشيوعيون قيادة المقاومة «الوطنية» للاضطهاد الالماني والنضال من اجل تقرير المصير . وبالضبط لان الشيوعيين كانوا قادة القضية القومية ، اضطر البريطانيون للتعاون معهم .

هزيمة القوى الفاشية الكبرى عسكريا وتحقيق سيادة النظام البورجوازي المطلقة بلا منازع على العالم غير السوفياتي . فقد كان واضحا على أسس تاريخية وتحليلية ان التحالف بين القوى « الديمقراطية » الرأسمالية وغير الرأسمالية تحالف عرضي بالضرورة ، وذلك ما اثبته تذبذب القوى الرأسمالية قبل الحرب ــ عزوفها عن اقامة كتلة مع روسيا السوفياتية واستعدادها لقبول واسترضاء النظم الفاشية في آسيا واوروبا وافساح مجال واسع لها . فما أن انقضى الخطر الفاشي على الهيمنة البورجوازية وبرز الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية محتملة ، حتى كان من المحتم أن تطغى على التحالف تناحرات طبقية اكثر أساسية .

هكذا ، أصبح السبيل ممهدا ، مع هزيمة المانيا واليابان ، أمام اعادة ترتيب القوى الاجتماعية والقومية على أساس وقائع الصراع الطبقي العالمي : المصالح الاساسية المشتركة للطبقات الاجتماعية المالكة وخوفها المشترك من خطر الثورة الشيوعية الماثل . لكن اعادة الترتيب هذه لم تحدث في وقت واحد في كل مكان ، وذلك لاسباب مختلفة ليس اقلها اهمية قوة المشاعر المعادية للفاشية في الغرب والتضامن الناجم عن النضال السابق . ولذا فقد صمد وهم امكانية تحالف مستمر بين موسكو وواشنطن ولندن أمام العديد من الاحتكاكات والصدامات في الفترة اللاحقة مباشرة بشكل عام . غير انه كانت هناك مناطق فرضت ضرورات الصراع الطبقي فيها ، كما نشأت عن المقاومة خلال الحرب ، انقلابا مفاجئا دراميا القى ضوءا ساطعا على طبيعة الحرب الباردة اللاحقة .

ففي اليونان ، مثلا ، كانت فجائية هذا الانقلاب داخل المعسكر المعادي للفاشية (١٨) عاملا رئيسيا في تقرير نتيجة الحرب الاهلية الداخلية . اذ أن اليسار اليوناني ، الذي أصبح عبر المقاومة القوة المسيطرة في اليونان ، ببرنامج الثورة الديمقراطية الذي كان يتبناه (١٩) لم يتوقع الدور المعادي للديمقراطية المضاد للثورة الذي كان لبريطانيا العظمى حليفته السابقة ان تلعبه في المرحلة الحاسمة التالية من الصراع . وبالتالي لم يكن اليسار مستعدا لمواجهة التدخل عندما تم (٢٠) . وفي الواقع لم يفهم الشيوعيون (الذين كانت نظرتهم ، لاسباب سبق وحللناها ، تقوم على التعايش مع الرأسماليات « التقدمية ») ولا اليسار غير الشيوعي ديناميــة

---

١٨ ــ بالطبع لم يكن هذا الانقلاب يمثل بعد انشقاقا بين القوى الكبرى المشكلة للتحالف ، ذلك ان الاتحاد السوفياتي اذعن للتدخل البريطاني .

١٩ ــ وردت نقاط برنامج جبهة التحرير الوطنية في غيتلين ، احتواء الثورة ، ص ١٤٤ .

٢٠ ــ كتب الشيوعي زوغرافوس فيما بعد يقول : «لقد وجهت قيادة الحزب الشيوعي محقة كل جهودها لضمان انتصار الحلفاء على المانيا الهتلرية ، ولكنها فشلت في تعرية ودحر الامبرياليين البريطانيين واعداد الشعب لمقاومة التدخل البريطاني ...» وورلد ماركسست رفيو ، ١١ تشرين الثاني ١٩٦٤ .

الصراع الطبقي العالمي كما برزت مع هزيمة الامبرياليتين الالمانية واليابانية والنهوض العارم للقوى الثورية العالمية خلال الحرب . ومن هنا لم يفهموا الخطر الـذي كان مجرد وجودهم الثوري المسلح يمثله ، رغم مطالبهم المحدودة ، على الامبرياليتـين « الديمقراطيتين » الاميركية والبريطانية . لقد كان من حدة وفجائية الانتقـال في اليونان من مرحلة الى المرحلة التي تليها في الصراع العالمي أن خرجت تظاهـرات الجماهير المؤيدة للمقاومة اليسارية المعاديـة للفاشيـة تهتف « ليعش روزفلت ! ، ليعش تشرشل ! ، ليسقط الملك ! » (٢١) حتى عندما كان الرصاص ينهمر عليها من القوات البريطانية التي ارسلت (في طائرات اميركية) لتسحق هذه الجماهير ذاتهـا وتعيد فرض الملكية اليمينية المكروهة بالتعاون مع عناصر فاشية وخائنة ومحافظة .

ولم يتحطم في اليونان وحدها وهم أن الدول الراسمالية ستظل ، رغم تغـير علاقات القوى الهائل خلال الحرب ، حليفة لليسار اذا ما اقتصر اليسار على النضال الديمقراطي ، بل تحطم كذلك في الطرف الآخر من العالم (٢٢) . فقد حدثت اعـادة ترتيب للقوى مماثلة في الهند الصينية حيث كانت قوى المقاومة الفيتنامية قد اعلنت جمهورية ديمقراطية في وثيقة وضعت على غـرار « اعـلان الاستقلال الاميركـي » وبتطابق وثيق مع روح ميثاق الاطلنطي .

قال الفيتناميون في اعلانهم :

« اننا لعلى ثقة من أن الامم المتحالفة التي اعترفت في طهران وسان فرانسيسكو (مؤتمر الامم المتحدة) بمبادىء حق تقرير المصير وتساوي الامم، لن ترفض الاعتراف باستقلال الفيتنام . ان شعبا قاوم السيطرة الفرنسية بشجاعة على مدى اكثر مـن ثمانين عاما ، وحارب جنبا الى جنب مع الحلفاء ضد الفاشية خـلال السنـوات الاخيرة ، ان شعبا كهذا يجب ان يكون حرا ومستقلا » (٢٣) .

وكما في اليونان ، لاقت القوات البريطانية ، عند وصولها هانوي ، الترحيب من جانب قادة المقاومة بوصفها قوات حليفة ومحررة . ولكن بدل أن يعمد البريطانيون

---

٢١ ـ وكان الشعار الرابع «ليسقط باباندريو» رئيس الحكومة المؤقتة . وبعد ذلك بعقدين مـن الزمان ، صارت الولايات المتحدة وحلفاؤها العسكريون في اليونان يعتبرون انه حتى النوع الباباندري من الليبرالية المحافظة والقومية البورجوازية اخطر من ان يتسامح بشأنه . ولاغلاق الباب امـام الشيوعية ، قام انقلاب عسكري في نيسان ١٩٦٧ قبيل انتخابات كان يتوقع ان يربحها حزب باباندريو.

٢٢ ـ في منطقة واحدة فقط ، هي بالتحديد ايطاليا ، لم يستمر هذا التحالف فحسب (حتى عام ١٩٤٧) ، بل كذلك خلق فعلا «ثورة» بورجوازية ـ ديمقراطية . ويعود هذا بصورة رئيسية الى هزيمة ايطاليا في الحرب ، والى كون قوات الاحتلال الاميركية قد لعبت دورا رئيسيا في التحرير الفعلي للبلاد وكانت تسيطر على مناطق كثيرة وقت جرت المفاوضات الحاسمة ، وأخيرا لان الاميركيين لم يكونوا على صلة وثيقة بالملكية الايطالية كصلة البريطانيين بالملكية اليونانية .

٢٣ ـ ورد النص الكامل للاعلان في غيتلمان ، فيتنام .

الى نزع سلاح قوات الاحتلال الياباني ، استخدموها للحفاظ على (النظام) بينما كانت القوات الفرنسية تعد نفسها لاعادة سيطرتها الاستعمارية على فيتنام . وفي الفترة اللاحقة ، قامت الولايات المتحدة ، التي لم تكن في السابق قد قدمت لقوات الفيتمنة في نضالها ضد اليابانيين وعملائهم الفرنسيين غير اليسير من العون ، برمي ثقلها كله وراء محاولة فرنسا الاحتفاظ بهذه المنطقة غنية الموارد من امبراطوريتها المضمحلة (٢٤) .

هكذا في الشرق كما في الغرب ، بدأ التحالف الطبيعي للقوى الطبقية المحافظة يثبت ، في نهاية الحرب ، نفسه ثانية في وجه خطر الثورة الاشتراكية الصاعد . وفي اوائل الخمسينات ، وعندما كانت الولايات المتحدة الاميركية تقدم علنا دعما عسكريا واقتصاديا ضخما للحفاظ على النظام الفاشي في اسبانيا ، ترسخ تحالف « العالم الحر » ، تحالف القوى الاجتماعية المالكة من الدول البرلمانية في العالم الراسمالي المتقدم الى الدكتاتوريات العسكرية والملكيات الاقطاعية التابعة(٢٥). وقد بانت بوضوح مراحل الانتقال الرئيسية نحو اعادة ترتيب القوى هذه واثرها على الثورة البورجوازية ــ الديمقراطية عبر العالم في التحول الذي طرأ على سياسات القوى المتحالفة المحتلة في الدول الفاشية المهزومة . ويصح هذا خاصة على الشرق الاقصى حيث مارست اكثر القوى الراسمالية بورجوازية، الولايات المتحدة، سلطانا قضائيا وحيد الطرف على اليابان ، اكثر الدول « اقطاعية » ، وحيث لم يكن عامل المواجهة العسكرية الاوروبي المعقد ماثلا مباشرة .

ففي البداية ، تصرفت قيادة قوات الاحتلال الاميركية بتصميم واضح على ادخال البنية السياسية والاقتصادية اليابانية الممات في الاطار البورجوازي . فاستحدث

---

٢٤ ــ يذهب التشابه بين فيتنام واليونان ، بالنسبة لالتزامات القوى الغربية وتاكتيكات النضال الثوري ، ابعد من ذلك . فكما ان الفيتمنه القوا السلاح عام ١٩٥٤ (بضغط من روسيا والصين لقاء تعهد غربي لا يساوي شيئا بصيانة الحقوق السياسية وعقد انتخابات حرة، كذلك اقنع اليونانيون قبل ذلك بتسعة اعوام بقبول ترتيب مماثل بموجب اتفاقيات فاركيزا . وما ان القى اليساريون اليونانيون اسلحتهم ، حتى بدات القوى اليمينية في اضطهادهم ، مثلهم في ذلك مثل الفيتناميين الجنوبيين ، مما اضطرهم الى متابعة مقاومتهم في ظل ظروف اقل مواتاة بكثير . انظر غيتلين ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ــ١٦٠ .

٢٥ ــ طبقا لتقرير اعده احد اعضاء الكونغرس الاميركي ، كان هناك في اذار ١٩٥٥ ، واحد وسبعون بلدا ضمن «العالم الحر» ، تسعة وأربعون منها «دكتاتوريات ظاهريا او عمليا او اوليغاركيات مغلقة ... اما معظم ما تبقى فيستطيع حقا ان يصف نفسه بنعت «حر» بقدر ما يتعلق الامر بالحكومات السياسية ، ولكن السيطرة الاقتصادية في عدد منها اوليغاركية تمكن نسبة مئوية ضئيلة من الامة من العيش على حساب التسعة وتسعين بالمائة الباقين» . عضو الكونغرس توماس كرتس ، ورد نقلا عن سجلات الكونغرس في ميلز ؛ الماركسيون .

دستور ديمقراطي بورجوازي ، وقلصت منزلة الامبراطور ليصبح مجرد ملك دستوري ، وسن قانون نقابي يضمن حق الانتظام والمساومة والاضراب ، وتم القيام باصلاح ديمقراطي للنظم التربوية . وبالاضافة الى ذلك ، بدىء بتفتيت مركزية الاقتصاد الياباني بالغ الاحتكارية وكذلك باصلاح زراعي لتغيير العلاقات القمعية شبه الاقطاعية في الزراعة . واخيرا عقدت محاكمات لمحاكمة مجرمي الحرب وتم تطهير اداري للبيروقراطيتين المدنية والعسكرية وكذلك تفكيك اداة الحرب اليابانية .

غير ان هذا الاصلاحات ، حتى في البداية ، كانت من طبيعة جزئية وليس من طبيعة شاملة . ذلك ان سلطات الولايات المتحدة كانت مقيدة في برنامجها بالرغبة في عدم اضعاف البنية المحافظة للمجتمع الياباني خلال عملية ادخاله في اطار النظام البورجوازي . هكذا كانت التطهيرات رغم كثافتها سطحية تركت البيروقراطية على حالها (٢٦) . وحتى الاصلاح الزراعي ، الذي كان افضل حظا ، توقف قبل اكتماله نتيجة عزوف السلطات عن تحريك الصراع الطبقي في الريف (٢٧) . اما العامل الآخر ، الذي ادى الى التحفظ وقلل من الاهمية العملية للاصلاحات بشكل جذري ، فهو الطابع بعد ـ الليبرالي لراسمالية الولايات المتحدة . هكذا كانت المحاولة الحاسمة لتفتيت مركزية الاقتصاد الياباني وتفكيك الاحتكارات فاشلة تماما تقريبا، اذ واجهت حتى في صيغتها المخففة معارضة حازمة من رجال الاعمال الاميركيين (٢٨) .

لكن القوى الحقيقية التي كانت وراء توقف اندفاع قيادة الاحتلال الاصلاحي هي التوترات الطبقية الداخلية والعالمية المتنامية : الثورة المنتصرة في الصين ، الحرب الاهلية التي بدأها الشيوعيون في كوريا والتدخل الغربي فيها ، بروز يسار ماركسي ياباني . وفي وقت مبكر يعود الى شباط ١٩٤٧ ، حظر الاحتلال اضرابا عاما قام على « أسس اقتصادية » ، بينما حظر في السنة اللاحقة على موظفي الحكومة اللجوء الى سلاح الاضراب اطلاقا . وفي عام ١٩٤٩ ، روجعت قوانين العمل التقدمية التي سنها الاحتلال بناء على اصرار من الولايات المتحدة) للحد من قوة الحركة النقابية . اما في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ فقد كان هناك تطهير عام للشيوعيين من النقابات والحكومة والتربية والصناعة . وفي الوقت ذاته ، خول الاحتلال الحكومة اليابانية

---

٢٦ ـ تم التطهير على اساس المرتبة ، فاقصي كبار الموظفين كمجموعة ليحل محلهم مرؤوسيهم . وقد جعل ذلك البيروقراطية اسهل قيادا لقيادة الاحتلال ولكنه لم يمثل اي تغير في نظرتها .

٢٧ ـ هناك وصف شامل للاصلاح في دور ، الاصلاح الزراعي في اليابان .

٢٨ ـ اعدت قائمة من ١٢٠٠ شركة لتصفيتها ، ولكن القائمة قلصت باطراد حتى لم يبق غير ١٩ شركة . وعندما تمت تصفية تسع من هذه ، قرر المجلس الذي شكلته السلطات الاميركية لهذا الغرض ، والمكون من رجال اعمال كبار ، ان ذلك يكفي . انظر جون هاليداي ، رأسمالية اليابان الاسيوية .

مراجعة طلبات من اقصوا خلال التطهيرات الاولى الفاشيين ، فلم يأت عام ١٩٥١ حتى كان كل من اصابتهم هذه التطهيرات قد استعادوا حقوقهم السياسية . وتوافق اضطهاد الشيوعيين ، الذي شهد بعث الحياة في جهاز الشرطة اليابانية ، مع بدء حملة العسكرة من جديد (ايضا بضغط من الولايات المتحدة بالتحالف مع اليمين الياباني) ، فكان ان شهدت المرحلة الاخيرة من الاحتلال في اليابان ، كما في المانيا ؛ عودة قوى النظام القديم ، وان يكن في اطار دستوري اصلح جزئيا .

وعلى الرغم من ان الاحتلال الاميركي لليابان بالغ الدلالة بسبب الضوء الذي يلقيه على العلاقة المميزة بين القوى البورجوازية والفاشية في حقبة ما بعد الحرب والآثار القاتلة لهذه العلاقة على الثورة البورجوازية ـ الديمقراطية ، الا انه لا يعطي الصورة الكاملة لدينامية صراع الحرب الباردة النامي . ذلك أن المواجهة بين القوى الكبرى في اوروبا هي التي سيطرت على هذا الصراع في مراحله الاولية . ولهذا لا يمكن فهم الحرب الباردة دون النفاذ الى ثنائية سياسة الدولة السوفياتية التي أدت الى تحول مؤقت ، ولكنه ذو نتائج بعيدة المدى ، في الشرق عكس اعادة ترتيب القوى في الغرب في السنوات الاولى بعد الحرب وتداخل معها .

في البداية ، حاول ستالين ان يعالج فترة ما بعد الحرب بالطريقة القومية ذاتها التي أدت الى نكبات عام ١٩٣٩ . وكان هذا بالفعل أساس الاتفاقات التي عقدها مع الحلفاء الغربيين في يالطه . فكما حاول من قبل ابقاء الثورة الاسبانية ضمن الحدود البورجوازية في سبيل « التعايش » مع القوى الراسمالية وعقد حلف دفاعي معها ، كذلك أصبح الآن في نهاية الحرب يسعى الى احتواء ، وحتى اجهاض ، الثورات الشيوعية في يوغوسلافيا واليونان والصين (٢٩) التي كانت جميعا خارج منطقة النفوذ التي خصصتها اتفاقات يالطه لروسيا. وبالروح ذاتها ، اعترف ستالين بنظام بادوغليو في ايطاليا (٣٠) وحث الشيوعيين الفرنسيين والايطاليين على المشاركة في وزارتي ديغول وديغاسبري المحافظتين ، حتى انه حث الشيوعيين الايطاليين الى التصويت الى جانب اعادة اقرار احلاف موسوليني مع الفاتيكان .

وكان موقفه في البداية من منطقة الامن في اوروبا الشرقية ، التي ضمت الدول التي كانت تابعة للنازيين في السابق (والتي تم الاتفاق على ان يكون لروسيا فيها نفوذ مماثل لنفوذ بريطانيا في اليونان) متفقا مع سياسة التعايش المحافظة . ففي حين اتخذ خطوات لضمان انتهاج هذه الانظمة سياسة موالية للسوفيات ، ترك بناها الاجتماعية على حالها أساسا ، ومضى ليحقق متطلبات الاقتصاد الروسي المنهك الخرب بتحصيل التعويضات والجزية من المناطق المقهورة (حتى من حلفاء روسيا

---

٢٩ ـ ترد الشواهد على ذلك اساسا في مصادر يوغوسلافية ، مثلا ديدجر ، تيتو يتكلم ، ودجيلاس؛ محادثاتي مع ستالين ، ولكن مصادر اخرى اكدت هذه الشواهد . انظر غيتنغز ، أصول سياسة الصين الخارجية ؛ المصدر السابق ص ٢٠٢ـ٢٠٥ .

٣٠ ـ انظر الملاحظة رقم ١١ ، الفصل الخامس من هذا الكتاب .

السابقين الذين كانوا هم انفسهم يعانون الخراب ـ بولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا) . وبدأ بهذه الاساليب حقن الدم ثانية ببطء في القاعدة الاقتصادية المستنزفة في روسيا ، فألحق بذلك وفي الوقت ذاته ضيرا بالغا بامكانيات قيام ثورة شعبية اشتراكية في هذه المناطق لعدة سنوات قادمة .

ولكن حتى في هذه الفترة المبكرة عندما كان ستالين ينتهج سياسة قومية أساسا على حساب المصالح الثورية في اوروبا الشرقية ، بدأت توترات « الحرب الباردة » العميقة مع الغرب تجعل نفسها محسوسة . وعلى الرغم من ان هذه التوترات كانت تعبر عن نفسها في نطاق سياسي وقومي ، الا ان جذورها كانت في الواقع تضرب بعمق في التناحر الراسخ بين الانظمة الاقتصادية للدول المتنازعة وقواعدها المؤسساتية (الطبقية) المختلفة . وقد كانت الطبيعة الطبقية للسياسة الغربية واضحة في كل جهودها للحد من النفوذ السوفياتي في المنطقة الشرقية التي منحت له ، وفي محاولة واشنطن الموازية لمد نظام الباب المفتوح الى الحدود السوفياتية. ولا كان الاتحاد السوفياتي من جانبه يستطيع في هذا المضمار الاستمرار في فصل مطامحه القومية عن الانحياز الطبقي الكامن في بنيته الاقتصادية . فكما ان الغرب في محاولته توسيع نفوذه مد يده الى المحافظين المعادين للشيوعية والقوميين المعادين لروسيا في منطقة « الحزام الواقي » السابق ، كذلك كان لا بد ان يجد الاتحاد السوفياتي حلفاءه « القوميين » في الاحزاب الشيوعية الاوروبية الشرقية وبين القوى الطبقية التي كانت تضغط باتجاه تحويل ثوري للنظام الاجتماعي القمعي الجائر في اوروبا الشرقية (٣١) .

هكذا ربما كانت السياسة السوفياتية في اوروبا الشرقية قد صدرت عن اعتبارات قومية محضة ، وعلى الاخص اعتبار الكرملين لهذه البلاد منطقة أمن أولية له . ولكن الاتحاد السوفياتي ، اذ انبرى للدفاع عن المنطقة ، وجد أن من الضروري بصورة محتمة غلق الباب المفتوح امام تغلغل رأس المال الاميركي ومهاجمة القواعد الاقتصادية والاجتماعية للقوى المعادية للسوفيات ، اي وجد لزاما عليه أن يحد من نفوذ الجماعات الحاكمة القديمة والقوى الطبقية المحافظة في المنطقة عموما . (وبالطبع أدى ذلك الى رد فعل لدى القوى الغربية التي رأت فيه محاولة من ستالين لتخطي اتفاقات يالطه وتشييع المنطقة بكاملها) .

وبدا تشابك العناصر القومية والطبقية في السياسة السوفياتية في اوروبا

---

٣١ ـ كان هناك عامل آخر هو ضباط الجيش الاحمر المحتل . ففي حين تلقى هؤلاء من الكرملين تعليمات تقضي بانتهاج سياسة «عدم تدخل» في الشؤون المحلية للاقطار المحتلة ، الا انهم لم يستطيعوا ذلك مثلما لم يستطعه الضباط الغربيون في مناطقهم . فهم كشيوعيين لم يكونوا يستطيعون ادارة البلاد التي يسيطرون عليها «بطريقة تسمح للاعمال الرأسمالية ان تسير كالمعتاد وللاحزاب غير الشيوعية ، التي لم يكن قادتها يخفون كراهيتهم بل وحتى احتقارهم للشيوعيين المنتصرين ، ان تقوم بنشاطاتها دون عائق» دويتشر ، روسيا بعد ستالين ، ص ٨٤ .

الشرقية اوضح ما يكون في عملية شكلت مفتاح التحويل الاجتماعي اللاحق السلمي نسبيا في المنطقة (ذلك انه لم يكن في أي من اقطار اوروبا الشرقية اي مقاومة تقرب في عنفها ولو من بعيد المقاومة الصلبة التي واجهتها عودة الملكية الى اليونان في ظل الحماية البريطانية) . كان يتعين على حكومات اوروبا الشرقية ، بموجب اتفاقات الحلفاء ، تطهير بيروقراطيتها من العناصر النازية والفاشية والعسكرية ومن كل اولئك الذين عملوا ضد روسيا خلال الصدام . وقد وجه هذه التطهيرات شيوعيون كانوا قد سيطروا بمساعدة السوفيات على دوائر الداخلية والدفاع في كل من بلدان اوروبا الشرقية . ولما كانت الطبقات الحاكمة القديمة تتكون بصورة رئيسية من عناصر معادية للديمقراطية أبدت خلال الحرب موقفا مواليا للالمان او على الاقل معاديا للروس ، كان من الممكن دون خرق فاضح للاتفاقيات حرمان هذه العناصر من قواعدها التنظيمية وجعلها « عاقرة سياسيا » (٣٢) . وبما أن الجماعات المتوسطة كانت تفتقر الى التماسك وتتسم بالضعف البالغ ، مهدت هذه التطهيرات السبيل أمام صعود الاحزاب الشيوعية وفي النهاية تحويل المجتمع الاوروبي الشرقي .

كان من الضروري اولا كي يحصل هذا التطور الجديد ، أي كي تتلقى الاحزاب الشيوعية اشارة الاستيلاء على السلطة ، ان يتخلى الكرملين عن سياسة التعايش و « الاحتواء الذاتي » ويكون بالتالي مستعدا للتصدي للغرب في مواجهة مكشوفة . ولا شك في ان ما اضطر الكرملين الى السعي لضمان أمنه في « الثورة » في اوروبا الشرقية ، بدلا من التعاون والتحالف مع القوى الغربية ، هو الانقلاب الذي وصفناه سابقا ، اي انهيار التحالف فعليا والتحول اليميني في سياسة الغرب (وخاصة الولايات المتحدة) واطلاق الحملة العالمية المعادية للشيوعية في وقت مبكر .

لم تكن الولايات المتحدة قد قبلت حقا ، في أي وقت من الاوقات ، منطقة نفوذ في اوروبا الشرقية يتمتع فيها الاتحاد السوفياتي بتفوق عسكري واقتصادي لم يسبق له مثيل ، كما كانت كذلك واثقة من ان روسيا « تخشى قوتنا » (٣٣) . ومن هنا فقد باشرت واشنطن في وقت مبكر يعود الى عام ١٩٤٥ برنامجا لطرد النفوذ الروسي من اوروبا الشرقية وبعث الحياة في القوة العسكرية الالمانية وفيما بعد اليابانية - وباختصار برنامجا لشن الحملة الرأسمالية الكبيرة الثالثة على روسيا خلال جيل واحد . ولا شك في أن هيئة الاركان العامة السوفياتية لم تكن تعتبر مسألة ما اذا كانت الحملة ، التي بدأت سياسية واقتصادية ، ستتطور الى هجوم عسكري كما كان بعض الرسميين الكبار يود ، مسألة اكاديمية محضة . ففي ذلك الحين كانت واشنطن تطور الاسلحة النووية بسرعة محمومة وتؤمن قواعد جوية وبحرية حول الاتحاد السوفياتي من جميع الجهات وتهيب بشعوب الغرب للاستعداد

---

٣٢ - دويتشر ، ستالين : سيرة سياسية ، ص ٥١٩ .

٣٣ - رسالة من السفير الاميركي في روسيا ، هاريمان ، الى وزير الحرب الاميركي ستيمسون في ١٠ ايار ١٩٤٥ . وردت في البيروفيتز ؛ المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

في وجه خطر عسكري مزعوم تحتله موسكو ، ذلك الخطر الذي لا بد أن اميركا كانت تعلم أنه غير قائم ولو لاسباب سوقية (لوجستيقية) فحسب .

وبالضبط في ظل هذا الوضع الخطير الذي وصل مرحلة انعطاف حاسمة مع خطبة ترومان الشهيرة في آذار عام ١٩٤٧ ، طرأ التحول العميق على سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه اوروبا الشرقية (٣٤) . فقد كانت موسكو على وعي كامل لاهمية اوروبا الشرقية للدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، وايضا ربما كانت الصعوبات الهائلة في وجه دفع روسيا وحدها في طريق « الصعود » ثانية قد احدثت اثرها . ومن هنا مدت موسكو سيطرتها بسرعة الى المنطقة واتخذت خطوات لدمج البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الاوروبية الشرقية في النظام السوفياتي (معترفة بذلك بفشل سياستها الاقتصادية وعقيدة الاكتفاء الذاتي الروسي المدللة).

لم يكن هذا الانقلاب في السياسة السوفياتية بلا سابقة . ففي عام ١٩٣٩ ، دخل ستالين دول البلطيق (التي كانت حكوماتها تميل الى برلين اكثر من ميلها الى موسكو) ، ليقيم فيها قواعد عسكرية ويعزز دفاعاته المهددة . وبعد ذلك بسنة وفي ظل وضع يزداد خطورة عقب سقوط فرنسا وانسحاب البريطانيين في دنكرك ، نظم « ثورات » في كل من هذه البلدان (مطيحا بالحكومات القائمة فيها ومحولا الاقتصاد فيها تحويلا اشتراكيا) وضمها الى الاتحاد السوفياتي (٣٥) .

كان تروتسكي قد كتب في المسودة الاصلية للثورة الدائمة قبل ذلك بخمس وثلاثين عاما يقول :

« اذا لم تقم البروليتاريا الروسية ، بعد حصولها على السلطة مؤقتا ، بحمل الثورة بمبادرة منها الى الارض الاوروبية ، فان قوى الرجعية الاقطاعية البورجوازية ستجبرها على ذلك » (٣٦) .

بالطبع لم يتوقع تروتسكي ان تحمل الثورة على رؤوس حراب الجيش الاحمر ، وكان بالفعل قد عارض « الثورة بالغزو » عندما طرحت المسألة بتقدم توخاشيفسكي على وارسو عام ١٩٢٠ . كذلك لم يحتل ستالين الاراضي المحيطة بالاتحاد السوفياتي

---

٣٤ ـ كان هناك ايضا انعطاف جزئي الى اليسار في السياسة الدولية العامة للاتحاد السوفياتي . فتم تأسيس «وكالة الاعلام الشيوعية» (الكومنفورم) لتحل محل الكومنترن . غير ان الهيئة الجديدة لم تضم سوى احزاب اوروبا الشرقية والحزبين الايطالي والفرنسي الكبيرين . وعكس هذا (بالاضافة الى وضع الهيئة الرسمي لوكالة «اعلام») الطبيعة الدفاعية للخط المتصلب الذي انتهجته الاحزاب الشيوعية في الفترة اللاحقة ، وخضوع هذا الخط خضوعا تاما ، للمصالح السوفياتية قصيرة المدى.

٣٥ ـ ميز عمل الضم ، او بالاحرى اعادة الضم اذ كانت دول البلطيق قد فصلت عن الامبراطورية الروسية كعقوبة لها في صلح بريست ـ ليتوفسك ، هذا التوسع عن ما جرى في اوروبا الشرقية بعد الحرب ، وبالطبع كان يحتوي في دوافعه على عنصر قوي من الشوفينية الروسية الكبرى .

٣٦ ـ تروتسكي ، نتائج وتوقعات ، ١٩٠٦ .

عام ١٩٤٠ او عام ١٩٤٥ لاغراض ثورية . لكن منطق الثورة الدائمة ، ودوام العدوان الراسمالي على الثورة الاشتراكية وقواعدها ودوام رد الفعل الثوري (حتى بصورته المشوهة هذه) بوصفه الدفاع الوحيد الممكن ، أكدت جميعا نفسها في احداث عـام ١٩٤٠ وفي الفترة الاولى بعد الحرب مباشرة . ومع عام ١٩٤٩ ، وحلف شمـال الاطلسي في طور التكوين واوروبا الشرقية قد اصبحت سوفياتية بكاملها ، اضطرت الثورة الى حمل نفسها الى الخارج رغم افضل جهود ستالين واكثر وسائله اثـارة للريبـة .

القسم الخامس

حقبة ثورية جديدة

- ١١ -

الثورة العالمية

« عندما نقول امة فاننا لا نعني امة كل الكوبيين ، بل امة الثورة الكوبية . وعندما نقول الثورة الكوبية ، فاننا نعني الثـــورة الاميركية اللاتينية . وعندما نقول الثـورة الاميركية اللاتينية ، فاننا نعني الثورة عـلى نطاق عالمي ، ثورة افريقيا وآسيا واوروبا».

فيدل كاسترو

« فلنرحب بالموت حيثما فاجأنـا ، اذا كان لصيحة المعركة ان تصل ولو اذنا واحدة صاغية وتمتد يد لتحمل سلاحنا ويتقـدم رجال آخرون لينضموا الى ترانيم جنازتنا على لعلعة الرشاشات ونـداءات جديـــدة للمعركة والنصر » .

تشي غيفارا

استهلت نهاية عزلة الثورة الروسية في الفترة الاولى بعد الحرب عهدا جديـدا في التطور الثوري العالمي ، غيرت من نواح عميقة الانماط القديمة بينما اعادت في الوقت ذاته انتاج هذه الانماط . وفي البداية كان تكرار القديم يبدو سمة للاحداث اكثر بروزا من اي تطور جديد . هكذا ، فان الطريقة التي فرضت بها السياســـة السوفياتية الثورات على منطقة اوروبا الشرقية ، باستثناء وحيـد هـــام هـــو يوغوسلافيا (١) ، لم تكسر حقا القشرة القومية للثورة بل في الواقع اكدتها .

---

١ ــ يمكن اعتبار تشيكوسلوفاكيا استثناء جزئيا كذلك ، ولكن استثناء جزئيا جدا .

ولم يبرز تعزيز الانماط القديمة في اصول هذه الثورات فحسب ، تلك الاصول التي تكمن أساسا في مصالح الدولة السوفياتية وضرورات دفاعها ، بل برز ذلك ايضا في الشكل البيروقراطي ـ العسكري لهذه الثورات التي اعادت انتاج السمات المميزة للمرحلة الستالينية من التطور السوفياتي ومؤسسات هذه المرحلة ، بما في ذلك النظام البوليسي والتطهيرات السياسية والوحدانية الحزبية والثقافية (٢) . وكان هذا التكرار مصطنعا تماما في جزء منه ، اذ لم يكن يعكس غير سيطرة الاتحاد السوفياتي ومؤسساته على التطور الاوروبي الشرقي . غير انه كانت هناك للتشابه أسسه الاجتماعية الموضوعية ، فقد كانت المنطقة الاوروبية الشرقية (ببعض الاستثناءات) اكثر المناطق في اوروبا تخلفا وتأخرا واكثرها اقترابا من ظروف الامبراطورية القيصرية قبل الثورة . كذلك كما ان اكثر المراحل في التطور الروسي قمعية تصاحبت مع التهديد الخارجي الذي مثله صعود الفاشية في اوروبا وآسيا وظهور المحور المعادي للكومنترن ، كذلك كانت اسوأ الفترات في اوروبا الشرقية مرتبطة مباشرة بخطر عسكري جدي من الغرب (٣) وتشكيل حلف عسكري معاد للشيوعية (٤) وصعود المكارثية في الولايات المتحدة .

ونتيجة لهذه العوامل كثف توسع النظام السوفياتي في اوروبا الشرقية الكثير من أبلغ سمات التجربة السابقة سلبية ، فكان ان بين تقدم الثورة الى الغرب اكثر وجوهها تخلفا وقمعية . ولم يؤد ذلك الى شحن الرجعية المعادية للشيوعية والمعادية للثورة في الغرب فحسب ، بل ساهم كذلك في طمس معالم التحالف حديث العهد بين القوى الرأسمالية والقوى الاقطاعية ـ العسكرية ، مما سمح للغرب أن يتخذ لنفسه دور المدافع عن الحرية وتقرير المصير في اوروبا الشرقية في الوقت ذاته الذي كان فيه يتواطأ مع الفاشية في البرتغال واسبانيا ويقمع الثورة القومية في افريقيا وآسيا . اضافة الى ذلك ، تفاقم التشوش بسبب وصف الشيوعيين للانظمة التابعة في أوروبا الشرقية بأنها « ديمقراطيات شعبية » . وكان المقصود بذلك مراعاة قوة واهمية النضال الديمقراطي المعادي للفاشية ، لكن الغرب كان قد

---

٢ ـ كذلك كون الثورة البيروقراطية من فوق ثورة بالفعل . هكذا استطاع ستالين بضربة ادارية واحدة تحطيم ونزع ملكية يونكر شرقي المانيا ، وهم الذين كانوا عصب الرجعية الالمانية والبروسية طيلة اكثر من قرن .

٣ ـ يجب الاخذ بالاعتبار ، بالاضافة الى احاطة روسيا بقواعد جوية استراتيجية واعادة تسليح المانيا واليابان وتشكيل حلف شمالي الاطلسي ، غزو قوات الولايات المتحدة لشمال كوريا والتهديد المكشوف للصين والمساعدات المادية الاميركية الضخمة للقوات الفرنسية في فيتنام . وبالطبع لم تكن روسيا تملك اذ ذاك وسيلة ردع نووي .

٤ ـ اي حلف شمالي الاطلسي . لم يتشكل حلف وارسو كتحالف مضاد الا في عام ١٩٥٥ وبعد ضم المانيا الغربية الى منظمة حلف الاطلسي .

تخلى عن هذا النضال ، فلم يكن للامر من أثر غير اثارة الشك . فتردد بذلك ، وان يكون من بعيد وحتى على شكل مسخرة ، صدى المصير السابق للمثال الاشتراكي حين اصبح مرتبطا بممارسة التراكم البدائي في روسيا الستالينية .

وفي حين ان اوروبا الشرقية مثلت خلال الفترة الاولى للحرب الباردة اكثر أوجه الثورة الروسية قمعية ، الا انها اصبحت خلال أقل من عقد واحد تمثل اكثر مناطق الكتلة السوفياتية ليبرالية . وقد عكست فجائية هذا التحول ذاتها « لا طبيعية » أساس التطور الاوروبي الشرقي واعتماده اساسا بشكل مقرر مع عامل خارجي هو صراع الغرب مع الشرق وسياسات الدولة السوفياتية المتعلقة بهذا الصراع . وفي الواقع كانت التطورات الداخلية في روسيا وتبدل علاقات القوى بين روسيا والغرب هي التي مهدت السبيل امام هذا التحول . ذلك أنه بينما كانت فترة القمع الحاد بين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٣ فترة تسلح عسكري كثيف وبناء ستاليني (أو « شيوعية الحرب ») في اوروبا الشرقية ، شهدت نهاية هذه الفترة تحولات هامة في موقع روسيا العسكري والاقتصادي وبالتالي انفراجا سياسيا في الكتلة السوفياتية .

انتقل الاتحاد السوفياتي بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٢ ، ونتيجة لبرنامج الاعمار والتصنيع بعد الحرب ، من الموقع الرابع او الخامس بين الدول الصناعية الى الموقع الثاني بلا منازع (٥) . وعلى الرغم من أن صعود اوروبا الشرقية كان أقل اثارة للدهشة بكثير (وليس أقل اسباب ذلك أهمية ان روسيا امتصت البلايين من اقتصاد اوروبا الشرقية على شكل « تعويضات » وفائض اقتصادي انتزع عبر « الشركات المشتركة » ووسائل استغلال اخرى مختلفة) ، الا أنه كان مع ذلك بالغ الاثر بالمقارنة مع المأزق السياسي والاجتماعي الذي ساد معظم اطراف المنطقة قبل الحرب وكذلك بالمقارنة المطلقة مع مناطق شبيهة في الغرب كاسبانيا والبرتغال واليونان .

واضاف الى هذه القوة الصناعية عوامل عسكرية من القنبلة الذرية (عام ١٩٤٩) والقنبلة الهيدروجينية (عام ١٩٥٢) وكذلك الثورة الصينية ، فساهمت هذه العوامل كلها في تخفيف الضغوطات على النظام السوفياتي والتقليل من خطر هجوم نووي وقائي وتمهيد السبيل امام نزع الستالينية سياسيا .

اتخذ نزع الستالينية في روسيا ، الذي كان هناك أصلاحا مسيطرا عليه من فوق ، مسارا مختلفا جدا فعليا عن المسار الذي اتخذه في اوروبا الشرقية حيث ادى ارضاء الضوابط الى تمرد عنيف من اسفل . ففي بوزنان ووارسو وبرلين وبودابست ، وحدت القومية الثورية تيارات معادية للستالينية واخرى معادية

---

٥ ـ دويتشر : روسيا منتصف القرن ، في هراطقة ومرتدون .

للشيوعية (٦) في قوة موحدة ، مما أدى الى انتفاضات هزت العالم السوفياتي كله ووقف في وجه الارتداد عن اجراءات نزع الستالينية الاولية بضغط من القوى المحافظة (٧) . وبالطبع كانت المصادر القومية لهذه الانتفاضات ضد السيطرة الروسية ، وعلى الاخص ضمن الاحزاب الشيوعية التي زودت هذه الانتفاضات بقياداتها ، واضحة من قبل . ففي عام ١٩٤٨ ، قام الحزب الشيوعي اليوغوسلافي، وهو الحزب الذي قاد الثورة المحلية الحقيقية الوحيدة في اوروبا الشرقية كنضال من اجل التحرر القومي ضد النازية ، بشق طريق مستقل خاص به بدل الاستسلام لسيطرة روسية جديدة . وفي أعقاب هذا التمرد ، طرد اليوغوسلافيون من الكتلة الشيوعية ووصموا « بالفاشية » ، بينما طرد عشرات الالوف من الشيوعيين الاوروبيين الشرقيين من احزابهم بتهمة « الانحراف القومي » و « التيتوية » (٨) . ولم يكن لاي من قادة اوروبا الشرقية الشيوعيين ، غير تيتو ، من الدعم الداخلي ما يمكنه من الوقوف وحيدا بين المعسكرين المتصارعين في تلك الفترة التي شهدت عداء مستعرا بين الشرق والغرب . ولكن الاحداث اللاحقة بعد ذلك ببضع سنوات اثبتت أن عمليات القمع لم تقض على المعارضة في اوروبا الشرقية ، ولا في روسيا، وان كانت قد كظمتها مؤقتا . وبالمثل ، رغم ان الدبابات الروسية سحقت وهزمت الثورة عندما قامت في هنغاريا ، وجد الحزب الروسي نفسه مضطرا بعد ذلك بقليل للرضوخ الى الكثير من مطالب الثورة .

ونتيجة لهذه المقاومة القومية المتجددة في اوروبا الشرقية ، رددت الاحزاب الشيوعية في الكتلة السوفياتية والاحزاب الشيوعية في الغرب صدى مطالبة اليوغوسلاف بحق تقرير المصير وتساوي المعاملة داخل الكتلة وحق « الطريق اليوغوسلافي الى الاشتراكية » . هكذا كانت عملية شق القشرة القومية للثورة الروسية هي ذاتها العملية التي اهتزت بها وحدانية الشيوعية العالمية . ذلك أن هذه الوحدانية لم تكن غير تعبير عن سيطرة الحزب الروسي على الحركة الشيوعية العالمية (٩) .

---

٦ ـ كانت هذه التيارات الاخيرة لا تزال قوية في اوروبا الشرقية نتيجة فرض الاشتراكية على هذه البلدان من الخارج .

٧ ـ كان هذا الضغط قويا جدا في عام ١٩٥٦ ، ومثلت في القيادة الروسية مجموعة مولوتوف ـ كاغانوفيتش . وكانت معارضة الاحزاب الشيوعية الاوروبية الشرقية هي بالضبط ما حال دون عودة الستالينية وهو ما كانت هذه المجموعة تنادي به .

٨ ـ لم تكن هذه تطهيرات ستالين الاولى للشيوعيين في اوروبا الشرقية بسبب من عدم رضوخهم. ففي الثلاثينات هلكت قطاعات كبيرة من القيادات الشيوعية في اوروبا الشرقية بما في ذلك اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندي بكاملها .

٩ ـ انظر ما سبق : عهد ستالين .

وكما ان التطورات في اوروبا الشرقية لم تكسر القشرة القومية للثورة الا جزئيا، وكما ان نزع الستالينية لم يكن غير اصلاح داخلي لم يتحقق الا جزئيا ، كذلك كان تحقيق الديمقراطية واللامركزية على المستوى العالمي ناقصا . فقد وضعت حدود على الهيمنة السوفياتية في المعسكر الشيوعي ، لكن هذه الهيمنة ظلت باقية . ولم يأت التحدي الحقيقي لسيطرة موسكو (ولم يكن من الممكن ان يأتي) من الدول التابعة في الغرب ، بل كان على الحركة الثورية ان تتطلع مرة اخرى الى الشرق المتأخر (١٠) للتزود بدفع جديد الى الامام .

ذلك ان عزلة الثورة الروسية انتهت في الشرق ، كما في الغرب ، بفعل رد فعل ثوري للتوسع والعدوان الامبريالي خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها . غير ان الثورة الصينية ، بعكس الثورات في البلدان الواقعة على حدود روسيا في الغرب ، لم تكن ثورة نظمت بيروقراطيا من فوق في ظل الجيش الاحمر . فقد ركب الحزب الشيوعي الصيني الى السلطة موجة هياج عارم من تحت كانت قد عبئت خلال عقود من الزمن في نضال من اجل التحرر الوطني . لقد كانت الثورة الصينية ثورة في اهمية وعمق ثورة اكتوبر ولم يكن لها في عظم اندفاعها الجماهيري من مثيل .

كان التحدي القومي الذي مثلته الشيوعية الصينية اكبر بما لا يقارن من التحدي الذي مثلته اوروبا الشرقية. وليس ذلك بسبب اندفاع هذه الثورة وقوتها فحسب، بل ايضا لان هذا التحدي لموسكو كان متضمنا في اصول الماوية ذاتها وفي تاريخ تطورها كله . ذلك ان الماوية ولدت على انقاض الهزائم التي ادت اليها توجيهات موسكو في العشرينات ، واقامت نفسها كاستراتيجية مميزة في وجه اولئك القادة الحزبيين الذين استمروا بعد الهزائم في الترويج لخط ستالين فوق ـ اليساري المعدل ، وانتصرت عام ١٩٤٩ ضد نصيحة ستالين الصريحة بعدم الاستيلاء على

---

١٠ ـ ينبغي ان يكون واضحا من بحثنا السابق للطابع «المركب» و«المتفاوت» للتطور العالمي ، ان هذا «التأخر» لا يمكن النظر اليه بطريقة احادية الجانب . والا استعصى علينا فهم الثورة ذاتها بملامحها التقدمية العميقة حتى بمقاييس التطور الغربي «المتقدم» : «ان الجدل التاريخي لا يعرف التأخر ولا التقدمية النقية نقاوة كيماوية ... فتاريخ البشرية الراهن مليء «بالتناقضات الظاهرية» التي ليست في ضخامة دكتاتورية البروليتاريا الصاعدة في بلد متأخر ولكنها من نوع تاريخي شبيه. ان كون طلبة وعمال الصين المتأخرة يتمثلون بشغف عقيدة المادية في الوقت الذي لا يزال فيه القادة العماليون في انجلترا المتحضرة يؤمنون بالقوة السحرية للتعاويذ الكنسية يبرهن بلا ظل من شك ان الصين قد فاقت انجلترا من بعض النواحي . لكن احتقار العمال الصينيين لغباء ماكدونالد لا يسمح بالاستنتاج ان الصين ارفع من بريطانيا العظمى من حيث التطور العام . فالتفوق الثقافي والاقتصادي لهذه الاخيرة يمكن ان يعبر عنه بأرقام دقيقة . غير ان ضخامة هذه الارقام لا تستثني امكانية ان يستولي العمال في الصين على السلطة قبل ان يستولي عليها عمال بريطانيا العظمى» . تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، المجلد الثالث ، الملحق الثاني .

السلطة بل السعي مرة ثانية الى تسوية مع الكومنتانغ .

شعر الصينيون ، مثلهم في ذلك مثل الاوروبيين الشرقيين ، باليد القمعية للشوفينية الروسية عندما بدات موسكو في فترة ما بعد الحرب تأخذ لنفسها الحقوق القيصرية في منشوريا وامتيازات جديدة فيها وتنتزع من هذه المنطقة الصناعية اكثر تجهيزاتها تقدما . وفي عام ١٩٥٠ ، بعد الثورة الصينية ، وافق الروس على التخلي عن هذه الحقوق خلال ثلاثة اعوام كما وافقوا على اعادة التجهيزات ، ولكنهم استحصلوا على امتيازات جديدة على شكل «شركات مشتركة» لاستغلال الموارد الصينية (النفط والمعادن غير الحديدية) ، وهذا ما أوضحت الامور فيما بعد أن الصينيين اعتبروه نمطا من الامبريالية الاقتصادية .

لكن الوحدة الحديدية للتحالف السوفياتي ـ الصيني استمرت رغم هذه الخلفية ورغم ان الصينيين كانوا حتى في الثلاثينات يدعون علنا ان لهم تجربتهم الثورية المميزة ورغم انهم في عام ١٩٤٦ ادعوا انهم طوروا طريقا صينيا محددا سيكون له أثره على الثورات القادمة عبر آسيا . فحتى في وقت متأخر يعود الى ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٧ ، اعلن ماو في موسكو : « يجب ان يكون للمعسكر الاشتراكي راس ، وهذا الراس هو اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ... ويجب ان يكون للاحزاب الشيوعية والعمالية في كل الاقطار راس ، وهذا الراس هو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » (١١) .

غير ان اعلان « الوحدة » هذا لم يعكس قيام وحدة تضم الدول الاشتراكية قائمة على مبدأ المساواة الاممي ، بل اكد فحسب الفشل في تحقيق وحدة كهذه . وبالمثل فان الشقاق الصيني اللاحق ، مثله مثل التمردات الاوروبية الشرقية السابقة ، لم يكن غير تعبير أكثر حيوية عن القيود القومية للثورة الاشتراكية في اطارها متعدد القوميات الجديد .

كانت هذه القيود قبل كل شيء متجذرة في تراث التطور القومي الروسي ذاته، ومن هنا لم يكن انبعاث القومية في اوروبا الشرقية ، وفي الصين الى حد بعيد ، غير رد فعل دفاعي على الشوفينية والسيطرة السوفياتية ، في حين لم تكن الانانية القومية المتمثلة في محاولة الصين استلام زمام القيادة ونشرها بخطها الخاص بها بوصفه المثال الذي يجب ان يحاكى ، غير صورة طبق الاصل عن السابقة الروسية .

---

١١ ـ قارن ذلك بملاحظات ماو في تشرين الاول ١٩٣٨ : «ان الشيوعي ماركسي أممي ، لكن ينبغي على الماركسية ان تتخذ شكلا وطنيا قبل ان يصبح من الممكن تطبيقها .. ومن هنا ، فان تصيين الماركسية ـ اي التاكد من انها محبية في كل تجلياتها بالخصوصيات الصينية واستعمالها طبقا لهذه الخصوصيات ـ يصبح مشكلة ينبغي على الحزب كله ان يفهمها ويحلها .. ينبغي ان نضع حدا لكتابة مقالات بثمانية أرجل عن النماذج الاجنبية ..» شرام ، الفكر السياسي لماوتسي تونغ ، المصدر السابق ، ص١١٢ .

ولكن بالاضافة الى أثر شيوعية روسيا القومية في تعزيز الطابع القومي لهذه التطورات الثورية، كانت هناك العوامل الاجتماعية والتاريخية ذاتها: تراث السيطرة الغربية وما نجم عنه من نضال من أجل التحرر القومي، ظهور هذه الثورات في وقت يقرب من الوقت الذي ظهرت فيه هذه الامم كأمم، توحيد هذه الدول بعد ماض من الانقسامات قبل الراسمالية قبل الصناعية (١٢) . فكان أن خلق التخلخل الناجم عن التصنيع الحاجة الى التواصل والاستقرار اللذين تقدمهما الدولة القومية ، بينما خلقت اللامساواة المستمرة والتراتب (١٣) الحاجة الى التماسك الذي يقدمه البرنامج القومي . والمصدر الآخر للتأكيد القومي والتوترات القومية يكمن في تفاوت التطور بين القطاعات القومية المختلفة (١٤) ، كما بين روسيا والصين مثلا ، اذ كانت الصين قد بدات تطورها الاشتراكي من مستوى اقتصادي اخفض بكثير من ذاك الذي كانت روسيا قد وصلته حتى في عام ١٩١٣ .

واخيرا كان هناك الدور بالغ الاثر الذي لعبه جهاز الدولة المركز الوحداني المتضخم بصورة غير طبيعية . فقد واجه جهاز الدولة بصفته جهاز الدفاع الخارجي اعباء كثفتها السياسات المرسومة التي انتهجتها القوى الراسمالية المعادية ، اما بصفته جهاز الرقابة الداخلية فقد امتد واتسع بفعل الصدامات الناجمة عن الاستيلاء على السلطة والمصاعب التي فرضها الصعود الصناعي السريع ، واما بصفته المراكم الاولي لراس المال في هذه الاشتراكيات البدائية فقد تضخم الى حد كبير ولم يبد اي علائم التقلص او « الاضمحلال » كما في الوصفة الماركسية الكلاسيكية (١٥) . ومن هنا كانت البيروقراطية الرسمية في كل من هذه الدول ، بتوجهها (القومي والمحافظ) المتمحور حول الدولة ، هي التي تصيغ السياسة القومية دونما رقيب .

لقد كان لا بد لهذه العوامل التاريخية ان تحد بقسوة ، في أي حال ، من انجازات المعسكر الاشتراكي العالمي لفترة طويلة قادمة ، الا انها لا تفسر بحد ذاتها الشقاق العلني بين موسكو وبكين الذي حدث بعد قرابة عقد من الوحدة (١٦) ، وفي ظل هذه الظروف ذاتها . والواقع ، ان هذه الوحدة ذاتها هي التي تتطلب ، على ضوء العوامل الحاسمة التي ذكرناها ، التفسير اولا .

---

١٢ ــ مثلا لا تزال هذه النزعات التحللية الانفصالية هامة في الصين ويوغوسلافيا . بصدد الصين، انظر فرانز شورمان ، الحكومة ــ الحزب .

١٣ ــ كانت اللامساواة في الصين اقل بروزا بكثير مما في دول اوروبا الشرقية .

١٤ ــ وجد التفاوت أيضا بين القطاعات «القومية» داخل الدولة الواحدة ، كما في يوغوسلافيا.

١٥ ــ انظر لينين ، الدولة والثورة .

١٦ ــ يقول الصينيون ان الخلافات الخطيرة بدات عام ١٩٥٦ . الا ان هذه الخلافات لم تبد الا في عام ١٩٥٨ ، ولم يعترف بها رسميا الا في عام ١٩٦٣ .

يتوجب علينا ، للوصول الى تفسير كهذا ، ان ننظر ابعد من الكتلة الشيوعية ذاتها ، فهذه الكتلة لا تعيش في فراغ بل هي محاطة بنظام رأسمالي عالمي أكثر قوة بكثير . هكذا ، وبعد مضي عقد ونصف على انتصار الثورة الصينية ، كانت الدول الغربية المسيطرة في هذا النظام ، وعلى الاخص الولايات المتحدة ، تتمتع بموقع متفوق سياسيا وعسكريا واقتصاديا (١٧) مكنها من ممارسة تأثير حاسم مقرر على العلاقات مع المعسكر الشرقي بل وحتى على العلاقات داخله . ولم يكن استثناء الصين من الامم المتحدة والتجارة العالمية واحاطة البر الصيني بالقواعد العسكرية والاساطيل البحرية وقصف الاراضي الواقعة على الحدود الصينية غير أوضح أوجه التفوق الاميركي الساحق على بكين .

وبالطبع كانت هذه السيطرة أشد كثافة في الفترة الاولى من الحرب الباردة . فقد واجهت واشنطن الصين في منتصف الستينات بتفوق عسكري واقتصادي وسياسي في آسيا ، واستطاعت ان تواجه روسيا بالنوع ذاته من التفوق في اوروبا . ولذا لم يكن غريبا ان يعلن ماو عام ١٩٤٩ ان الصين قررت « الانحياز » الى الجانب السوفياتي في الصراع العالمي وان تقابل موسكو هذه البادرة بالتشجيع، على الرغم من البرود السوفياتي تجاه الثورة الصينية حتى في مراحلها الاخيرة . وكان هذا التحالف مع الاتحاد السوفياتي ضروريا ، في راي ماو ، على ضوء تجربة النضال القومي الصيني كلها ، « على ضوء تجربة صن يات صن طيلة اربعين عاما وتجربة الحزب الشيوعي طيلة عشرين عاما » . فقد أثبتت الاحداث ان العالم منقسم انقساما راسخا بين قوى الامبريالية وقوى الثورة : وليس هناك من طريق «ثالث». ولذا فان على الثورة الصينية ان تنحاز الى الجانب السوفياتي كي تستطيع البقاء . او كما قال ماو :

« في الحقبة التي توجد فيها الامبريالية ، من المستحيل على ثورة شعبية حقيقية احراز النصر في أي بلد دون اشكال عون مختلفة من القوى الثورية العالمية، وحتى لو احرز النصر فان من المستحيل تثبيته دون هذا العون » (١٨) .

كان هذا هو درس التدخلات الامبريالية في روسيا عام ١٩١٨ وكذلك التدخلات في الصين ، وعلى الاخص التدخل الاميركي الذي ظل محدودا جزئيا بفعل ضغوطات اميركية محلية وجزئيا بفعل الصدام مع الاتحاد السوفياتي حول اوروبا الشرقية . لكن انبعاث هذا التدخل ظل امكانية خطيرة (١٩) .

واذا كان منطق التحالف مقنعا من الجانب الصيني ، فانه لم يكن أقل اقناعا من

---

١٧ ـ اصح مؤشر للقوة الاقتصادية هو انتاجية العمل وليس الناتج الاجمالي . في وقت متأخر ، وحتى منتصف الستينات ، قدر الناتج الروسي لكل رجل ـ ساعة بـ ٤٠ بالمائة من الناتج الاميركي (اما في العشرينات فقد كان يبلغ العشر فحسب) . دويتشر ، الثورة الناقصة ، ص ٤٩ .

١٨ ـ ماو ، حول دكتاتورية الشعب الديمقراطية ، المؤلفات الكاملة .

١٩ ـ انظر سابقا ، الملاحظة رقم ٩ من فصل : عهد ستالين .

الجانب الروسي ، وذلك بالضبط بسبب التفوق الذي تمتعت به الولايات المتحدة في ذلك الوقت واحتكارها للسلاح النووي بينما كان الاتحاد السوفياتي ينوء تحت اعباء الاعمار بعد الحرب . اضافة الى ذلك ، كانت روسيا اذ ذاك هدفا لهجوم اميركي لا يقل خطرا عن ذاك الذي كان يستهدف الصين ، اذ كانت واشنطن تصور الصين بأنها ضحية التوسع الروسي الذي لا يرعوي ووزارة الخارجية الاميركية تعتبر الثورة الصينية مجرد استيلاء روسي على الصين .

واما بالنسبة لضرورة الاختيار بين بديلين في الصراع العالمي ، فقد كان الرئيس الاميركي هو الذي اعلن عام ١٩٤٧ انقسام العالم الى معسكرين متعارضين لا تمكن التسوية بينهما . وكان رد فعل روسيا على هذا الاعلان والحملة الغربية التي صاحبته هو التقليل من التأكيد على خط التعايش السلمي وتبني تصلب فوق ـ يساري وقبول انقسام العالم الى معسكرين والاعداد للهجوم العسكري المتوقع . ومن المهم على ضوء التطورات اللاحقة ان نلاحظ ان موسكو بوصفها الهدف الرئيسي للتهديد الاميركي ، وليس بكين هي التي اتخذت موقفا متصلبا تجاه ما يسمى بالمعسكر « الثالث » أو قوى الحياد. وبالمقابل كان الصينيون هم الذين تبنوا تشكيل جبهة مع قوى القومية المعادية للامبريالية في المعسكر الثالث ، اي تشكيل جبهة تضم البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة والخاضعة للاستعمار الجديد .

ومع عام ١٩٥٣ ، تعزز موقع الاتحاد السوفياتي تجاه الغرب الى حد كبير بتطوير الاتحاد السوفياتي لقنابل ذرية وهيدروجينية واتمام المرحلة الاولى من اعادة التصنيع بعد الحرب وموت ستالين وتوقيع الهدنة في كوريا . وبدا هذا التحول في التاكيد مجددا على التعايش السلمي (على الرغم من ان ستالين اكد في قمة التوتر في المرحلة السابقة ان التعايش بين المعسكرين ممكن ومرغوب فيه) وفي جس نبض الغرب مجددا بصدد التفاوض حول تسوية اوروبية . وفي عام ١٩٥٥ ، انعقد في باندونغ مؤتمر للاقطار الآسيوية ـ الافريقية ، بما فيها الصين، واقر خمسة مبادىء اساسية للتعايش . وفي السنة ذاتها ، شهد مؤتمر قمة في جنيف أول لقاء بين رئيس الدولة الاميركي ورئيس الدولة السوفياتي منذ ان انهت واشنطن مثل هذه اللقاءات قبل ذلك بعشر سنين . ومثل هذا الاجتماع اول بادرة رئيسية من واشنطن تجاه موسكو منذ اعلن ترومان صراعا حازما ضد الشيوعية والاتحاد السوفياتي ، وذلك على الرغم من ان الولايات المتحدة كررت بعد ذلك بقليل مطالبتها بقلب الوضع الراهن في اوروبا الشرقية كشرط مسبق لاي تسوية اوروبية . وفي التطور اللاحق لهذه المبادرات تجاه موسكو (ولكن ليس تجاه بكين) وقبول القادة السوفيات لها، يكمن احد المصادر الرئيسية للخلاف بين القوى الشيوعية .

هكذا وفي سنة ١٩٥٨ الحاسمة ، وبينما كانت الصين والولايات المتحدة تتجابهان حول مضائق فرموزا ، دعت واشنطن خروشوف لزيارة الولايات المتحدة ، وتلك بادرة كان وزير الخارجية الاميركية دالاس قد عارضها على الدوام لانها تعني اعترافا واقعيا بالوضع القائم في اوروبا الشرقية بل وفي الاتحاد السوفياتي ذاته .

وتكرر هذا النمط ذاته (باستثناء بعض التعرجات) عبر التطور اللاحق للعلاقات الصينية ـ السوفياتية وحتى الاعتراف العلني بالشقاق عام ١٩٦٣ . ذلك انه مع استمرار موسكو في تطوير قوتها الاقتصادية والنووية وقدرتها الصاروخية ، اصبحت الولايات المتحدة مضطرة اكثر فأكثر الى قبول ضرورة التعايش مع نظام الكرملين ، وكان ذلك يعني بالممارسة الاعتراف بالوضع القائم في اوروبا الشرقية (٢٠) . وفي الوقت ذاته ظلت سياسة الولايات المتحدة على عدائها الشرس للصين وعدم اعترافها بالحقوق الصينية (في فرموزا مثلا) وتصميمها على فرض اكبر قدر ممكن من الضغط والتوتر على النظام الصيني واصرارها على حرمان الصين من اي انفراج خارجي وهي تخوض صراعها الحازم مع الندرة الاقتصادية والتخلف الثقافي ومشاكل التصنيع الجمة . وفي الواقع زادت الولايات المتحدة عداءها للصين عندما بدات هذه الاخيرة تحل محل روسيا في استراتيجية الولايات المتحدة وخطابات الحرب الباردة بوصفها التهديد الرئيسي « لأمن » اميركا عالميا .

ادى هذا الانعطاف في سياسة الولايات المتحدة الى ردود فعل محبذة في موسكو بدت لبكين على انها اشبه ما يكون بالخيانة ، كما ادى الى تصلب فوق ـ يساري في بكين بدا لموسكو وكأنه استفزاز خطير للقوة الاميركية (٢١) . فكان ان حرم الافتراق المتنامي في موقف القوة الاميركية البالغة تجاه النظامين الروسي والصيني ـ قبول الاول ، والتهديد الخطير لوجود الثاني ذاته ـ الدول الشيوعية من أساس وحدتها السابقة ، واستثار في نهاية الامر شقاقا بينها .

---

٢٠ ـ بدا قبول الولايات المتحدة رسميا للاتحاد السوفياتي ومنطقة نفوذه في اوروبا الشرقية ، ذلك القبول الذي جاء مع الاعتراف العلني بالشقاق الصيني السوفياتي ، في اتفاقية حظر اجراء التجارب النووية (التي استثنت الصين من النادي النووي) وفي خطبة الرئيس كينيدي في الجامعة الاميركية في ١٠ حزيران ١٩٦٣ . وقد اعترفت هذه الخطبة بسيطرة الاتحاد السوفياتي على اوروبا الشرقية وتخلت عن البرنامج الاميركي «لتحريرها» («علينا ان نتعامل مع العالم كما هو ، لا كما كان يمكن ان يكون لو ان تاريخ السنوات الثماني عشر السابقة اتخذ مسارا مختلفا») .

٢١ ـ كان تصلب بكين اساسا حفاظا على موقف اتخذه النظامان السوفياتي والصيني كرد فعل على حملة الحرب الباردة الموجهة ضدهما معا من جانب الغرب . وقد اختلف موقف روسيا من بكين عن موقف واشنطن من حلفائها مثل المانيا الغربية . هكذا ، بدلا من ان تصر موسكو على تراخ مماثل لحملة واشنطن على الصين كشرط للانفراج (مثلا الاعتراف الدبلوماسي ، ورفع القيود التجارية) ، حاولت ان تضم الصين الى الانفراج باجبار بكين على الرضوخ للشروط الاميركية . مثلا («اذا كان لنا ان نصدق بكين) قبول حل اقامة «صينين» الذي اقترحته اميركا لمشكلة فورموزا ، وذلك «حل» يضع موضع التساؤل نظام بكين ذاته . انظر مثلا ، أصول وتطور الخلافات بين قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي وبيننا ، بكين ١٩٦٣ .

كان تزايد تركيز واشنطن على التهديد التوسعي المزعوم من الصين الثورية (٢٢) مرتبطا مباشرة بالانفراج في العلاقات مع موسكو (وبالتالي فقدان روسيا كخطر خارجي يبرر تدخلات الولايات المتحدة واجراءات «امنها» العالمي) . ولكن كان كذلك يعكس انتقال الاختلال الرأسمالي من اوروبا ، حيث كان متركزا في الفترة الاولى للحرب الباردة ، الى العالم المتخلف بشكل عام وآسيا بشكل خاص حيث شكلت فيتنام مركزه المباشر . والعامل الآخر خلف سياسة واشنطن هو ان الصين ، مثل روسيا في السنوات الاول بعد الحرب ، كانت لا تزال قوة ضعيفة جدا رغم تجاربها النووية الناجحة ، وقد كانت هناك آمال قاطعة في واشنطن في ان بالمستطاع تدمير النظام الثوري (ولربما بهجوم ذري) وعلى الاقل اعاقة تطوره وتقدمه . وبالطبع أدى هذا العداء الى رد فعل تبريري للذات ، اذ لم يكن بمستطاع الصين غير تجديد الصلابة الثورية بغرض تنمية ضغط معاكس لكسر حلقة الاحتواء الضاغطة ، وذلك ما كانت قد دلت عليه سابقا سياسة روسيا ذاتها (لا في اوائل الحرب الباردة فحسب ، بل وكذلك في السنوات الاولى للثورة نفسها) .

وكما ان التجربة الروسية السابقة القت ضوءا كاشفا على سياسة واشنطن تجاه بكين ورد فعل بكين المتصلب ، كذلك اشارت هذه التجربة ذاتها الى السبيل الذي يحتمل ان تنتهجه الدولتان كلاهما حالما تصل الصين الى مستوى من التطور الصناعي مكتف بذاته والى استقرار داخلي وقوة صاروخية رادعة عابرة للقارات . فرغم خطابية الصين حول النضال بلا هوادة ، كان ميلها الى التعايش مع القوى الرأسمالية التي أبدت استعدادها لقبول وجود الصين (باكستان مثلا) واضحا ، كما كانت واضحة كذلك رغبتها ، مثل روسيا من قبل (٢٣) ، في اخضاع المبدأ الثوري لمصلحة الدولة .

---

٢٢ ـ لم يكن هذا التهديد قائما عسكريا . مثله في ذلك مثل التهديد الروسي في الفترة بعد عام ١٩٤٥ . وقد قال احد الخبراء في شؤون الجيش الصيني : «لم تبد الصين اي علاقة تدل على رغبتها في الحصول على قدرة عسكرية تمكنها من التوسع الجسدي . فقواتها المسلحة سيئة التجهيز الى حد لا تستطيع معه القيام بعمليات طويلة الامد خارج حدودها ، كما ان تجهيز وتدريب وحشد هذه القوات يشير الى انشغال حاد بأمور الدفاع . وليس لاسطول الصين اي قدرة هجومية يمكن الحديث عنها، اما قوتها الجوية فليست ذات شأن (يشترك في هذا التقييم كل الخبراء الغربيين في هذا الحقل تقريبا) » . جون غيتنغز ، الصين والحرب الباردة . غيتنغز هو مؤلف كتاب دور الجيش الصيني لحساب المعهد الملكي للشؤون الدولية .

٢٣ ـ كان شيشرين ، وزير خارجية لينين ، قد صاغ «ضرورة» التعايش ، اذ قال : «قد تكون هناك خلافات في الراي حول طول المدة التي سيظل فيها النظام الراسمالي قائما . ولكن النظام الراسمالي موجود في الوقت الراهن ، ولذا فلا بد من ايجاد تسوية مؤقتة حتى تستطيع دولتنا الاشتراكية والراسمالية التعايش سلما وبعلاقات طبيعية واحدتها مع الاخرى . ان هذه ضرورة في صالحنا جميعا» . ورد في كار ، الثورة البلشفية ، المجلد الثالث ، ص ١٦٦ .

ادى اقتران سيطرة الولايات المتحدة وضغطها على معظم اطراف العالم المتخلف بضعف الصين الى الابقاء على عزلة بكين ، مما دفعها بالتالي الى السعي لتحقيق أمنها عبر التحريض الثوري ضد وضع قائم معاد. واختلف هذا اختلافا عميقا مع تأكيد الاتحاد السوفياتي على علاقات الصداقة مع القوى الرأسمالية ، وتقديم العون الى الانظمة الرأسمالية في العالم المتخلف (والمشاريع الرأسمالية ايضا) (٢٤) ، والدعم العسكري لجيوش هذه الانظمة التي يشكل الحفاظ على السيطرة الداخلية للطبقات المالكة غرضها الاولي ، والحفاظ على السياسات الاصلاحية للاحزاب الشيوعية الموالية لموسكو على امتداد آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية . لكن الصينيين انفسهم لم يترددوا في اقامة علاقات اخوية مع اقطار العالم المتخلف التي سعت الى أقامة علاقات معهم (حتى ، كما في باكستان ، مع دكتاتورية عسكرية يمينية قائمة على الطبقات الحاكمة الرأسمالية والمالكة للارض) كما لم يترددوا في حث الشيوعيين الموالين لبكين على دعم البورجوازيات الوطنية في « نضالها » ضد القوى الامبريالية (٢٥) .

وفي اندونيسيا ، التقت السياسات القومية الصينية والسوفياتية لتتمخض عن مأساة . فقد سمح الحزب الشيوعي الاندونيسي الموالي لبكين لنفسه ان يستوعب ضمن حركة قومية تسيطر عليها البورجوازية ، فكان ان سحقه اليمين بلا رحمة في احدى اكبر مجازر العصور الحديثة (قدر عدد الضحايا «الشيوعيين» بنصف مليون) (٢٦) . ولا شك في ان الشبه بين هذه الحالة وبين ما حدث في الصين عام ١٩٢٧ (٢٧) واضح سوى ان الصينيين هم الذين شجعوا ، هذه المرة ، حزبا

---

٢٤ ــ انظر كيردون ، الاستثمارات الاجنبية في الهند ، ص ١١٣ .

٢٥ ــ سنبحث الطبيعة المحدودة لهذا النضال في الحقبة الراهنة فيما بعد .

٢٦ ــ اوضح احد اشهر الخبراء في شؤون اندونيسيا ان «المذابح كانت اساسا ريفية . ولفهم هذه المذابح ، وعلى الاخص في جاوه ، ينبغي ان نعود الى عام ١٩٦٠ عندما اصدر سوكارنو قانون اصلاح زراعي . فقد طبق الموظفون هذا الاصلاح تطبيقا سيئا ودونما حماسة . ولذا بدأت اتحادات الفلاحين تقوم بنفسها بتقسيم اراضي الملاكين المسلمين .. وكان الحزب الشيوعي مشتركا في حكومة سوكارنو ، فشكلت هذه الحركات تحديا له . فحاول في نهاية عام ١٩٦٤ ان يضع حدا لها ، خاصة وأن الاحزاب الاسلامية .. والحزب القومي الاندونيسي هددت بالانسحاب من الوزارة اذا لم يوقف الحزب الشيوعي تقسيم الارض من جانب واحد . وكان ما حدث بعد ذلك في مطلع عام ١٩٦٥ هو استيلاء الملاك ثانية على اراضيهم . هكذا كانت المذبحة مذبحة لمن لا يملكون ارضا ، لقد كان الفقراء هم الذين قتلوا مع عائلاتهم» . مقابلة مع البروفسور ويرتايم الاستاذ بجامعة امستردام ، لوموند ١٨ شباط ١٩٦٧ .

٢٧ ــ «ان هذا ... ليذكر بالامور في الصين عام ١٩٢٧ بعد حادثة شنغهاي . فهناك ايضا حطم القادة العسكريون مثل شيان كاي شيك التعاون القائم بين الشيوعيين والكومنتانغ ، بقيادة صن يات صن ، واطلق هؤلاء العسكريون حملة قمع وحشية ضد اليسار» المصدر السابق . للاطلاع على نقد =

شيوعيا على اخضاع توجهه الطبقي لنظام بورجوازي وطني انتهج سياسة خارجية «تقدمية» توافق المصالح القومية قصيرة النظر للصين . (بالطبع استولى جنرالات الجيش الرجعيون على السلطة بأسلحة سوفياتية) (٢٨) . وقد وضح انتصار اليمين هذا والتدمير المفاجىء لاكبر حزب شيوعي في العالم غير الشيوعي قصر نظر الدول الشيوعية ـ وحتى من وجهة النظر القومية البحتة ـ اذ تقيم سياساتها على اساس الوضع القائم (غير الاشتراكي) في حقبة تتسم بالاختلال والتغيير الثوري الدائم .

كذلك جعلت الطبيعة الدينامية للثورة العالمية البرنامج السوفياتي في السعي الى اتفاق مع القوى المحافظة المسيطرة في العالم على اساس الوضع الراهن القائم برنامجا يهزم في النهاية ذاته بذاته . فعلى الرغم من رغبة القادة السوفيات الواضحة في التوافق مع الولايات المتحدة ومشاركتها في سيطرة عالمية مشتركة ، وعلى الرغم من قبول واشنطن للوضع في اوروبا الشرقية بفعل ازدهار القوة السوفياتية النووية ، الا ان هذا القبول لا يمكن ان يمتد بشكل عام (الى كوبا والصين وفيتنام مثلا) (٢٩) كما لا يمكن التغلب على العداء البنيوي الاساسي بين القوتين . فطالما حافظ الاتحاد السوفياتي على ايديولوجيته الاشتراكية وقاعدته الاقتصادية المشتركة ، فان التطور والتقدم السوفياتي يظل يمثل خطرا على النظام القائم في كل الاقطار الراسمالية . وطالما ظل هذا التعادي قائما ، ولو على صعيد الاحتمال، فان مصالح الاتحاد السوفياتي القومية ذاتها تظل تدفعه الى دعم الثورات الاشتراكية ، تماما كما ان المصالح «القومية» للولايات المتحدة تدفعها الى الوقوف في وجه هذه الثورات .

لو كان الوضع الاجتماعي العالمي الراهن مستقرا لما كان هناك من سبب متأصل يبقي هذا التعادي كامنا . فالتفوق الساحق للقوة الاميركية يضع ضغوطات هائلة

= لسياسات الحزب الشيوعي الاندونيسي قبل الانقلاب ، انظر ، دروس من النكسة في اندونيسيا، الماركسية اليوم ، ايلول ١٩٦٧ .

٢٨ ـ في الواقع استمر الاتحاد السوفياتي في تقديم العون الى اندونيسيا حتى بعد الانقلاب معلنا ان اندونيسيا ، في ظل الدكتاتورية العسكرية المضادة للثورة . «تستمر في سياستها المعادية للامبريالية والاستعمار» (السفير سيتنكو ، ١٨ ايلول ١٩٦٦) . وبعد الانقلاب بسنة ، شرح مكتب موسكو لوكالة الصحافة السوفياتية لوفد من الشيوعيين الايطاليين المذهولين ان «التعاون الاندونيسي ـ السوفياتي هو اولا وقبل كل شيء لمصلحة العالم في تطوره . فهو يساهم في تطور العملية الثورية العالمية» (!) صحيفة افانته ، ١٧ كانون الاول ١٩٦٦ .

٢٩ ـ يكمن احد اسباب عدم قدرة موسكو على فرض سياسة تعايش عامة على واشنطن في تفاوت قوة الدولتين . وقد عبر سارتر عن ذلك بقوله : «اليوم يتعين علينا ان ننظر الى نضالنا من منظور استمرار الهيمنة الاميركية . ان العالم لا تسيطر عليه قوتان كبيرتان ، بل قوة واحدة فحسب . والتعايش السلمي ، رغم كل نواحيه الايجابية جدا ، يخدم الولايات المتحدة» .

على القيادة السوفياتية باتجاه دفعها الى تجنب المواجهة وتخفيف الصدام ، وبالتالي الاذعان للنظام العالمي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة . لكن افتراض استقرار النظام الراسمالي العالمي (وبالتالي التحالفات الدولية) افتراض خاطىء . ذلك ان الثورة القومية والاشتراكية العالمية ترفع باستمرار ، وباستقلال عن ارادة السوفيات او اعمالهم ، لواء تحد دائم للعالم وللاهداف التوسعية للقوى الراسمالية المسيطرة.

ولا يستطيع الاتحاد السوفياتي ان يتخذ موقف اللامبالاة من هذا الصدام . فهو محاط بتحالفات عسكرية تتبناها الولايات المتحدة وهو يجسد نظاما اجتماعيا وفلسفة جعلتهما الطبقات الراسمالية الحاكمة في الغرب موضع كراهية ايديولوجية عميقة . ومن هنا لا بد للقيادة السوفياتية من ان تنتهز ، عاجلا او آجلا ، الفرص التي يمنحها الصراع العالمي . كما لا بد لهذه القيادة من ان تناضل لاضعاف واحتواء خطر القوى الرأسمالية وبالتالي منح الدعم ــ مهما كان غامضا او مشروطا ــ للقوى المعادية للغرب ، اي للدول والقوى الثورية (٣٠) .

وبالمقابل يستحيل على القوى الرأسمالية الغربية احتواء التحديات الثورية (المحلية والخارجية معا) دون استحضار شبح الشيوعية الدولية وبالتالي ربط هذه الثورات بالكتلة الشيوعية عامة والاتحاد السوفياتي بشكل خاص . ذلك ان الطبقات الحاكمة في المجتمعات ما بعد الملكية لا يمكنها تعبئة القوى المحافظة للوقوف في وجه قوى التغيير الثوري الا باستخدام النداءات القومية .

هكذا وعلى الرغم من ان التوازن الدولي يمكن ان ينشأ عنه اتفاق للمصالح بين الكتلتين الاشتراكية والراسمالية وأساس للتعاون المؤقت بينهما ، الا ان ضغوطات الثورة الدائمة تضعف أسس هذا التعاون باستمرار وتفرض المواجهة بين المعسكرين، حتى تلك المواجهة التي تسعى الاجنحة السياسية المسيطرة في كل من المعسكرين الى الحيلولة دونها .

تدل على صحة هذه الملاحظات العامة المواجهة الخطرة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة حول الثورة في كوبا ، تلك الثورة التي كانت اول ثورة اشتراكية تستولي على السلطة بقيادة قوى من خارج الاممية الشيوعية . فكما ان الولايات المتحدة اضطرت الى مواجهة النظام الكوبي عندما بدات ثورته الوطنية تتحدى السيطرة الاميركية الاقتصادية والسياسية على الجزيرة ، كذلك اضطر الروس الى دعم الثورة ، وذلك بالضبط لكونها تعارض الولايات المتحدة .

بل ان هناك ما هو أبلغ دلالة من هذا الصدام الذي بلغ ذروته مع ازمة الصواريخ عام ١٩٦٢ . ذلك هو فشل الانفراج الذي اعقب الازمة . فقد بدأ هذا الانفراج بتوقيع معاهدة حظر التجارب النووية عام ١٩٦٣ ، لكنه فشل في التقدم تقدما

---

٣٠ ــ ان هذا الدعم غامض لان الاتحاد السوفياتي سيسعى ، كما رأينا ، الى لجم هذه القوى وربطها باستراتيجيته في التعايش وجعلها مجرد جماعات ضاغطة على القوى الاكثر محافظة تقوم بقدر اقل من «الاستفزاز» للولايات المتحدة .

محسوسا خلال السنوات القليلة اللاحقة ، اساسا بسبب تدخلات الولايات المتحدة العسكرية لاحتواء الثورة في فيتنام ، ولكن ايضا بسبب التدخلات الاميركية في اميركا أللاتينية وأفريقيا . فقد كان من الطبيعي ان يشكل احتقار الولايات المتحدة المكشوف للقوانين الدولية والاعراف الدولية وتصعيدها لبرامجها ونشاطاتها العسكرية تطورات خطيرة من وجهة نظر الامن السوفياتي والسلام العالمي ، فيحرم بالتالي الانفراج من جوهره . ذلك ان هذه التدخلات المضادة للثورة بطبيعتها ، وما صاحبها من أستحضار لشبح خطر الشيوعية العالمية ، احيت تناحرات الفترة الاولى من الحرب الباردة وجوها ، وشكلت بالتالي تهديدا ــ مرة أخرى على أسس قومية محضة ــ حتى لاكثر الرسميين في دول اوروبا الشيوعية محافظة (٣١) .

وباختصار ، ان الاطار الطبقي للسياسة الدولية ــ حقيقة التوسع الامبريالي والمقاومة الثورية له واستقطاب القوى الاجتماعية العالمية حول السيطرة على الانتاج والموارد الطبيعية وتوزيع الثروة المادية ــ حال دون اتفاق موسكو وواشنطن ، وخلق درجة من ألتضامن بين الدول الشيوعية والاحزاب الثورية كانت تستحيل دونه في عهد ما بعد ستالين .

ولذا بينما انهى الانشقاق الصيني ــ السوفياتي الوحدة المصطنعة الوحدانية للمعسكر الشيوعي ، الا انه فتح السبيل امام تحالف اقل انضباطا ولكنه اكثر مرونة في بعض نواحيه . وفي حين ان هذا الانشقاق اضعف مؤقتا دفاعات المعسكر الشيوعي وجعل ممكنا العدوان الاميركي على فيتنام الشمالية ، الا انه مهد السبيل امام تطور معاكس اذ أفسح المجال لظهور وتطور مراكز ثورية جديدة وجعل ممكنا خلق مصادر جديدة للوعي الثوري والقوة الثورية .

لا شك في ان اهم هذه المراكز الثورية الجديدة هو كوبا الثورية ، كما لا شك في ان الثورة الكوبية هي اكثر الثورات تقدما ايديولوجيا حتى الان . ويعود ذلك جزئيا الى تطور كوبا قبل الثورة ، وجزئيا الى الدعم المادي الذي تلقته من روسيا (نسبة الى حجمها) وجزئيا الى النوعية الاستثنائية لقيادتها . وقد انعكس هذا النضج الايديولوجي في موقف كوبا من الانشقاق الصيني ــ السوفياتي بين اشياء أخرى .

ففي خطبة في ٣ تشرين الاول ١٩٦٥ ، اكد كاسترو حق الحزب الكوبي في تقرير المصير . وأعلن ان سياسة كوبا ستكون تشجيع وحدة المعسكر الثوري ، لكن

---

٣١ ــ ابلغ احد دبلوماسيي دولة اوروبية شرقية السناتور الاميركي فولبرايت «انه كان يعتبر الحرب الفيتنامية بعيدة عن مصالح بلده ، حتى قرأ في الصحف الاميركية تهليلها لعدد الشيوعيين الذين قتلوا في اسبوع ما او معركة ما . عندئذ تذكر ان اميركا تعتبر نفسها في حرب لا مع بعض المتمردين الفيتناميين فحسب بل مع الشيوعية بشكل عام ، ولذا يجب اعتبار اميركا معادية لكل الشيوعيين، بما فهم هو نفسه ، لكل الاقطار الشيوعية ، بما فيها بلاده هو» . فولبرايت ، غطرسة القوة ، ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

الحزب الكوبي سيحتفظ بحقه في «تثقيف وتوجيه» الجماهير الكوبية الثورية . «ولن يكون لاي حزب آخر هذا الحق في كوبا» . ولم يؤكد كاسترو ان كوبا لن تخضع لا لاورثوذكسية موسكو ولا لاورثوذكسية بكين فحسب ، بل تحدى بالاضافة الى ذلك مفهوم اورثوذكسية عالمية للاحزاب الماركسية :

«قد نختلف حول اية نقطة مع اي حزب . ففي العالم المعاصر الذي يفتقر الى التجانس وفي ظل الظروف المتنوعة في الاقطار المختلفة ذات الاوضاع المختلفة ، وفي ظل مستويات من التطور التقني والمادي والثقافي عظيمة التفاوت ، يستحيل النظر الى الماركسية ككنيسة ، كعقيدة دينية لها حبرها الاعظم ومجلسها المسكوني ... ان البابوية مؤسسة تعود الى القرون الوسطى وادعاؤها العصمة غريب تماما عن الفكر الماركسي ...» (٣٢)

وقبل ذلك ، قذف كاسترو ، في خطبة رئيسية في ١٣ آذار ، موسكو وبكين بتحد مباشر اذ دعاهما الى انهاء نزاعهما وتوحيد القوى في وجه العدوان الاميركي في فيتنام . وانب موسكو وبكين لانقسامهما في وجه العدو ، معلنا بصراحة مصلحة كوبا القومية في وحدة الكتلة الشيوعية : «من يشك في ان مواجهة العدو بجبهة موحدة تجعله يتردد ... قبل ان يشن هجماته المغامرة وتدخله المكشوف في فيتنام ؟» . وقال ان كوبا تدرك خطر هذا الانقسام ، لا لانها كبلد صغير مثل فيتنام تعتمد على قوة الكتلة كلها لحمايتها من العدوان الاميركي (٣٣) فحسب ، بل كذلك وايضا لانها بلد صغير «لا تطمح في ان تصبح سرّة العالم .. والمركز الثوري للعالم » (٣٤) .

وعلى الرغم من ان كوبا لم تسع فعلا الى وضع خط ثوري عالمي ، الا انها اصبحت في الواقع ، مع اواسط الستينات ، مركزا ثوريا ثالثا لقطاعات من العالم المتخلف وعلى الاخص اميركا اللاتينية (٣٥) . وكان هذا التحول علامة مرحلة نوعية جديدة في صيرورة الثورة الاشتراكية ثورة أممية ، تصاحبت مع انعطاف داخلي نحو اليسار في كوبا ذاتها (هجوم منسق على البيروقراطية (٣٦) وتأكيد على الحوافز المعنوية بدلا من الحوافز المادية) . وقد اكدت سياسة كوبا الخارجية الجديدة على

---

٣٢ ـ خطبة في ٣٠ ايلول ١٩٦٦ .

٣٣ ـ غير ان كاسترو اكد في مناسبات عديدة تصميم الكوبيين على خوض المعركة وحدهم اذا اقتضى الامر ولا التخلي عن مكتسبات ثورتهم او استقلالها .

٣٤ ـ «لم يكن الانقسام في وجه العدو استراتيجية ثورية او ذكية ابدا» ، خطبة في ١٣ اذار ١٩٦٥ .

٣٥ ـ من ناحية رسمية ، حاولت كوبا الحصول على زمام القيادة بعقد مؤتمر القارات الثلاث للتضامن الآسيوي ـ الافريقي ـ الاميركي اللاتيني في كانون الثاني عام ١٩٦٦ في هافانا ، وعقد المؤتمر الاول لمنظمة التضامن الاميركية اللاتينية في تموز ـ آب ١٩٦٧ في هافانا .

٣٦ ـ للاطلاع على الاسس النظرية خلف هذه الحملة ، انظر مقالة «النضال ضد البيروقراطية : مهمة حاسمة» غرانما ، ٥ آذار ١٩٦٧ .

مبدا التضامن الاممي وعلى موضوعة ان قوى العصابات المسلحة يجب ان تصبح نواة الثورة في اميركا اللاتينية بدلا من الاحزاب الشيوعية التي تتركز في المدن (٣٧) .
وفي حين ان هذه الاستراتيجية انبثقت جزئيا من اعتبارات تتعلق بالمشاكل التاكتيكية لحرب العصابات ، وجزئيا من شك يقوم على اساس راسخ في صحة السياسات الانتخابية في اميركا اللاتينية ، الا انها مثلت ايضا محاولة لم يسبق لها مثيل لتحرير الحركة الثورية في اميركا اللاتينية من القبضة الدكتاتورية للاحزاب الشيوعية الموالية لموسكو واتجاهها السياسي الاصلاحي .

وكانت هذه المحاولة واضحة اكثر ما يكون في هجوم كاسترو اللاذع على قيادة الحزب الشيوعي الفنزويلي التي حاولت اولا اخضاع حرب العصابات للنضال الانتخابي ثم حاولت تصفية الكفاح المسلح كله . فقد شجب كاسترو هذه السياسات ووصفها بأنها تخاذلية واصلاحية وأعلن دعمه للعناصر الشيوعية المتمردة على الخط الرسمي للحزب الفنزويلي ، وأكد ان الحزب الكوبي لن يعتبر شيوعيا غير المقاتلين المكرسين الذين يملكون «روحا ثورية» حقا :

«ليست الحركة الشيوعية العالمية ، في رأينا ، كنيسة .. تجبرنا على تأليه كل ضعف .. واتباع سياسة اقامة جمعية للاعجاب المتبادل مع كل ضروب الاصلاحيين والثوريين المزيفين .. الحركة الشيوعية العالمية ، بالنسبة لنا ، هي بالضبط حركة شيوعيين ، حركة مقاتلين ثوريين . ولا يمكن ان يسمى شيوعيا من لم يكن مقاتلا ثوريا» (٣٨) .

لقد رأينا ان الميول الاصلاحية لاحزاب الاممية الشيوعية تجد جذورها في ارتباط هذه الاحزاب مع الدولة ـ الامة السوفياتية وفي الاولوية التي اعطاها الكرملين للتعايش مع الغرب الرأسمالي . ولقد صارت السياسة السوفياتية في اميركا اللاتينية (اكثر المناطق حساسية بالنسبة للولايات المتحدة) اكثر توجها نحو التعايش مما في مناطق أخرى ، ذلك بعد ازمة الصواريخ الكوبية . فبينما رفضت الولايات المتحدة الاعتراف بكوبا واقامت حصارا اقتصاديا على الجزيرة وفعلت كل ما في وسعها ، باستثناء الغزو المسلح ، لتحطيم النظام الكوبي ، لم يكتف الاتحاد السوفياتي بالاعتراف بالدول الاميركية ـ اللاتينية التابعة للولايات المتحدة والمتاجرة معها ، بل ذهب الى حد ارسال معونة تقنية واقتصادية لها . ولذا لم يكن من الصدفة في شيء ان يقرن كاسترو هجومه على القيادات الاصلاحية للاحزاب الاميركية ـ اللاتينية (٣٩) بنقد حاسم للعون الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي للحكومات الاقلية في اميركا اللاتينية :

---

٣٧ ـ للاطلاع على عرض موثوق لهذه الاستراتيجية ، انظر ريجي دوبريه ، ثورة في الثورة .

٣٨ ـ خطبة في ١٣ آذار ١٩٦٧ .

٣٩ ـ تجدر الملاحظة ان عددا من الاحزاب الشيوعية الاميركية اللاتينية وقف الى جانب كاسترو في صدامه مع القيادة المدينية للحزب الشيوعي الفنزويلي .

«لا يستطيع احد ان يتخيل الى اي حد يذهب الامبرياليون في سبيل توسيع حصارهم الاقتصادي لهذا البلد . وكل هذه الحكومات متواطئة معهم .. واذا كان ذلك صحيحا .. واذا كانت الاممية موجودة ، اذا كان التضامن كلمة تستحـــق الاحترام ، فان أقل ما نتوقعه من اي من دول المعسكر الاشتراكي هو الاحجام عن تقديم اي عون مالي او تقني لهذه الانظمة» (٤٠) .

لم تعكس القوة التي اكدت بها كوبا برنامجها في الاممية الثورية اية روح مغامرة رومانسية ، كما ادعى بعض نقادها ، بل عكست بوضوح الحاجات الحقيقية للثورة الكوبية . فكوبا معزولة دبلوماسيا ومقطوعة عن اسواقها الطبيعية بفعل الحصار الاميركي ، كما انها تتعرض باستمرار الى غارات تخريبية حثيثة ويتهددها علـــى الدوام خطر الغزو العسكري ، ولذا كان من الطبيعي ان ترى في تقدم الثورة في اميركا اللاتينية أملها الرئيسي في الدعم والبقاء (٤١) . فأعلن سكرتير الحـــزب الشيوعي الكوبي في آب ١٩٦٦ : «اننا نشعر اننا جزء لا يتجزأ من هذه القارة التي قدر لها ان تلعب دورا حاسما في العالم . ونحن نعتبر انتصارات الثورات الاميركية اللاتينية انتصارات لنا ...» (٤٢) .

وكما ان سياسة واشنطن العدوانية المضادة للثورة حفزت تطور الاممية الكوبية، كذلك حثت على نمو نظرة واهتمام شبيهين في صفوف الحركات الثورية الاميركية اللاتينية . فقد ادت طبيعة الهيمنة الاميركية ذاتها على المنطقة وسيطرتها بلا منازع عليها الى قيام روابط متينة بين قوى المقاومة الثورية . وعقب انتصار الثـــورة الكوبية ، سارع انضواء كل القوى المضادة للثورة تحت لواء واشنطن (٤٣) عملية قيام الروابط الامميـة .

«لا يمكن النظر الى التحرر القاطع من ربقة الامبريالية الا على امتداد القـــارة بأكملها . ينبغي على العمل التحرير ان يتخطى الحدود . فالامبريالية تعمل علـــى مستوى عالمي للقضاء على هذا النضال ، وهي تجبر كل حكومات القارة على الالقاء بنفسها في صراع بين الاخوة . ينبغي على الثورة الاجتماعية ان تتخذ طابعـــا امميا ... » (٤٤)

---

٤٠ ــ الخطاب الاختتامي في المؤتمر الاول لمنظمة التضامن الاميركية اللاتينية ، ١٠ آب ١٩٦٧ .

٤١ ــ بعكس الوضع في آسيا بالنسبة للصين ، لم يكن الوضع في اميركا اللاتينية يمنح كوبا اي امل في ان تكسر اي من الجمهوريات التابعة الحصار (على الرغم من ان المكسيك احتفظت بعلاقـات دبلوماسية مع كوبا) .

٤٢ ــ ورد في «الثورة الاميركية اللاتينية : مرحلة جديدة» ، منثلي رفيو ، شباط ١٩٦٧ .

٤٣ ــ تمثل ذلك بأكبر قدر من الوضوح في محاولة تشكيل قوة دفاع مشتركة بين دول اميركـا اللاتينية والولايات المتحدة ، كما تمثل بشكل اقل انكشافا في سلسلة كاملة من الاجراءات المعروفة.

٤٤ ــ من «بيان الى الامة» الذي اصدرته الحركة الثورية المستقلة في البيرو في تشرين الثاني ١٩٦٠ . لاحظ التصريح التالي الذي ادلى به لوبن بيتكوف ، الرجل الثاني في جبهة التحرير الوطني =

غير ان الحركات الثورية ، في تأكيدها على الاطار الاممي للمواجهة ، لم تتجاهل البعد القومي لها . فالتحرير «لا يمكن ان يصبح حقيقة واقعة الا عبر ثورة قومية وشعبية : قومية لانها تنتفض ضد السيطرة الاجنبيةالامبريالية اقتصاديا وسياسيا، وشعبية لانها ثورة الطبقات المستغلَة من اجل الطبقات المستغلة» (٤٥) . لقد كانت سياسات التدخل الاميركية ، وليس البرنامج الثوري ، هي التي وجهت ضربة قاضية الى مفهوم السيادة القومية . لقد كان تدخل الولايات المتحدة للحفاظ على الوضع الراهن في هذه المناطق الخارجية ضروريا الى حد شعرت معه واشنطن انها مضطرة الى الاقتراب من اعلان انقضاء المبدأ القومي . هكذا ، وفي اعقاب تدخل ثلاثين الفا من مشاة البحرية الاميركية لوقف ثورة الدومينيكان في نيسان ١٩٦٥ ، اعلن الرئيس جونسون :

«من بوتقة الدومينيكان ، يتوجب الان على الامم الاميركية العشرين ان تقيم درعا اقوى في وجه النكبة .. ففي عالم اليوم ، حيث اعداء الحرية يتحدثون عن حروب تحرير وطنية ، فقد التمييز القديم بين حروب اهلية وحروب دولية الكثير من معناه » (٤٦) .

لم يكن هذا بالطبع غير محاولة وقحة بصورة خاصة لتبرير سياسة تدخل ضد الثورات الاجتماعية والقومية ، كانت واشنطن قد انتهجتها على امتداد فترة الحرب الباردة وبررتها بكلام شبيه وان يكن اقل وقاحة . اما الفارق ، وهو فارق هام ، فهو بالضبط فضح الذات الذي اضطرت اليه واشنطن . فعلى الرغم من انه جرت محاولة لاحصاء ثلاثة وخمسين شيوعيا بين القوات الثورية في الدومينيكان ، الا انه لم يكن ممكنا حقا ربط الثورة (وبالتالي التدخل) بموسكو او بكين (٤٧) . وقد عكس ذلك حقيقة بالغة الاهمية هي انه وجدت للمرة الاولى منذ تشكيل الكومنترن مراكز ثورية وطنية متعددة ، ليست تحت سيطرة موسكو ولا واقعة تحت نفوذها ، مستعدة لتحدي النظام الامبريالي العالمي وحمل راية النضال الثوري على نطاق اممي حقا .

= الفنزويلية : «اننا لا نرى تحرير فنزويلا على انه تحرير للارض التي ولدنا عليها . كلا ، اننا عندما نتحدث عن تحرير فنزويلا فاننا نعني تحرير اميركا اللاتينية كلها ، اننا لا نعترف بحدود في اميركا اللاتينية . حدودنا حدود ايديولوجية . اننا نفسر التضامن الاممي بطريقة ثورية حقا ، ونحن لذلك ملتزمون بالقتال .. ضد الامبريالية الى ان لا يبقى لها وجود ..» . ورد في منتلي رفيو ، المصدر السابق .

٤٥ ــ بيان الحركة الثورية المستقلة ، المصدر السابق .

٤٦ ــ محاضر مناقشات الكونغرس التاسع والثمانين ، الجلسة الاولى ، ١ حزيران ١٩٦٥ .

٤٧ ــ لم تكن كوبا لتشكل عذرا مقنعا جدا للتدخل الاميركي لانها بلد صغير جدا تحيط به مياه تسيطر عليها الولايات المتحدة . وعلى اية حال فان الاستراتيجية الثورية التي ينادي بها القادة الكوبيون تدعو الى حركة ثورية لا يدار النضال فيها مركزيا بل يدار من بؤر العصابات الثورية ذاتها .

- ١٢ -

الحقبة وازمتها

«ان امة تضطهد اخرى لا يمكن ان تكون حرة» **ماركس**.

- ١ -

مع نهاية العقد الثاني من الحرب الباردة ، بدات التطورات داخل كل من المعسكرين العالميين تبشر بعهد جديد للعلاقات بين الامبريالية والثورة . والسمة الرئيسية لهذه الفترة التي تميزها عن فترة المواجهة السابقة بين كتل القوى القومية هي الاستقطاب الذي يتزايد وضوحا بين القوى الطبقية العالمية ــ بين الثورة الاشتراكية العالمية وبين الثورة المضادة الامبريالية التي تسيطر عليها البورجوازية .

كان هذا التطور ناجما جزئيا عن راديكالية الحركات القومية في العالم المتخلف بعد حصولها على الاستقلال ، وتبنيها برامج «طبقية» تربط الاستغلال الاقتصادي بالتبعية القومية ، والثورة الاشتراكية بالتحرر الوطني (١) . كما كان يعكس في جزء منه التقدم الذي تم احرازه داخل المعسكر الاشتراكي نفسه ، وكذلك مثل جزئيا انعطافا محافظا نهائيا في موقف القوة البورجوازية القائدة ، اي الولايات المتحدة التي كانت قد اتمت وعززت سيطرتها في فترة ما بعد الحرب .

كانت الاجراءات الليبرالية داخل الكتلة السوفياتية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمعنى من المعاني باتضاح محافظة القوى البورجوازية . هكذا فان التطورات الحديثة العهد داخل المعسكر السوفياتي وظهور مراكز ثورية جديدة لم يطلق الثورة من قيودها الروسية القومية ويسرّع التطور الاشتراكي باتجاه المثل الديمقراطية والاممية

---

١ ــ انظر مثلا قرارات المؤتمر الاول للقارات الثلاثة الذي انعقد في كانون الثاني ١٩٦٦ في هافانا.

الاشتراكية فحسب ، بل أزاح الستار عن الافلاس التاريخي للثورة البورجوازية في الحقبة القادمة .

فقد كانت خطابات «العالم الحر» تجد صدى لها في السيطرة السوفياتية على اقطار اوروبا الشرقية الواقعة ضمن منطقة «الامن» السوفياتية والاستغلال السوفياتي لها ، غير ان التحرر الذاتي الجزئي لهذه البلدان في منتصف الخمسينات حرم هذه الخطابات من كثير من مادتها . وبالتالي بدأ يتضح اكثر فأكثر ان المواجهة العالمية بين الطبقات المستغِلة والمستغَلة تمتد من الشرق الى الغرب ، من الثورات الصاعدة في العالم المتخلف الى قوى حلف الاطلسي الاستعمارية والاستعمارية الجديدة . واصبح الطابع الاساسي لصدام ما بعد الحرب واضحا حتى للشعوب الغربية ذاتها، اذ عبر عنه قتل قوى حلف الاطلسي لاكثر من اربعة ملايين من البشر (فلاحين في معظمهم) في عمليات مضادة للثورة خلال العقدين الاولين بعد الحرب (٢) ، واستمرار هذه العمليات خلال العقد الثالث بقدر اكبر من الشراسة .

وكان هناك أمران سمحا للدول البورجوازية ـ الديمقراطية ان تحافظ ـ على الاقل في أعين شعوبها ـ على تقدميتها الوهمية . وهذان الامران هما اولا اقتصار الثورة الاشتراكية على المناطق المتخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وثانيا بقاء نظام الحزب الواحد في الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية بشكل عام (٣) . ومع ذلك ، بدات التطورات داخل المعسكر الرأسمالي نفسه تقترن بسرعة بالتحولات في «الشرق» لتكشف ضعف التزام البورجوازية بالمثل البورجوازية وتفوق التزامها بالقوة البورجوازية وبقائها . فكان ان سرّعت هذه التطورات الوجهة التاريخية وعمقتها .

في السابق ، كانت المحافظة الاساسية التي يتسم بها الغرب الرأسمالي مطموسة الى حد ما بفعل الصراع الذي لم ينته بين القوى الاقطاعية ـ الفاشية والقوى الليبرالية ـ الامبريالية ، وكذلك بفعل معارضة الولايات المتحدة الغامضة لبقايا الاستعمار الاوروبي . غير ان هزيمة المحور النازي وانحسار الاستعمار عن معظم الامبراطوريات القديمة واحتلال الولايات المتحدة لموقع السيطرة العالمية بلا منازع وتبنيها بشكل عام لنظام استعماري جديد خاص بها ، احدثت جميعا تغيرا في ميزان القوى العالمية . فبينما ظهرت الولايات المتحدة في مطلع القرن متنكرة

---

٢ ـ في قمع الثورات الوطنية في مدغشقر وكينيا والكونغو وغير ذلك من الاماكن في افريقيا ، قتل اكثر من مئة الف ، وفي الحرب الاهلية والتدخل في كوريا بين مليون ومليونين ، وفي حرب التحرير الجزائرية مليون وفي حرب التحرير الوطني الفيتنامية ضد الفرنسيين مليون وضد الاميركيين أكثر من مليون بكثير ، بالاضافة الى آلاف أخرى في التدخلات في الصين وكوبا وغواتيمالا والدومينيكان ومصر وعدن وعمان وغيانا البريطانية واندونيسيا والملايو وغير ذلك من البلدان .

٣ ـ هنا يجب اعتبار كوبا استثناء هاما وان يكن جزئيا . فعلى الرغم من ان كوبا دولة حزب واحد (محاصرة عمليا) ، الا ان بنيتها السياسية ليست على الاطلاق وحدانية بالمعنى الذي يمكن لهذا الاصطلاح أن يطبق به على الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشيوعية الاخرى .

بزي القوة المحررة بين القوى المسيطرة في النظام الراسمالي العالمي ، اصبحت هذه الدولة الاقوى والاكثر تقدما وديمقراطية بين الدول الراسمالية تبدو الان ، ضمن الاطار الجديد الذي خلقته هذه التطورات ، الوصي المحافظ على الوضع الراهن الدولي .

ولعل من ابلغ الدلائل على هذا التحول دعم واشنطن للانقلاب الفاشي في اليونان في نيسان ١٩٦٧ (٤) . فقد بدا هذا الانقلاب في ضوء مختلف تماما عن ذاك الذي بدا فيه التدخل الاميركي السابق لصالح الرجعية والملكية اليونانية عام ١٩٤٧ ، وذلك نتيجة للانفراج الحديث العهد بين موسكو والولايات المتحدة والتطورات المركزية داخل الحركة الشيوعية العالمية . ففي هذا النطاق العالمي المختلف ، لم يكن احد يستطيع ان يصور الانقلاب بأي قدر من الموثوقية على انه عمل دفاعي ضروري ، وان يكن مؤسفا ، ضد التوسعية الروسية . بل انكشف الانقلاب على حقيقته : محاولة فاشية كلاسيكية لاغلاق الباب الليبرالي امام الثورة الاشتراكية والشيوعية الداخلية . وقد عبر دعم الولايات المتحدة الضمني ، ولكن الحاسم ، للانقلاب ضد القوى «الليبرالية» ذاتها التي حاربت الشيوعيين عام ١٩٤٧ (في غياب التبرير التقليدي ، الا وهو احتواء توسع خارجي) ، عبَّر بفصاحة عن التغيرات التي ادت اليها العلاقة الجديدة بين القوى العالمية .

ولا شك في ان استعداد اميركا للتخلي عن الثورة البورجوازية ــ الديمقراطية من اجل الحفاظ على الوضع الراهن قد بدا بقدر اكبر من الوضوح في فشل برنامج «التحالف من اجل التقدم» الذي بدأته اميركا عام ١٩٦١ لحفز «الثورة الديمقراطية» في اميركا اللاتينية كبديل للاشتراكية الكوبية . ذلك ان واشنطن لم تكتف بضم الدكتاتوريات القائمة في المنطقة الى «تحالف الحكومات الحرة» الذي اعلنته ، بل منحت كذلك الدعم في السنوات اللاحقة لكل انقلاب عسكري (بلا استثناء) ضد

---

٤ ــ طبقا لروايات موثوقة ظهرت وقت الانقلاب ، كانت خطة استيلاء العسكر على السلطة قد وضعت بمساعدة مستشاري الجيش اليوناني الاميركيين والتابعين لحلف الاطلسي ، وذلك كاجراء احترازي في حال نجاح الليبراليين في الانتخابات القادمة . وكان الدافع وراء هذا الاجراء الاحترازي مخاوف القصر والولايات المتحدة من الاتجاهات القومية والجمهورية الناشئة لدى الليبراليين . اما الانقلاب نفسه ، فقد اطلقه قبل أوانه ضباط صغار تفوق يمينيتهم يمينية القصر وحلفائه الاميركيين ، وهذا ما يفسر الجو المشحون بين القصر والانقلاب الذي لم يكن ليستمر ولو فترة قصيرة دون دعم الولايات المتحدة وموافقتها الضمنية . وفي حين ضغطت وزارة الخارجية الاميركية على النظام لاقامة واجهة ديمقراطية لاجراءاته القمعية ضد اليسار ، الا انها ، لم تصل الى حد توجيه انذار له . فكما لاحظت صحيفة الغارديان بعد مضي خمسة اشهر على الانقلاب : «لا يعتقد احد في اثينا ان وشنطن مستعدة لتقويض النظام ما دامت تخشى الفوضى التي يمكن ان تعقب ذلك» . ١١ ايلول ١٩٦٧ .

الانظمة الدستورية الباقية (٥) . وقد عبَّر احد موظفي سفارة اميركية عن النظرة المحافظة التي تكمن خلف هذه السياسة عندما فسر دعم الولايات المتحدة للدكتاتورية العسكرية الوحشية في باراغواي ، احد أفقر بلدان اميركا اللاتينية وأكثرها انسحاقا ، بقوله : «في التحليل الاخير ، سياستنا سياسة بقاء . ومن هنا فان نظاما معاديا للشيوعية ، مهما كان بغيضا ، أفضل من نظام مصلح ، مهما كان مخلصا ، يمكن ان يندار ضدنا» (٦) .

ليس غريبا اذاً ان تتخلى واشنطن علنا ، قبل مضي خمس سنوات على «التحالف» ، عن سياسة لم تكن في الواقع على استعداد يوما لوضعها موضع الممارسة ، أي بالتحديد سياسة دعم الاصلاح الاجتماعي البورجوازي والديمقراطية السياسية والالتزام بعدم التدخل في اميركا اللاتينية . فمنذ ذلك الحين لم تعد واشنطن تلتزم بما كان في نهاية الامر مجرد تنازلات تاكتيكية امام المشاعر الديمقراطية ، بل اصبحت تسعى بوضوح الى اهدافها الحقيقية كوصي امبريالي : فرض الاستقرار السياسي والاقتصادي الداخلي في الاقطار التابعة والتدخل المنسق والثورة المضادة للحفاظ على الوضع الراهن في القارة .

لقد برهن فشل برنامج الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الطموح الذي تبناه «التحالف» ، داخل نظام واشنطن الاستعماري الجديد ، برهانا ساطعا على عقم الامل في تقدم الاقطار التابعة ضمن المدار الرأسمالي في الحقبة التاريخية الراهنة ، كما برهن على طوباوية محاولة بعث الحياة في جثة الثورة البورجوازية بمساعدة القوى البورجوازية الامبريالية .

غير ان عمق التزام الولايات المتحدة بالوضع الراهن لم يبد في شكل اكثر حدة مما بدا عليه في تدخل واشنطن العسكري الهائل في فيتنام . ولم يكن هذا العدوان الوحشي فريدا بين الاعمال التي قامت بها واشنطن خلال الحرب الباردة ، ولكنه أوضح اكثر من اي تدخل سبقه الى اي حد يمكن لواشنطن ان تذهب في سبيل

---

٥ ــ في ظل ادارة كينيدي «الليبرالية» وحدها ، نظمت انقلابات في سلفادور والارجنتين وبيرو وغواتيمالا واكوادور .

٦ــ يملك أقل من ربع سكان باراغواي ثلاثة أرباع الارض . ثمانون بالمائة على الاقل وربما تسعون بالمائة ، من السكان أميون . خمسون بالمائة من ميزانية الدولة تنفق على الجيش (يفوق عدد الجنود عدد العمال المنتجين بنسبة الضعف) ، والوضع السياسي في ظل دكتاتورية ستروسنر سيء جدا الى درجة ان عدد المنفيين يقدر بثلث السكان . ومع ذلك تلقت باراغواي خلال اول عام ونصف من «التحالف» في ظل ادارة كينيدي ٩ر١٥ مليون دولار ، اي انها كانت واحدة من الدول التي خصها «التحالف» باكثر أفضاله . ادلى الدبلوماسي الاميركي بالملاحظة السالفة عندما واجهه المراسل الصحفي جون غراسي ببيان اصدره كارلوس باستور ، رئيس حزب الاحرار المنفي ، وقال فيه : «لو اوقفت الولايات المتحدة عونها لستروسنر اليوم ، لامكن انقاذ الديمقراطية غدا» . جون غراسي : الخوف البالغ في اميركا اللاتينية ، ص١٢٧ .

دحر ثورة اجتماعية تتهدد نظامها العالمي بالخطر . فقد ضربت عرض الحائط بالسيادة القومية وحقوق تقرير المصير ، وشنت حربا لم يسبق لها في شراستها مثيل ، حتى الى حد افناء مجتمع متخلف فقير ، وكل ذلك كي تحول دون الشعب الفيتنامي والسير في طريق مستقل .

ولا شك في ان هذا الهجوم الوحشي الذي شنته اعظم قوة صناعية في العالم على بلد فلاحي مفقر جعل ملايين من الناس يدركون للمرة الاولى الماهية الحقيقية لامبريالية الولايات المتحدة ، تلك الامبريالية التي كانت مختفية خلف عزلتها الجغرافية والدور الذي استطاعت ان تلعبه خلال سني غروب القوة الاوروبية . فكما لاحظ تروتسكي قبل زمن : «الامبريالية الاميركية قاسية وقحة . انها ضارية، بكل ما للكلمة من معنى ، ومجرمة . ولكنها ، بسبب الشروط الخاصة للتطور الاميركي ، تتمتع بامكانية التحلي برداء السلامية» (٧) .

لكن هذه الشروط الخاصة لم تعد سائدة في منتصف العقد الثاني من الحرب الباردة . فتكشفت بوضوح في التدمير المتعمد لفيتنام وحشية الامبريالية الاميركية وانتصارها على المثل الاميركية الليبرالية .

«ان كل قنبلة تلقى على فلاحين مساكين انما تدمر الادعاء الذي كان باستطاعة الديمقراطية الغربية ان تدعيه يوما ما ، ادعاء الولاء للانسانية ، ادعاء انها ليست مجتمعا ارهابيا ، انها رغم كل نقائصها طريقة لحل المشاكل سلما ، وانها لهذا السبب بالذات تستحق الدفاع عنها . في الواقع ربما كان هذا وهما على الدوام . على اية حال ، غدت عناوين الصحف تدمر هذا الوهم كل يوم» (٨) .

وقال والتر ليبمان بعد جولة في اوروبا عام ١٩٦٧ :

«هناك قناعة متزايدة ان اميركا جونسون لم تعد اميركا التاريخية ، انها امبراطورية زائفة تعتمد على القوة المتفوقة لتحقيق اغراضها ، وانها لم تعد تقدم مثالا لحكمة وانسانية مجتمع حر . لا شك في ان الحسد والخوف والمنافسة تتخلل جميعا العداء للجونسونية على امتداد العالم . لكن جوهر هذا الشعور هو الاحساس بالخيانة والتخلي . انه احساس بأن الوعد الاميركي قد خين وتخلي عنه» (٩) .

قد يقال ان الحرب الفيتنامية لا تمثل غير حدث عابر رهيب وليست تعبيرا واضحا عن وجهة تاريخية حقيقية ، وان الاستقطاب الواضح في هذا الصدام وفي مناطق أخرى لا يمثل غير احتداد مؤقت للصراع الطبقي وليس تطورا بعيد المدى والافق . كان يمكن لفرضية كهذه ان تكون مقنعة لولا التجربة التاريخية المتراكمة، تجربة التدخل المضاد للثورة والالتزام المستمر بالوضع الراهن السياسي والاجتماعي

---

٧ ـ عصر الثورة الدائمة ، ص ٢١٠ .

٨ ـ بارينجتون مور جونيور ، لماذا نخشى الفلاحين الثائرين ، في مجلة نيشن ، ٢٦ ايلول ١٩٦٦ .

٩ ـ والتر ليبمان ، الوعد الاميركي ، مجلة نيوزويك ، ٩ تشرين الاول ١٩٦٧ .

عالميا الذي لا تشكل حرب فيتنام غير انعكاس مخصوص له . وبالاضافة الى ذلك ، يمكننا ان نرى خلف هذه التجربة التاريخية وهذا الالتزام قوى بنيوية ضخمة تعمل في قلب الحقبة الراهنة ، قوى ستزيد على المدى الطويل من حدة الصدام وتؤدي الى مواجهة بين الثورة الاشتراكية العالمية والثورة المضادة البورجوازية التي تسيطر عليها الامبريالية .

- ٢ -

لا شك في ان اندفاع الامبريالية الاميركية التوسعي في فترة ما بعد الحرب هو أهم هذه القوى . وفي العادة يعبر عن هذا التوسع سياسيا بأنه كان علامة انتهاء «عزلة» الولايات المتحدة ، ويقاس عسكريا بآلاف القواعد العسكرية التي اقيمت على طول العالم وعرضه . اما اقتصاديا فقد دعم هذا التوسع ببرنامج اكثر اهمية على المدى الطويل ، هو برنامج الاستثمار الصناعي والمالي فيما وراء البحار .

زادت الاستثمارات الاميركية المباشرة في الخارج اكثر من سبعة اضعاف بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦٦ ، اي من ٢ر٧ بليون دولار الى ٦ر٥٤ بليون دولار (١٠) . ومع عام ١٩٦٤ ، كان مبيع السلع الاميركية في الخارج قد تضاعف ثلاث مرات منذ عام ١٩٥٠ ، وكان حجم السوق الاجنبي للشركات الاميركية عام ١٩٦٥ يعادل تقريبا اربعين بالمائة من الانتاج المحلي للشركات والمصانع والمناجم الاميركية . وفي الواقع كانت الشركات الاميركية في الخارج ثالث اكبر وحدة اقتصادية في العالم بعد الاقتصادين المحليين الاميركي والسوفياتي .

ولا يقف الامر عند اتساع الاستثمار الاميركي فيما وراء البحار على نطاق لم يسبق له مثيل ، بل أصبح هذا الاستثمار حيويا اكثر فاكثر لازدهار الاقتصاد المحلي ذاته . ففي عام ١٩٦٤ ، وفي قطاع السلع الرأسمالية الحاسم ، بلغ الدعم المشترك الذي قدمته الصادرات والاستثمار العسكري (ومن الواضح ان هذا العامل الثاني متعلق بالعامل الاول ، عامل الصادرات) ما بين عشرين وخمسين بالمائة من الناتج الاجمالي (١١) . ومن الواضح ان قادة الولايات المتحدة الذين وجهوا هذا التوسع في فترة ما بعد الحرب لم يكونوا على جهل بأهميته بالنسبة للاقتصاد المحلي . اكثر من ذلك ، وضع هؤلاء القادة هذا الاعتبار في مركز حساباتهم . ذلك

---

١٠ ــ جوزف فيليبس ، الآثار الاقتصادية للحرب الباردة ، المصدر السابق . بالمقارنة هبطت الاستثمارات المباشرة للشركات الاميركية في الخارج خلال الاعوام السبعة عشر السابقة من ٥ر٧ بليون عام ١٩٢٩ الى ٢ر٧ بليون عام ١٩٤٦ . انظر باران وسويزي ، ملاحظات حول نظرية الامبريالية .

١١ ــ كل هذه الارقام مأخوذة من هاري ماغدوف ، الاوجه الاقتصادية لامبريالية الولايات المتحدة (كتيب) ، منثلي رفيو برس ، ١٩٦٦ .

ان قادة الولايات المتحدة خلال الركود العظيم راوا ، كمن سبقهم ، ان حل المشكلة الاقتصادية المحلية ليس في احداث تغييرات بنيوية داخلية بل في توسيع الحدود خارجيا وباستمرار .

ففي تشرين الثاني ١٩٤٤ ، عشية التوسع الاقتصادي بعد الحرب ، لم يحاول نائب وزير الخارجية دين اتشيسون اخفاء المضامين الخطيرة للأزمة الاقتصادية ، اذ قال لجمهور من رجال الكونغرس :

«اننا لا نستطيع ان نعيش عشر سنوات اخرى كتلك السنوات العشر في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات دون ان يكون لذلك ابلغ الآثار على نظمنا الاجتماعية والاقتصادية ... يجب علينا ان نضمن بيع ما ينتجه البلد بموجب اتفاقات مالية تجعل هذا الانتاج ممكنا» .

وحلل اتشيسون الاختيارات المتاحة بطريقة اورثوذكسية تماما تتفق مع نظرة واشنطن التقليدية ونظرة الطبقة الاميركية الحاكمة ، فقال انه طالما ظل اقتصاد الولايات المتحدة اقتصادا راسماليا فان الاسواق المحلية لن تكون كافية لاستيعاب الانتاج على اسس مربحة بما يكفي للحفاظ على مستوى الانتاج والعمالة . واضاف اتشيسون يقول : «في ظل نظام مختلف ، يمكن ان يستخدم انتاج البلاد كله في الولايات المتحدة» . لكن اقامة نظام كهذا ، اي الاشتراكية ، سيؤدي «الى تغيير دستورنا وعلاقتنا بالملكية والحرية الانسانية ومفهومنا للقانون . وما من احد يتخيل ذلك . ولذا عليكم ان تنظروا الى اسواق اخرى ، وهذه الاسواق موجودة في الخارج » (١٢) .

ان ملاحظات اتشيسون ، التي لم تكن غير تعبير عن راي اجمعت عليه القيادة الاميركية في ذلك الحين ، تعكس تماسك ايديولوجية الامبريالية الاميركية . ففي حسابات القادة الاميركيين ، من وليام ماكنلي الى فرانكلين روزفلت ومن وودرو ولسون الى جون كينيدي وليندون جونسون ، يعزى الحفاظ على الازدهار الاميركي والمؤسسات الاميركية ـ على «طريقة الحياة الاميركية» ـ الى الحفاظ على سيطرة الولايات المتحدة على الاسواق العالمية وتوسيع هذه السيطرة ، وبالتالي التوسع المحتم لقوة الولايات المتحدة وراء البحار . واذا نظرنا الى الحرب الباردة من هذا المنظور ، تمكن رؤيتها ، كما تراها الطبقة الحاكمة الاميركية ، على انها بالتحديد حرب من اجل توسيع الحدود الاميركية .

وبالطبع لا تعني «الحدود» هنا حدودا بالمعنى الاقليمي ، بل تعني مجموعة من المؤسسات السياسية والمواقف الايديولوجية تقوم ، كما لا بد لها ضمن هذا المفهوم ان تقوم ، على نظام «اقتصاد حر» عالمي مفتوح لتغلغل راس المال الاميركي وسيطرته.

---

١٢ ـ ورد في وليام وليامز ، مأساة الدبلوماسية الاميركية ، ص ١٤٨ وص ١٦٩ . انظر بخاصة الفصل السادس للاطلاع على تقديرات شبيهة بتقديرات اتشيسون .

وينظر الى امن هذه المؤسسات في الداخل على انه يعتمد على الحفاظ على قلاعها المتقدمة فيما وراء البحار ، اي باختصار على حدود الولايات المتحدة فوق الجغرافية، على «العالم الحر» .

يمكن ان يقال هنا ان النظرة التوسعية التقليدية للطبقة الحاكمة الاميركية تقوم على مفهوم هوبسوني خاطىء للاقتصاد الرأسمالي(١٣) . ولذا لا بد ان تتغير هذه النظرة، ويؤدي ذلك الى اعادة توجيه الطاقات الاميركية من مشاريع التوسع والسيطرة ضمن حدود خارجية الى برنامج اعادة بناء وتأهيل في الداخل ، الحاجة له ملحة . فمن الواضح انه مع تطور وقبول العقيدة الكينزية تستطيع الحكومات الرأسمالية ان ترفع ، باجراءات تتخذها هي ، مستوى الطلب المحلي الفعال ، وبالتالي تخفف من ضرورة الاقتصاد التوسعي والسياسة التوسعية .

ولكن حتى لو سلمنا ان نقص الطلب على المستوى القومي كان السبب الاساسي لتوسع اميركا وراء البحار ، فليس هناك من اساس تاريخي لتوقع اجراء مراجعة للاولويات القومية عبر تطبيق العلاجات الكينزية ، ذلك ان العقدين الاولين بعد الحرب شهدا قبولا متزايدا للتحليل الكينزي والاساليب الكينزية ، ولكنهما مع ذلك شهدا توسع الاستثمارات الاميركية في الخارج على نطاق لم يسبق له مثيل من قبل. اضافة الى ذلك ، كان توسع الموازنة الفيدرالية موجها اساسا نحو الاستثمار العسكري (بزيادة قدرها ٩٠٫٤ بليون دولار منذ عام ١٩٤٦ ، اي بما يعادل ٥٧ بالمائة من الاستثمار الكلي) (١٤) . وفي الواقع لم تكن هناك اي زيادة في نسبة مستوى الانفاق غير العسكري الى الناتج القومي الاجمالي(١٥) . فاذا اخذنا بالاعتبار الطبيعة الطبقية للرأسمالية الاميركية الاحتكارية ، بمقاومتها الحادة لاية اجراءات تهدف الى اعادة التوزيع وتقسيم الموارد بشكل يعاكس قنوات السوق القائم او يحد منها(١٦)، تبين لنا الطريقة الوحيدة لرفع مستوى الطلب بصورة فعالة هي خلق وتزويد آلة حربية ضخمة . ان السياسة الكينزية لم تجعل ممكنا التخلي عن الحدود الخارجية، فكل ما فعلته في الممارسة هو خلق بيروقراطية جديدة هائلة القوة لها ، الى جانب حلفائها من الرأسماليين الاحتكاريين ، مصلحة حيوية متزايدة في الحفاظ على امبراطورية ما وراء البحار وتوسيعها .

وبكلمات اخرى ، ان المحصلة الكلية لتطبيق الوصفات الكينزية هي زيادة حدة النزعة التوسعية للسياسة الاميركية وليس التخفيف منها . على اية حال ، لو افترضنا انه يمكن توزيع الموارد الفيدرالية بحيث تشبع الحاجات المحلية على مستوى يكفي للحفاظ على الطلب ـ رغم كل التجربة التاريخية التي تشير الى عكس ذلك ـ فان ذلك لن يستطيع كبح جماح اندفاع الامبريالية الاميركية الى الخارج . ذلك ان الضغط الاساسي الذي يكمن خلف التوسع الامبريالي ليس المستوى الكلي

---

١٣ ـ انظر الملاحظة رقم ١٥ ، الفصل الاول من هذا الكتاب .

١٤ ـ وليم فولبرايت ، المجتمع العظيم مجتمع مريض ، نيويورك تايمز ، ٢٠ آب ١٩٦٧ .

١٥ ـ هانسن ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

١٦ ـ ماغدوف ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

للطلب ، رغم ان ذلك عامل مؤثر ، بل هو ضغط النظام ذاته : الصراع التنافسي للسيطرة على الاسواق ، او كما قال لينين الصراع من اجل اتمام الاحتكار لا في الداخل فحسب بل عالميا كذلك (١٧) .

ان الامبريالية ، اذا نظر اليها نظرة صحيحة ، ظاهرة «طبقية» تجد مركزهـا الدينامي على مستوى الشركات الكبيرة (ضمن اطار السوق الاقتصادي)(١٨). فمثلا لا يعود التوسع العالمي للصناعة النفطية الاميركية الى هوامش الربح المحلية (رغم ان هذه تلعب دورا بالتأكيد)(١٩) قدر ما يعود انتشار المورد النفطي ذاته قلى امتداد العالم وضرورة السيطرة على مصادر النفط للحفاظ على اسعار احتكارية للمنتوج الجاهز (لا في الخارج فحسب بل وفي الداخل ايضا) (٢٠) .

اقترنت عدة عوامل لتحفز التوسع فيما وراء البحار بعد الحرب . وتضم هذه العوامل : انضغاط الربح المحلي ، وموجة جديدة من اندماج الشركات الكبيرة بعضها ببعض ، والخوف من حدوث ازمة تحول اقتصادية (اي التحول من الانتاج الحربي الى الانتاج المدني) واثر ذلك على وفرة التمويل الحكومي ، والقومية الاقتصادية في العالم المتخلف(٢١)، واستمرار ضغط القوى الانتاجية على الحدود القومية. وقد كانت التقنيات الجديدة (التي حفزت الحرب الكثير منها) تتطلب ، كي تتطور تجاريا ، بحوثا كثيفة واستثمارات انتاجية وبالتالي اسواقا ضخمة توزع عليها نفقات الانتاج. وفي الوقت ذاته وحدت وسائط الاتصال الحديثة ووسائل الاعلام الجماهيري الاذواق في البلدان المختلفة ، بينما ادى نهوض القومية الاقتصادية ، مقترنا في كثير من

---

١٧ ــ انظر الملاحظة رقم ٦ ، الفصل الاول من هذا الكتاب .

١٨ ــ «في البداية يجب التأكيد على ان المعدلات الكلية المألوفة المحتسبة على اساس قومي ــ الناتج القومي الاجمالي ، الدخل القومي ، العمالة الخ ــ لا شأن لها اطلاقا عند تفسير السلوك الامبريالي . فهذه في المجتمعات الراسمالية حسابات تجري من بعد ولا تلعب سوى دور سببي محدود ان كانت تلعب اي دور كهذا . ولا يهم في الامر شيئا اذا كانت «نفقات» الامبريالية (من حيث الانفاق العسكري والخسائر في الحرب والمساعدة للدول العميلة وما شابه ذلك) اكبر او اقل من «العوائد» ، وذلك لسبب بسيط هو ان الشعب كله يتحمل النفقات، بينما تعود العوائد لذلك القطاع الصغير المسيطر من الطبقة الحاكمة الذي يملك مصالح عالمية كثيفة . فاذا ابقينا هاتين النقطتين في الذهن ، تبين لنا ان كل المحاولات الليبرالية والاشتراكية الديمقراطة لدحض النظريات الماركسة في الامبريالية ــ او اذا شئت اية نظريات اقتصادية اخرى ــ على اساس ان الامبريالية «غير مربحة» بمعنى او بآخر لا اساس لها علميا» . باران وسويزي ، ملاحظات حول نظرية الامبريالية .

١٩ ــ مثلا ، بينما كان عشرون بالمائة فقط من موجودات شركة ستاندارد اويل الاميركية موجودا في اميركا اللاتينية ، جنت هذه الشركة اربعين بالمائة من ارباحها في تلك المنطقة .

٢٠ ــ ماغدوف ، المصدر السابق .

٢١ ــ انظر الملاحظة رقم ٣١ من هذا الفصل .

الاحيان بنقص العملات الاجنبية ، الى اصرار الحكومات على ان تكون السلع العالمية التي تشتريها منتجة على ارضها هي .

فكان ان ادت هذه التطورات الى ظهور شكل جديد من الشركات ، تلك هي الشركات العالمية . وتقوم هذه الشركات بعمليات التصنيع والتسويق في عشرات من الاقطار ، وتتميز حتى عن سابقاتها من الشركات العملاقة بأنها لم تعد تنظر الى مصادر اجنبية لتحقق فيها حصة هامة من المبيعات والارباح والنمو ، بل انها «تسعى الى نشر موارد الشركة على نطاق عالمي لتحقيق الفرص التجارية في اي مكان في العالم» (٢٢) . وما ان تثبت هذه الشركات العالمية نفسها في اسواق «خارجية» حتى تسعى الى السيطرة على هذه الاسواق سيطرة كاملة ، ذلك انها تخوض صراعا مميتا مع شركات عملاقة اخرى للسيطرة على الاسواق على نطاق عالمي (ان سيطرة الشركات العالمية الاميركية ضمن الاقتصاد السياسي الاميركي تقوم على حقيقة بسيطة هي ان ازدهار هذا الاقتصاد السياسي تعتمد على ازدهار هذه الشركات ، وهذه السيطرة تضمن للشركات نفوذا حاسما على السياسة الخارجية الاميركية يدفعها الى دعم عمليات هذه الشركات) (٢٣) .

من هنا ، ليس مهما الا تشكل الصادرات الكلية او «الارباح الاجمالية» من الاستثمارات الخارجية غير جزء ضئيل من الناتج القومي الاجمالي للقوة التوسعية، رغم ان هذه الحقيقة كثيرا ما تستخدم لتحدي القول بأهمية الدوافع الاقتصادية في بنية التوسع الاميركي . المهم هو دور الاستثمارات الخارجية للشركات الاميركية العملاقة في عمليات هذه الشركات ذاتها ، والدور الحاسم الذي تلعبه هذه الشركات في الاقتصاد المحلي الاميركي والسياسة المحلية . ان الدلائل تشير الى ان هذين الدورين حاسمان فعلا . فمثلا بلغت مصادر الكسب الخارجية عام ١٩٦٤ نحو ربع الارباح المحلية غير المالية للشركات . اما بالنسبة لتركز راس المال ، فقد امتلكت الشركات الاميركية المائة الكبرى ، اي اقل من ١ر. بالمائة من مجموع الشركات الاميركية ، ٥٥ بالمائة من مجموع حاصل الموجودات الراسمالية ، وضمن هذه الشركات المائة تندرج الشركات العملاقة في المجال العالمي(٢٤). اكثر من ذلك، لا يقف

---

٢٢ ـ وجد ان هذا التحول في نظرة الشركات يحصل عندما يتخطى الاستثمار الاجنبي المباشر لشركة ما عشرين بالمائة من موجوداتها الكلية . غيلبرت كلي ، الاستثمار وراء البحار ، في «الولايات المتحدة» ملحق اصدرته الفاينتشال تايمز في ١٢ نيسان ١٩٦٥ . كلي هو مدير شركة ماكنزي ، احدى الشركات الاستشارية الرئيسية التي تقدم النصح للشركات العالمية .

٢٣ ـ كذلك تمارس الشركات الضخمة تأثيرا مباشرا على السياسة الخارجية الاميركية بطرق متعددة. انظر وليم دومهوف ، من يحكم اميركا ؟ اما كتاب روبرت انفلر ، سياسة النفط، فيبين التأثير البالغ والسيطرة المكشوفة لصناعة النفط العالمية على السياسة الخارجية الاميركية .

٢٤ ـ انظر ايضا الملاحظة رقم ١٨ .

التركز عند الحدود القومية ، فهناك ٤٥ شركة اميركية تملك ٦٠ بالمائة من الاستثمار الاجنبي الاميركي بينما تملك ١٦٣ شركة ٨٠ بالمائة من هذا الاستثمار(٢٥). وبالاضافة الى ذلك ، يقدر على اساس المعدلات الراهنة لنمو الشركات الاميركيـــة فيما وراء البحار انه خلال العقد القادم ستسيطر ٣٠٠ شركة عالمية ، بينها ١٧٥ شركة يملكها اميركيون ، على ٧٥ بالمائة من الموجودات الصناعية في «العالم الحر» كله باستثناء القطاع العام (٢٦) .

- ٣ -

لا شك في ان ازدياد حصة الشركات الاميركية في الاقتصاد العالمي بعد الحرب، من مقدار متواضع كان يبلغ ٢ر٧ بليون دولار الى ٥٠ بليون دولار في الاستثمارات المباشرة وحدها (٨ر٧٠ بليون دولار في الاستثمارات الاجنبية الخاصة كلها) لعب دورا رئيسيا في نمو النزعة المحافظة للطبقة الحاكمة الاميركية وفي ازدياد حدة التزام واشنطن بالحفاظ على الوضع الراهن العالمي . ومن الضروري ، كي نستطيع تقييم اثر هذا التوسع على الاستقطاب الكلي للقوى البورجوازية والاشتراكيةالعالمية، ان نقدر اثره على البورجوازيات في العالمين المتخلف والمتقدم على السواء . ويجب ان نتساءل بشكل خاص عما اذا كان يمكننا ان نتوقع قيام اي قطاع من القـــوى البورجوازية العالمية باحتلال الموقع الطليعي الذي أخلته الولايات المتحدة عندمـــا تبوات دور شرطي نظام الملكية والامتيازات العالمي والمستفيد الاكبر من هذا النظام. ذلك ان افلاس البورجوازية كقوة تاريخية امر محتوم اذا فشلت في الحفاظ على تلك المثل التي ارتبطت بها ابان صعودها والتي استمرت في تزويدها بشرعيتها في الوقت الراهن . وبالمقابل فان التزام قطاع البورجوازية العالمية التزاما جديا بهذه المثل ضد تعدي الامبراطورية الاميركية المحتوم عليها سيؤدي الى بعث الحياة في الثورة البورجوازية الديمقراطية والنظام الراسمالي .

لقد بدا ان فرنسا الديغولية رفعت في اوائل الستينات لواء تحد كهذا للتوسع الاميركي والسيطرة الاميركية ، على الاقل على صعيد الامكان ، وذلك بالنسبة الى التدخل الاميركي في فيتنام وتغلغل راس المال الاميركي في الاقتصاد الاوروبي . فقد زادت الاستثمارات الاميركية في اوروبا من بليوني دينار عام ١٩٥٠ الى ما يزيد على ١٥ مليونا بعد ذلك بعقد ونصف . وبالاضافة الى ذلك كان اكثر من نصف هذه الاستثمارات يتركز في حقل التصنيع بما في ذلك القطاعات الاكثر نموا والصناعات الاكثر تقدما في الاقتصاد الاوروبي . ففي فرنسا وحدها ، غدت الشركات الاميركية

---

٢٥ ـ الارقام مأخوذة من ماغدوف ، المصدر السابق .

٢٦ ـ ريتشارد باركر ، الشراكة الجديدة .

تسيطر على الصناعة الالكترونية بكاملها وعلى تسعين بالمائة من انتاج المطاط الصناعي وخمسة وستين بالمائة من توزيع النفط وخمسة وستين بالمائة من انتاج المعدات الآلية الزراعية .

كان المدى الهائل لهذا التغلغل يشير منذ البداية الى عقم معارضته في نهاية الامر . ولم يكن موقع الولايات المتحدة وحده هو الذي يشير الى هذا العقم ، بل كان يشير اليه كذلك ميزان القوى العالمية . ذلك انه كان يتعين على المعارضة الفرنسية للسيطرة الاميركية ان تخفف من غلوائها ادراكا منها لكون النظام الراسمالي لم يعد يتحمل صراع مواجهة بين القوى الراسمالية الكبرى . فلم يكن باستطاعة الفرنسيين استخدام قوتهم المالية للحد من تدفق راس المال الاميركي الى حد اثارة ازمة نقدية عالمية دون ان يتسبب ذلك في الوقت ذاته في تهديد خطير للطبقة الفرنسية الحاكمة ذاتها (٢٧) . ان اية بورجوازية اوروبية لا بد ان تتردد منذ البداية في السير على طريق المعارضة للولايات المتحدة حتى نقطة اللاعودة ، ويعود ذلك بالطبع الى قوة اليسار الفرنسي والاوروبي ووجود معسكر اشتراكي يتسع ويتقدم باستمرار .

«ان حقيقة اساسية تقف خلف ضعف البورجوازية الاوروبية وافلاسها التاريخي ، تلك هي ان الاساس البنيوي الوحيد الممكن لتطور اوروبي مستقل ، باستثناء «حل» فاشي غير عملي (٢٨) ، هو اساس اشتراكي .

لقد لاحظ المنظر البلشفي بريو براجنسكي قبل قرابة نصف قرن ان اميركا قد تبوأت موقعا مسيطرا في الاقتصاد العالمي ، واستخلص من ذلك نتيجة هامة : «ان التوسع الاميركي لا يمكن ان يواجه مقاومة صلبة لا سبيل الى كسرها في اي من اقطار العالم الراسمالي ما دام القطر الذي يتعرض للضغط والهجوم راسماليا» . والسبب في ذلك هو ان السيطرة الاميركية تعتمد على التفوق الساحق للاقتصاد الاميركي الاحتكاري المتقدم تقنيا في سوق عالمي يتكامل باطراد ، وهذا التفوق ذاته يضمن انتصار السيطرة الاميركية في اي منافسة ضمن هذا السوق في المستقبل.

«ان البنية الاقتصادية للبلدان الراسمالية اليوم تستثني هي ذاتها امكانية مقاومة جدية للغزو الاميركي . ذلك أن المستوى الذي وصل اليه التقسيم العالمي للعمل والتبادل العالمي ووجود ونمو التفوق الاميركي الاقتصادي والمالي والتقني الساحق على ما تبقى من العالم انما تخضع جميعا هذا العالم لعلاقات القيمة الاميركية . ان ايا من الاقطار الراسمالية لا يستطيع الانفلات من قانون القيمة (اي

---

٢٧ ــ انظر «الدولار والذهب» ، اربع مقالات عن المشاكل المالية والازمات في النظام الراسمالي العالمي ، منثلي رفيو ، كانون الاول ١٩٦٦ .

٢٨ ــ ان مزيجا من القومية المعادية للراسمالية الاميركية والقمع المعادي للطبقة العاملة وزيادة تدخل الدولة والتعبئة الاقتصادية ــ العسكرية مناسب جدا للمشكلة .

السوق) في شكله المعدّل دون ان يكف عن بقائه راسماليا . وعندئذ بالضبط يلقي الاحتكار الاميركي بثقله عليه . ولربما كانت المقاومة ممكنة فقط على اساس سياسي، وبالتحديد على اساس عسكري ، ولكن مقاومة كهذه لا يمكن ان تكون ناجحة بفعل التفوق الاقتصادي الاميركي ذاته» .

(وبفعل قوة اليسار وعامل الاسلحة النووية الرادع ، لا يمكن لاحد ان يجرب مقاومة كهذه) .

ويختتم بريو براجنسكي تحليله قائلا : «ان النضال ضد الاحتكارية الاميركية غير ممكن الا عبر تغييرات في بنية البلد المعني كلها ، اي بالانتقال الى اقتصاد اشتراكي «يسمح بتعبئة شاملة للموارد الاقتصادية» ويحول دون راس المال الاميركي والاستيلاء على فرع من فروع الصناعة اثر آخر ، كما يحدث اليوم بالاتصال (الطبيعي) بين الراسمالية الاميركية الراهنة وراسماليةالبلدان الراسمالية الاخرى.. ان حرية المنافسة القديمة مستحيلة بالنسبة لاوروبا اليوم بأي معنى كان . ان على اوروبا ان تختار بين احتكار راسمالي ، مربوط خارجيا الى احتكارية،الولايات المتحدة ، وبين احتكار اشتراكي داخلي» يجعل الاستقلال ممكنا (٢٩) .

وعلى الرغم من ان بريو براجنسكي طرح المشكلة قبل اوانها ، ألا ان تجربة ما بعد الحرب تبين ان الخيار الذي اشار اليه قد طرح فعلا على جدول الاعمال التاريخي .

- ٤ -

ان ما ينطبق في حقل القوة الاقتصادية على بورجوازيات البلدان المتطورة ينطبق بقدر اكبر من القوة على بورجوازيات العالم المتخلف . ومع ذلك كان هذا القطاع بالذات من البورجوازية العالمية هو الذي قدم في نضالات الاستقلال بعد الحرب احد الامثلة القليلة على القيادة البورجوازية الثورية بعد عام ١٨٤٨ . وعلى الرغم من انه في نهاية الامر لا يمكن احراز الاستقلال الاقتصادي في العالم المتخلف الا على اساس اشتراكي ، الا ان من المهم ان نبحث في الموقف الذي يمكن ان تميل طبقة كهذه الى اتخاذه في المراحل القادمة من السيرورة التاريخية .

في الواقع وكما رأينا سابقا ، يميل الاستيلاء على السيادة السياسية ، الى جانب انتصار الثورات الروسية والصينية والكوبية ، الى اضعاف الارادة الثورية للبورجوازية الوطنية في العالم المتخلف ، وخاصة عندما تنطرح المسائل الاقتصادية والاجتماعية (٣٠) . وبالاضافة الى هذه العوامل التي تدفع البورجوازية الوطنية

---

٢٩ ـ بريو براجنسكي ، الاقتصاد الجديد ، ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .

٣٠ ـ هناك حالات استثنائية خاصة على المدى القصير ، لكن الوجهة العامة على المدى الطويل واضحة بما فيه الكفاية .

باتجاه واحد ، هناك عامل آخر هو انماط الاستثمار الامبريالي الجديدة في فترة ما بعد الحرب . وقد بدات هذه الانماط مع النظام الكولونيالي ـ الجديد الذي اقامته للولايات المتحدة في اميركا اللاتينية ، كما انها ترتبط في فترة ما بعد الحرب بظهور الشركات العالمية .

كان الاستثمار في ظل الامبريالية الكلاسيكية يقوم الى حد بعيد على الصناعات الاستخراجية ، وكذلك على كظم صناعات المانيفاكتورة المحلية ، بينما كانت تستخدم قوة الدولة لفرض هذا النمط الاساسي . ولذا كان هناك صدام كامن بين متطلبات نمو بورجوازية محلية وبين سياسات القوة الامبريالية المستعمِرة ، فصار النمو الممكن للبورجوازية المحلية وقفا على التحرر من الحكم الاجنبي .

اما نمط الاستثمار بعد ـ الكولونيالي فمختلف تماما . فنتيجة لسياسات الحماية الوطنية التي انتهجتها الحكومات المستقلة المشكلة حديثا ، شعرت الشركات العالمية بضغط يدفعها الى الذود عن اسواقها باقامة صناعات تصنيعية داخل جدران التعرفة المقامة حديثا في المناطق المتخلفة . وكان هذا احد العوامل الحاسمة في التوسع الاقتصادي بعد الحرب (٣١) ، ونجمت عنه شراكة جديدة بين البورجوازية الوطنية والشركات الاجنبية (٣٢) .

فقد اصبح راس المال الاجنبي بحاجة الى البورجوازية الوطنية لتلعب دور الوسيط بينه وبين المحيط المحلي والدولة القومية التي لم تعد الدولة الاستعمارية الأم تمارس عليها سيطرة مكشوفة . وبالمقابل يمنح راس المال الوطني حصته في الصناعات التصنيعية والتسويقية الجديدة يمكن ان تبلغ ٥١ بالمائة او اكثر (ما يسمى «تهنيد» او «تمصير» الخ الاقتصاد) . وفي الواقع لا يزال التفوق التقني والاقتصادي للشركات يضمن لها السيطرة الفعالة على هذه الصناعات التابعة حتى ولو لم تكن تملك اغلبية الاسهم (٣٣) . اكثر من ذلك ، يظل الصدام بين سياسات هذه الشركات العالمية الاحتكارية ومتطلبات التطور الوطني حادا وبلا حل كما كان من قبل (٣٤) .

---

٣١ ـ انظر مثلا مايكل كيردون ، الاستثمارات الاجنبية في الهند ، ص ٢٥٣ وما بعد . كذلك ملاحظات هنري فورد الثاني ان «فورد البريطانية هي العملية الوحيدة من عمليات التصنيع والتجميع التي تمنا بها خارج الولايات المتحدة ولم تكن ، على الاقل جزئيا . رد فعل على الحواجز التجارية المقامة لحماية وتشجيع صناعة وتجميع السيارات محليا . صانداي تايمز ، ١٤ ايار ١٩٦٧ . لفورد عمليات في تسعة وعشرين بلدا .

٣٢ ـ مايكل كيردون ، الراسمالية العالمية ، في انترناشيونال سوشاليزم ، ربيع ١٩٦٥ .

٣٣ ـ بصدد اساليب السيطرة الجديدة الحاذقة ، انظر كيردون ، الاستثمارات الاجنبية في الهند، ص ٢٨٥ وما بعدها . حمزة علوي ، الامبريالية قديمها وجديدها ، سوشاليست رجستر ١٩٦٤ .

٣٤ ـ بصدد الصدام بين سياسات الشركات العالمية واحتياجات التطور الوطني ، انظر باران ، كيردون ، غندر فرانك وغيرهم .

هكذا بينما يميل التخلص من السيطرة الكولونيالية السياسية المباشرة وانماط الاستثمار الكولونيالية ـ الجديدة الى القضاء على آخر بقايا السمات الثورية للبورجوازية الوطنية ، فان السيطرة الفعلية على البلد التابع (التي تحكم ايضا عبر اعتماد البلد التابع على القوة المستعمرة ماليا واقتصاديا وعسكريا) تستمر ، وتظل المستعمرة ـ الجديدة اسيرة الاستنقاع الاقتصادي والتخلف .

وعاجلا ام آجلا ، يؤدي مأزق ما بعد الاستقلال هذا الى ادراك ان الاستقلال السياسي الشكلي لا يمنح البلد التابع حرية السعي الى تطوره الوطني ، وبالتالي ادراك ان «مصالح حركة التحرر الوطني مرتبطة ارتباطا وثيقا باحتياجات الثورة الاجتماعية» (٣٥) . وليس من قبيل الصدفة ان تدرك هذا اولا الحركات الثورية في اميركا اللاتينية ، حيث تم الحصول على الاستقلال السياسي الشكلي قبل اكثر من مائة وخمسين عاما ، وحيث وضعت الثورة الكاستروية اساس تحد متناسق للموضوعات الستالينية في صفوف القوى الثورية . ولا شك في ان الثورة الكوبية وبرنامج «التحالف من اجل التقدم» الفاشل كانا حدثين محوريين من حيث المساهمة في تشكيل هذا الادراك .

بدات الثورة الكوبية كمحاولة لحل مشاكل التطور الوطني ضمن اطار بورجوازي ديمقراطي ، ولكنها سرعان ما وجدت ان العمود الفقري للمعارضة التي تقف في وجه اصلاحاتها (خاصة الاصلاح الزراعي) يتشكل من مصالح الشركات الاميركيةوالحكومة الاميركية . ولذا اصبح من الضروري شن نضال من اجل التحرر الوطني كي يصبح ممكنا تنفيذ برنامج الاصلاحات البورجوازية (٣٦) .

غير ان الكوبيين سرعان ما اكتشفوا ان الثورة القومية لا يمكن ان تكون ناجحة الا اذا كانت اشتراكية . وقد جاء هذا الاكتشاف جزئيا لان البورجوازية الوطنية رفضت دعم اصطدام مباشر مع الولايات المتحدة ، وغادرت الائتلاف الثوري لتنضم الى الثورة المضادة ـ واضعة مصلحتها الطبقية فوق ولائها الوطني ـ وجزئيا لان تركيز السلطة الاقتصادية في يد الدولة كان السبيل الوحيد الممكن لشن نضال كهذا (٣٧) .

---

٣٥ ـ «ان أمم آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية التي احرزت استقلالها السياسي تدرك ان السيادة الشكلية ليست كافية لضمان التحرر الكامل ؛ فللوصول الى هذا يترتب القضاء على كل اسباب الانطهاد والاستغلال الامبريالي وتحقيق تحولات عميقة في البنية الاقتصادية والاجتماعية ... ينبغي ان يضاف التحرر الاقتصادي الى التحرر السياسي» . البيان العام لمؤتمر القارات الثلاث (هافانا ، كانون الثاني ١٩٦٦) . انظر كذلك فرانز فانون ؛ معذبو الارض .

٣٦ ـ انعكس الانتقال من مستوى من مستويات النضال الى المستوى التالي في تحويل شعار الثورة من «الحرية او الموت» الى «الوطن او الموت» .

٣٧ ـ لم يعلن كاسترو ان الثورة ثورة اشتراكية الا بعد الغزو الذي تبنته الولايات المتحدة في =

وجاء فشل برنامج «التحالف من اجل التقدم» ليثبت انما بينته التجربة الكوبية ظاهرة لها اهمية قارية : عجز البورجوازية الكوبية عن القيام بثورة بورجوازية قومية او استحالة قيام ثورة بورجوازية على اساس علاقات الانتاج الراسمالي الكولونيالي ــ الجديد في كوبا . ذلك ان واشنطن حاولت عبر برنامج «التحالف» وضع امكانياتها السياسية والمالية خلف برنامج اصلاح اجتماعي واقتصادي بورجوازي ديمقراطي . فاعلن كينيدي : «ان على من يملكون الثروة والسلطة في الامم الفقيرة تحمل مسؤولياتهم . ان عليهم ان يقودوا الصراع من اجل هذه الاصلاحات الاساسية التي لا يمكن الحفاظ على نسيج مجتمعاتهم الا بها» . لكن هذا البرنامج اصطدم بحقيقة قاسية هي ان البورجوازية ليست في المقام الاول مستعدة للتخلي عن امتيازاتها ، كما انها في المقام الثاني ليست على استعداد لتهديد موقعها السياسي والاقتصادي المسيطر باللعب بالنيران الثورية ــ حتى ولو كانت ثورية «ديمقراطية» (٣٨) . والاهم من ذلك ، ان اية محاولة للقيام باصلاحات اساسية حقا تصطدم مباشرة بمصالح الشركات الاميركية في اميركا اللاتينية (٣٩) .

وكما ان عملاء الولايات المتحدة اطاحوا قبل قيام التحالف (١٩٥٤) بحكومة بورجوازية راديكالية تميل الى الاصلاح في غواتيمالا ، كذلك اسقطت انقلابات عسكرية حركتها الولايات المتحدة او دعمتها بحكومات شبيهة عضو في التحالف ، بما في ذلك حكومة جمهورية الدومينيكان (١٩٦٣) والبرازيل (١٩٦٥) . كذلك حال الكونغرس الاميركي دون اصلاح زراعي في هندوراس مس مصالح شركة «يونايتد فروت كومباني» الاميركية، بينما سحق مشاة البحرية الاميركية ثورة فيالدومينيكان (١٩٦٥) لاعادة حكومة التحالف التي اطيح بها . وقد بين فشل التحالف في الممارسة (تم التخلي عن برنامج الاصلاحات ، ولم يجر حتى الاقتراب من اهداف النمو الدنيا) انه ليس هناك من بديل «ديمقراطي» تدعمه الولايات المتحدة للثورة

= نيسان ١٩٦١ . ولا شك في ان سرعة الثورة الاشتراكية في كوبا وسلميتها نسبيا ودفاع الغالبية الساحقةمن الشعب الكوبيعنها اشارت «ان ثورةاجتماعية لها طابعاشتراكي محدد لمتكن مجرد نتاج ايديولوجي» كما يسمى بعض النقاد الى القول ، «بل كانت رد فعل واقعي موثوق على واقع اجتماعي». جيمس اوكونر ، حول الاقتصاد السياسي الكوبي . ويشير اوكونر الى ان تشريك الاقتصاد الكوبي الاحتكاري الراكد كان «ضروريا لتطوير الجزيرة اقتصاديا واجتماعيا» وبهذا المعنى كان «محتوما» . انظر كذلك اوكونر ، التنظيم الصناعي في كوبا القديمة وكوبا الجديدة .

٣٨ ــ هكذا ضمت الولايات المتحدة ذاتها الى التحالف القوى الدكتاتورية والاوليغاركية في القارة.

٣٩ ــ اتخذت هذه الشركات خطوات تضمن قدر الامكان الا تؤدي صياغة البرنامج الى تهديد مصالحها . فمثلا لم يكن ممكنا استخدام اموال «التحالف» لشراء ارض زراعية)اي من اجل الاصلاح الزراعي(. انظر غيراسي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٦-٢٦٧ . وكذلك من يالطه الى فيتنام ، الفصل الثالث عشر .

الكاستروية ، وان الثورة القومية يجب ان تكون اشتراكية حتى يتيسر لها النجاح.

ولم يعن هذا ان الثورة الاميركية اللاتينية القادمة ستقوم تحت راية اشتراكية وليس تحت راية وطنية وبورجوازية ـ ديمقراطية . بل عنى ان الديمقراطيـــــة وتقرير المصير ، حتى بأشكالهما البورجوازية المحدودة ، لم يعد ممكنا تحقيقهما في صيف عام ١٩٦٧ :

ظل شروط انتاج بورجوازية ، اي دون الخروج على نظام «العالم الحر» الاميركي ، نظام راس المال العالمي (٤٠) . هذا هو المعنى الملموس «للافلاس التاريخي» الثورة البورجوازية الديمقراطية في العالم المتخلف في الحقبة الراهنة .

ـ ٥ ـ

لم يتجل التفسخ والفشل الامبريالي للنظام الرأسمالي بأوضح مما تجلى في الازمات التي تعاني منها القوة المسيطرة عليه ، ولم ينطرح التساؤل حول مستقبل هذا النظام بأحدّ مما انطرح عبر هذه الازمات . ففي عام ١٩٤٥ ، قدمت الولايات المتحدة الالهام لعالم بورجوازي منحط المعنويات راى في برنامج «نيوديل» الاميركي للرخاء وفي السياسات الليبرالية الاميركية ونظرتها المساواتية الامل في مستقبل راسمالي افضل . ولكن ما ان مضى اكثر من عقدين بقليل ، حتى اعترف اخلص اتباع النظام الملتزمين به بخيبة الامل المريرة في أداء اميركا والاحساس بالامل المفقود في مستقبلها . فاعلن رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ فـــي صيف عام ١٩٦٧ :

«ان جزءا كبيرا من العالم يشعر الان بالنفور من اميركا ومما يبدو ان اميركا تمثله. فنحن في شؤوننا الخارجية وفي حياتنا الداخلية نقدم صورة عنف ... اذ اننا في الخارج نخوض حربا وحشية فاشلة ضد فقراء شعب صغير متخلف . واما فـي الداخل ـ والى حد بعيد نتيجة خمسة وعشرين عاما من الانشغال بقضايا خارجية ـ فمدننا تتفجر في احتجاج عنيف ضد أجيال من الحيف الاجتماعي . ان اميركا التي كانت قبل بضع سنوات فقط تبدو للعالم نموذجا للديمقراطية والعدالة الاجتماعية اصبحت رمز العنف والقوة المنفلتة» (٤١) .

---

٤٠ ـ «... ان ضرورة ، بل في الواقع حتمية الثورة الاشتراكية ، لا في مستقبل غامض بعيد بل في المرحلة التاريخية التالية في اميركا اللاتينية ، تضرب جذورها في الواقع المتخلف الذي فرضته الامبريالية في المنطقة . وهذا لا يعني ان الثورة الاشتراكية آتية غدا ، او في السنة القادمة ، في اميركا اللاتينية: فالتغيرات التاريخية العظيمة لا تحدث على هذا الحد. انه يعني ببساطة ان اي نوع آخر من الثورة غير ممكن في اميركا اللاتينية . وأن كل الثوريين الجديين لا بد ان يعوا ذلك عاجلا ام آجلا» . هيوبرمان وسويزي ، تعليق على مؤتمر القارات الثلاث ، منتلي رفيو ، نيسان ١٩٦٦ .

٤١ ـ فولبرايت ، المجتمع العظيم مجتمع مريض ، نيويورك تايمز ، ٢٠ آب ١٩٦٧ .

ان هذه الكلمات تحتفظ بآثار من تفاؤل شجاع يليق بموال قديم . فهو لا يعزو الازمات المحلية الطاحنة في العلاقات العرقية والتطور المديني والتلوث العام للبيئة الانسانية الى نظام من توزيع الموارد لاعقلاني يتسم بالظلم ويقوم على المراكمة الخاصة لراس المال الاجتماعي ، بل يعزوها جميعا الى «الانشغال بقضايا خارجية» . ان لفي هذا جهلا بجوهر النظام ذاته . ذلك ان تركز قوة الشركات واتساعها خلف الحدود القومية والمحلية هو حجر الاساس في راسمالية «الاقتصاد الحر» . ليس النظام منغمسا في الاسواق العالمية والسياسة العالمية فحسب ، انه نظام عالمي ايضا . وحتى لو كان ممكنا اتخاذ قرار اجتماعي بالتخلي عن الاسواق الخارجية مع الاحتفاظ بالعلاقات الراسمالية في الداخل ، فان ذلك لا يعني اكثر من اختيار ان تصبح الولايات المتحدة تابعا كولونياليا بدلا من قوة امبريالية. فليس هناك ضمن الراسمالية من سبيل الى تجنب المنافسة الامبريالية ، كما انه ليس هناك من سبيل لاجتناب الالتزامات السياسية والعسكرية التي يستتبعها الصراع الامبريالي .

وبالاضافة الى ذلك ، فان افتراض امكان اعادة توزيع الموارد ضمن نطاق الراسمالية طبقا لمعايير اجتماعية بدلا من معايير السوق ، وعلى نطاق يكفي لمجابهة الازمة الاجتماعية المتراكمة ، هذا الافتراض يقوم على تفكير استرغابي مماثل يعاكس التجربة التاريخية الراسمالية كلها ، كما يعاكس منطق النظام ذاته . فتاريخيا ، لم تستطع الدولة الراسمالية قط ، سواء أكانت تحت حكم راديكاليين اشتراكيين ديمقراطيين ام تحت حكم محافظين ، ان تعبىء الموارد الضرورية حتى لبدء عملية اعادة بناء اجتماعية حقيقية . وقد ثبت ان الحرب او الاعداد للحرب هما برنامجا الانفاق الضخمان الوحيدان اللذان ترغب الدول الراسمالية في تنفيذهما او تستطيعه (٤٢) .

فمثلا ، قبل تصعيد حرب فيتنام وما تبع ذلك من زيادة الانفاق الحكومي على الحرب من أقل من ٥٠٠ مليون دولار الى اكثر من ٢٠ بليون دولار ، رفضت النداءات التي طالبت بتوسيع البرنامج الحكومي لمكافحة الفقر على اساس عدم توفر الاموال اللازمة لذلك . وبالمثل ، فان ادارة كينيدي ذات التوجه الكينزي، التي زادت الموازنة العسكرية بنسبة عشرين بالمائة خلال السنتين الاوليين لتسلم مقاليد الحكم ، رفضت خططا لحفز الاقتصاد الواهن عبر زيادة الانفاق الاجتماعي تحت ضغط من الشركات، واستبدلته بتخفيض ضريبي (٤٣) (وفوق ذلك كان اثر هذا التخفيض اعادة توزيع المداخيل لمصلحة الطبقات الاغنى) . ذلك ان المصلحة الحيوية للشركات تقضي ان يظل الانفاق الحكومي غير الدفاعي على الرفاه الاجتماعي مقتصرا على الحد الادنى .

---

٤٢ ـ هناك برنامج انفاق حكومي عام اخر ، وخاصة في الولايات المتحدة ، وهو بناء الطرق . وهذا برنامج ترضى عنه ، لاسباب واضحة ، الشركات الاحتكارية .

٤٣ ـ هيوبرمان وسويزي «ازدهار كينيدي ـ جونسون» .

«وما دامت مستويات السيطرة على الجهاز الانتاجي في ايديها (اي الشركات) ، فما من برنامج اقتصادي حكومي سيكون له حظ النجاح الا برضاها» (٤٤) .

ان القوى البنيوية التي تقوم بتشكيل سوء توزيع الموارد في المجتمع الراسمالي وتحول بفعالية دون اتخاذ الحكومة الفيدرالية لاجراءات علاجية قوية الى درجة جعلت الناطقين الليبراليين باسم النظام ، الذين يستطيعون ان يشعروا بدرجة ما بعظم الازمة الاجتماعية التي تلوح في الافق ، جعلتهم يبداون في ادراك ان حل الازمة ضمن حدود النظام القائم ليس ممكنا حقا . هكذا قال احد المراسلين حسني الاطلاع :

«في حين يستمر كينيدي ومعاونوه في الحديث علنا عن التقدم الذي احرزوه ، فانهم في السر بدأوا يخشون ان تكون الشرور التي يشكون منها لا يمكن علاجها ضمن الشكل القائم للمجتمع الاميركي وميزان القوة السياسية الراهن» (٤٥) .

ولا شك في ان احدى الازمات التي سببت للرئيس ومستشاريه ابلغ القلق هي تعاظم موجة التمرد الاسود ، ذلك التمرد الذي يمثل نتيجة مباشرة للاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي الذي عانى منه الشعب الاسود مدة طويلة والوضع الكولونيالي لأحياء السود ونظام الارهاب الذي اجبرت قطاعات واسعة من الجالية السوداء على العيش في ظله منذ اعادة البناء . ان الطابع العميق الجذور لهذا الاضطهاد ، الذي يتمثل بفشل الطبقة الحاكمة في الاستجابة لاكثر مطالب الحركة السوداء الاقتصادية والسياسية اساسية ، يتضح بجلاء من استعداد الطبقة الحاكمة النشط لتبديد البشر والموارد في حربها المجرمة للحفاظ على حدود «الامبراطورية» الاميركية في آسيا . وفي الواقع انكشفت الاولويات الاساسية للنظام الاجتماعي الاميركي العرقي والامبريالي عبر نسبة المبالغ المخصصة من جهة «للحرب ضد الفقر» محليا والمخصصة من جهة أخرى للحرب ضد فلاحي فيتنام . فمقابل كل اربعة وخمسين دولارا تجمعها الحكومة الفيدرالية (تحت ضغط الاحتجاج الجماهيري) للتخفيف من محنة عامل اسود مضطهَد مستغل في اميركا ، يخصص ٣٥٠ الف دولار لقتل فلاح اصفر في دلتا الهند الصينية . وينفق من الاموال سنويا على ذخائر العمليات العسكرية الارضية وحدها في فيتنام أكثر مما ينفق على برنامج الحرب ضد الفقر كله في الولايات المتحدة . وبينما ابدت واشنطن استعدادها لسفك انهر من الدماء من أجل الدكتاتورية ـ الدمية في سايغون ، لم يتحرك اصبع رسمي ابيض واحد للدفاع عن

---

٤٤ ـ «ان لهم من القوة ما يمكنهم من تخريب السياسات التي لا يرضون عنها .. فهم يستطيعون خلق كساد . وبكلمات اقتصادية اكثر اورثوذكسية ، يمكن ان تهتز «ثقتهم» الى حد يتضاءل معه الشراء ليصبح من اليد الى الفم ويتقلص الطلب الى مستوى الكساد» . بول سويزي ، الحاضر كتاريخ ، ص ٣٦٦ .

٤٥ ـ جيمس رستون، نيويورك تايمز ، ٢٦ تشرين الاول ١٩٦٣ .

حرية وحياة الاميركيين السود في أكسفورد مسيسيبي . ان سلم الاولويات هذا هو ذاته تحريض على التمرد ، فهو يبين ان النظام افسدته ضخامة الجهد الذي ينفقه للحفاظ على نفسه وعلى امتيازاته الطبقية في عهد فقد هذا النظام فيه كل قوة على النضال من اجل العدالة الانسانية والحرية ضمن اطاره الدستوري ذاته .

وعندما اصبح رد الفعل الرسمي على انتفاضات احياء السود يفصح عن نفسه اكثر فاكثر على شكل احتلال عسكري للمدن الاميركية ، بدأ تماثـل الاضطهاد والتمرد على المستويين القومي والعالمي يشحذ وحدة الوعي والهدف بين القـوى المختلفة المناضلة من اجل تقرير المصير والتحرر . فأعلن مالكولم إكس ، القائـد الاميركي الاسود ، في آخر سنوات حياته :

«اننا نعيش عهد ثورة ، وتمرد الاميركي الزنجي جزء من الانتفاضة ضد الاضطهاد والاستعمار التي تسم هذا العهد . ان من الخطأ تصنيف ثورة الزنوج على انهـا ببساطة صدام عرقي بين اسود وابيض او على انها مشكلة اميركية محضة . بـل بالعكس ، اننا اليوم نشهد ثورة المضطهد (بفتح الهاء) ضد المضطهد والمستغل (بفتح الفاء) ضد المستغل» (٤٦) .

ان الارتباط الذي يتزايد وضوحا بين بنى الاستغلال والاضطهاد القوميـة والعالمية (٤٧) والتضامن المتنامي بين القوى الثورية التي تتحدى هذه البنى اكدا في آن معا الطابع العام والاهمية التاريخية للأزمة المتعاظمة . فالازمـة التي تضرب جذورها في تناقضات النظام الرأسمالي العالمي الاجتماعية والاقتصادية التي لا حل لها عبرت عن نفسها في النطاق السياسي على شكل ازمة تحيق بالنظام الديمقراطي ذاته . ذلك ان اللجوء المتزايد للعسكرية والعنف القمعي ، وما صاحب ذلك مـن تضخم اجهزة السيطرة والسلطة المحلية، عكس عجز النظام عن خلق مصادر لتجدده، وطرح في الوقت ذاته تحديا فعالا لمفهوم السيادة الشعبية ، ذلك المفهوم الذي يشكل المبدأ الذي يمد الحكم والنظام البورجوازيين بمشروعيتهما .

ولا شك في ان الاسس العالمية للأزمة ، التي تجلت بكثافة ضمن الاطار الاميركي القومي ، وجدت تعبيرا عنها في ان الضغط المتعاظم الذي يتعرض له النظـام الدستوري في الولايات المتحدة جاء نتيجة لضرورات الحرب في الخارج . هكذا كان على رئيس الولايات المتحدة ، كي يقوم بتدخل في فيتنام لا يمكن ان يحظى بموافقة شعبية ، ان يضع الكونغرس والشعب امام امر واقع ويشن المرحلة المكشوفة من العدوان الاميركي (قصف الشمال ، نزول قوات اميركية ضخمة في الجنوب) «بصورة

---

٤٦ ـ مالكولم اكس يتكلم ، ص ٢٣٢ . انظر كذلك الدريدج كليفر ، مسألة الارض .

٤٧ ـ انظر مثلا مقالتي الدريدج كليفر «القانون المحلي والنظام العالمي» .

غير شرعية» ودون اعلان الحرب (٤٨). وبالاضافة الى ذلك، كان عليه احتواء مقاومة للتجنيد لم يسبق لها مثيل تاريخيا ، مقاومة ضربت بعنف أسس السلطة الحكومية ذاتها . وفي حين كان الاثر المباشر لهذه الاحداث زعزعة الاجماع السياسي الذي حكم السياسة الخارجية الاميركية منذ الحرب العالمية الثانية ودعمهـــا ، الا ان مضامينها كانعكاس لقوى اساسية ووجهات طويلة الامد كانت اكثر اهمية بكثير .

ان احد الضغوط التي أدت تاريخيا الى ظهور الفاشية في القوى الراسمالية المتأخرة هو عدم اتفاق الحكم البرلماني وحتى الدستوري مع متطلبات سياســـة امبريالية عسكرية . وقد كانت القوى الامبريالية الليبرالية ، وعلى الاخص الولايات المتحدة ، قادرة قبل الحرب الباردة على القيام بتدخلاتها دون الحاجة الى أكثر من الحد الادنى من التعبئة العسكرية . ونتيجة لذلك ، ظلت مكبوتة بفعالية تلـــك الصدامات المحتملة بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية ، بين الموافقة الشعبية على السياسة التي يتطلبها نظام ديمقراطي من جهة ، والحروب التي تشن لغايات لصوصية لحساب قطاع صغير ، وان يكن بالغ القوة ، من السكان من جهة اخرى . لكن القوى الليبرالية ، وعلى الاخص الولايات المتحدة في موقعها المسيطر الجديد، خسرت هامش المناورة هذا مع ازدياد قوة الحركة الاشتراكية العالمية وتعاظم موجة الثورات القومية والشيوعية الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية . فكـي يتم قمع الثورات عالميا واضعاف او ابطاء تطور الدول الاشتراكية والحفاظ على الطلب المحلي وسط اتجاهات الركود التي يتمخض عنها نظام اقتصادي يزداد احتكارية ، اصبح من الضروري تعبئة قوات عسكرية بصورة دائمة وعلى نطاق هائل يتضخم باستمرار. وقد ادت هذه التعبئة الى خلق ضغوطات اقتصادية جديدة قوية سيئة الاثر (تضخم محلي ، تدفق الذهب الى الخارج بشكل خطير) ، كما سرعت الاتجاه الفاشي ضمن الاقتصاد(٤٩) جاعلة اكثر القطاعات الاقتصادية تقدما تقنيا تقع تحت سيطرة شبكة ضخمة من المصالح العسكرية ـ الصناعية .

وفي الوقت ذاته ، فان يأس الطبقات الراسمالية الحاكمة المتزايد امام التحدي الاشتراكي الصاعد جعلها اكثر ميلا الى التدخل العسكري المباشر حيثما ظهـــرت الثورة . فكانت النتيجة ان احتضنت واشنطن المبدأ المضاد للثورة احتضانا مكشوفا

---

٤٨ ـ انظر «السياسة الاميركية تجاه فيتنام» ، من تاليف لجنة من رجال القانون بحثت السياسة الاميركية في فيتنام ، نيويورك ١٩٦٥ . بشأن تقلص دور الكونغرس ، انظر فولبرايت ، المصـــدر السابق : الفصل الثاني . تجدر الملاحظة هنا ان القليل جدا مما فعله جونسون ، من حيث خداع الشعب الاميركي والكونغرس وخرق ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي خلال اعماله في فيتنام ، يمكن ان يوصف بانه لم يسبق له مثيل . فنظرة واحدة الى ما فعله سلفه ، كينيدي ، عند غزو كوبـــا يجعل ذلك امرا واضحا تماما ويؤكد ان هذه الظواهر لها طابع الوجهة .

٤٩ ـ نيبورغ ، باسم العلم ، وخاصة الفصل العاشر .

وصاغت برنامجا هائلا «مضادا للانتفاضة» يربط برامج «المعونــــــة» و«الاعلام» و«الدفاع» بجهاز متضخم لاعمال التخريب والتدخل . وفي قلب هذه الشبكة من المؤسسات تقف وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ، وهي هيئة سرية توظـــف عشرات الالوف من العملاء وتنفق ميزانية بالغة الضخامة للسيطرة على منظمـــات التغيير الاجتماعي الرئيسية في الخارج والداخل معا (٥٠) .

وكما ان عسكرة مساحة واسعة من النظام الاقتصادي الاميركي عززت الى حد كبير النزعات البنيوية نحو قيام دولة فاشية ، كذلك خلق البرنامج «المضـــــاد للانتفاضة» ، بشبكة مؤسساته السرية المتزايدة التي تعمل على جميع مستويات الحياة السياسية والثقافية ، زخما مماثلا باتجاه السيطرة الكلية التوتاليتارية . ذلك ان النظرة والوسائل التي استخدمت للحفاظ على الامبراطورية في الخارج لم يكن ممكنا عزلها عن وسائل معالجة الصدام الاجتماعي والحفاظ على امبراطورية الشركات في الداخل ، خاصة وأن النضالات الاجتماعية لم تكن هي ذاتها متميزة.

وبالمثل لم يكن بالمستطاع حل الائتلاف العرقي الحاكم ، الذي اعتمدت عليـــه سياسة الولايات المتحدة الامبريالية عبر القرن(٥١)، لتسريع الاصلاح المحلي وتخفيف حدة الحركة السوداء في الولايات المتحدة في وقت كانت فيه الضغوط تتعاظم على امبراطورية ما وراء البحار . هكذا اصبح مضمونا بقاء قاعدة سياسية فاشية في الجناحين اليمينيين للحزبين الجمهوري والديمقراطي . وهكذا ايضا لم يكن تسليح الشرطة المحلية والحرس القومي تسليحا هائلا غير الوجه الآخر للقمع المكثف ردا على مطالب التغيير الاجتماعي في الخارج .

ولربما كان يمكن على المدى القريب انعكاس السبيل الذي تشير اليه هـــذه التطورات لو كان التوسع الاقتصادي للنظام المحلي مضمونا . لكن النظام الاقتصادي

---

٥٠ ـ ان وكالة الاستخبارات المركزية ، بوصفها الاداة الاساسية للحفاظ على امبراطورية ما وراء البحار ، تدار على اعلى المستويات من جانب اقوى وأحذق قطاع من قطاعات الطبقة الحاكمة . ومن بين الشركات والمؤسسات التي لعب مديروها دورا رئيسيا في خلق وكالة الاستخبارات المركزية : فورد فاونديشن ، روكفلر فاونديشن ، روكفلر بروذرز فند ، ستاندارد أويل ، غولف أويل ، كورنينـــغ غلاس ، يونايتد فروت ، وشركات القانون في وول ستريت مثل سوليفان وكرومويل ، ميلبانك وهوب وهادلي وتويد . وهذه القائمة ليست الا على سبيل المثال .

٥١ ـ يعود هذا الائتلاف في شكله الراهن الى الحلول الوسطية التي تم التوصل اليها عام ١٨٧٧ بعد الحرب الاهلية ، عندما تحرك رأس المال الصناعي الشمالي لينقذ الارستقراطية الزراعية من اعادة بناء اجتماعية راديكالية . وليست هناك دراسة مفصلة لدور الائتلاف في التوسع الاميركي الامبريالي ، لكن غلبة الجنوبيين في الجيش وفي لجان الكونغرس الرئيسية التي تعالج الشؤون الخارجيـــة والعسكرية دليل واضح على اهمية هذا الدور . بصدد تكون الائتلاف ، انظر بارنغتون مور ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ـ ١٤٩ .

المحلي ليس قائما في فراغ ، ولم يكن توافق تضييق القوى عالميا مع تضييق هامش المرونة في الداخل مجرد صدفة . فاشتداد منافسة القوى الراسمالية المتجددة في اوروبا الغربية واليابان على أسواق تتقلص باستمرار امام الاتساع الهائل للقوى الانتاجية ، واشتداد ضغوط الطبقات العاملة الصناعية باتجاه رفع مستويات الاجور واقامة سد سياسي في وجه البطالة الواسعة النطاق ، وتفاقم التضخم والازمات النقدية ـ كلها تشير الى فترة اختلال متزايد تعانيه الراسمالية العالمية ، وما ينجم عن ذلك من فقدان الاختيارات المفتوحة لمعالجة الازمات الاجتماعية المتراكمة ، وبالتالي امكانية تخلي الطبقات الحاكمة المحلية عن العملية الديمقراطية .

ان الازمة المتزايدة للسلطة الديمقراطية في النظام الراسمالي العالمي تطرح المسائل المركزية في النطاقين القومي والعالمي معا ، وذلك بالضبط لان هذه الازمة انما تعبر عن ازمة النظام الاجتماعي الاعمق وعن احتضار المرحلة البورجوازية . فهناك من جهة ظلم ولا عقلانية نظام ، الانتاج والتوزيع الاجتماعيان فيه لا يخضعان لسيطرة اجتماعية . وهناك من جهة اخرى الشرور الاخلاقية والمخاطر العسكرية الناجمة عن سياسات خارجية تقوم على التوسع وراء البحار والقمع المسلح والثورة المضادة العالمية لصالح المصالح المالية ـ الشركاتية القويمة .

ولا شك في ان ازمة الديمقراطية ، اذ تطرح المسائل المركزية للصراع العالمي على المستوى القومي وتربط النضال العالمي من اجل تقرير المصير بالسعي الداخلي الى المساواة الاجتماعية والسيطرة الاجتماعية ، انما تبدو اكثر فأكثر على انها الازمة الثورية للحقبة الراهنة . وعلى حد قول كارل اوغلسبي : «ان السؤال الوحيد الاساسي الذي ينبغي على الاميركيين ان يسألوه هو ما اذا كانوا يريدون الحرية السياسية» والسيادة لانفسهم . هذه هي المسألة السياسية «الاسمى» ، «المسألة التي تندرج تحتها كل مسائل السياسة الخارجية والمحلية» . ذلك انه اذا اختارت اميركا الحرية ، فلا يمكن لاميركا التوتاليتارية ان تكون ، وبدون اميركا توتاليتارية لا يمكن ان تكون امبراطورية اميركية (٥٢) .

ان حركة النضال من اجل سيادة الشعب ضمن الامة الامبريالية تتفق مع النضال من اجل تقرير المصير على المستوى العالمي . وكما ان مطلب السلطة الديمقراطية محليا يعني المطالبة بالاطاحة بطبقة الشركات الحاكمة وجعل الجهاز الانتاجي يستجيب للاحتياجات الاجتماعية (اي تشريك وسائل الانتاج) كذلك فان الشرط المسبق عالميا لتحقيق السيادة الديمقراطية والتعايش بين الدول يعني حل «حكومة» الشركات العالمية التي صادرت سيادة الامم لتستولي على ثروات العالم .

ان النضال الذي بداه البلاشفة قبل اكثر من نصف قرن لا يزال في مراحله الاولى ، بل هو بمعنى من المعاني لا يزال قيد البدء . لقد كانت عملية استيقاظ وعي

---

٥٢ ـ الاحتواء والتغيير ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

الشعوب ، وخاصة في الغرب ، على نكبة استمرار حكم وسيطرة الراسمالية عملية طويلة متقطعة . لكن التناقض بين الوسائل والغايات وصل في المرحلة الراهنة الى أبعاد لم يكن ممكنا تخيلها حتى الان. والآن اكثر من اي وقت مضى، اصبح العيش في ظل الراسمالية عيشا ذا طابع مؤقت . ذلك ان سمات حكم الراسمالية العالمية ، من استمرار اضطهاد الطبقة والامة والعرق على مدى العالم والتبديد الهائل والتعاسة الانسانية التي لا توصف والدمار الذي لا ينتهي والاعداد للدمار والتهديد الدائم للنظام الديمقراطي ، في هذه الحقبة الاكثر تقدما تقنيا و«استنارة» والاكثر ثراء ماديا ، يتعرض الوجود الانساني ذاته للتهديد . ان النظام الوحشي ، نظام المنافسة الامبريالية والاستغلال العالمي ، نظام التدخل العسكري والحروب المضادة للثورة ، انما يتهدد في عصر الاسلحة النووية والصواريخ العابرة القارات الجنس البشري كله باحتمال الانزلاق الى البربرية .

ان التحرير لم يعد ، وليس بامكانه ان يكون ، اهتماما قوميا ، فأبعاد النضال، كما رآها لينين والبلاشفة بوضوح ، أبعاد أممية ، وسبيل هذا النضال هو الثورة الاشتراكية .

المراجع الاجنبية

Alperovitz, Gar, Atomic Diplomacy, Simon & Schuster, New York; Secker & Warburg, London, 1965.

Anderson, Perry, and Blackburn, Robin, Towards Socialism, Fontana , London, 1965; Cornell, Ithaca, 1966.

Baran, Paul, The Political Economy of Growth, Monthly Review Press, New York and London, 2nd Edition, 1962.

Baran, Paul, and Sweezy, Paul, Monopoly Capital, Monthly Review Press, 1966 .

Braverman, Harry, The Future of Russia, Macmillan, New York, 1963.

Carr, E. H., A History of Soviet Russia, Penguin, Macmillan, London and New York.

Carr, E. H., What Is History ?, Penguin, 1964.

Deutscher, Isaac, The Prophet Armed, The Prophet Unarmed, The Prophet Outcast, Oxford University Press; Vintage, New York.

Deutscher, Isaac, Stalin, 2nd edition, Penguin, 1966; Oxford University Press, 1967.

Deutscher, Isaac, The Unfinished Revolution, Oxford University Press, 1967 .

Dobb, Maurice, Political Economy and Capitalism, Routledge, London , 1937 .

Dobb, Maurice, Studies in the Development of Capitalism, Routledge , London, 1946.

Domhoff, G. wm., Who Rules America ?, Prentice-Hall, New Jersey , 1967 .

Fanon, Frantz, The Wretched of the Earth, Penguin, 1967.
Fitch, R., and Oppenheimer, M., Ghana: End of an Illusion, Monthly Review, New York, 1966.
Gardner, Lloyd C., Economic Aspects of New Deal Diplomacy, University of Wisconsin Press, 1964.
Gardner, Lloyd C., A Different Frontier, Quadrangle, Chicago, 1966.
Gorz, Andre, Strategy for Labor, Beacon, Boston, 1967.
Gruber, Helmut, International Communism in the Era of Lenin, Fawcett, 1967.
Horowitz, D. (ed.), Containment and Revolution (1967), The Corporations and the Cold War, Monthly Review, 1969.
Horowitz, D. (ed.), Marx and Modern Economics, MacGibbon & Kee , London, 1968.
Lenin, V. I., Collected Works, volumes I-33.
Luxemburg, Rosa, The Russian Revolution and Leninism or Marxism ?, University of Michigan Press, Ann Arbor.
Magdoff, Harry, Economic Aspects of U.S. Imperialism (pamphlet), Monthly Review Press, 1966.
Mandel, Ernest, Marxist Economic Theory, Merlin, London; Monthly Review, New York, 1968.
Miliband, R., and Saville, J., The Socialist Register 1964 - 1967, 4 volumes, Merlin, lLondon; Monthly Review Press, New York, 1964-7.
Mills, C. Wright, The Power Elite, Oxford University Press, 1956.
Moore, Barrington, JNR. Social Origins of Dictatorship and Democracy, Allen Lane, London; Beacon, Boston, 1967.
Neumann, Franz, Behemoth, Gollancz, 1942.
Norman, E. H., Japan's Emergence as a Modern State, Institute of Pacific Relations, 1940.
Perlo, Victor, The Empire of High Finance, International Publishers, New York, 1956.
Preobrazhensky, E., The New Economics, Oxford University Press, 1965.
Robinson, Joan, An Essay on Marxian Economics, Macmillan, 1942.
Sartre, Jean-Paul, Search for a Method, Knopf, New York, 1964.
Sweezy, Paul, The Theory of Capitalist Development, 2nd edition, Monthly Review Press, New York; Dobson, London, 1962.

Trotsky, Leon, Permanent Revolution and Results and Prospects, Pioneer, New York, 1967.

Trotsky, Leon, The History of the Russian Revolution, Gollancz, London, 1934 .

Trotsky, Leon, The Third International After Lenin, Pioneer, 1957.

Trotsky, Leon, The Revolution Betrayed, Pioneer, New York, 1945.

Williams, Wm. A., The Tragedy of American Diplomacy, Revised Edition, Delta, New York, 1962.

فهرست

Aram Kerkuky
Mouyn

هذا الكتاب

في هذه الدراسة الاخاذة والنافذة للصراع العالمي المعاصر ، يذهب المؤلف – وهو دكتور في علم الاجتماع وصاحب عدد من المؤلفات التي كان لها كلها صدى واسع – إلى أن مآل هذا الصراع يتحدد إلى حد بعيد بمصير الثورة في الاتحاد السوفياتي وبحلول الولايات المتحدة محل بريطانيا كدولة قائدة للنظام الرأسمالي العالمي أخذت على عاتقها مهمة قيادة الثورة المضادة في العالم ، وفي العالم الثالث بوجه خاص .

وفي هذه الحرب الطبقية الجديدة على مستوى العالم ، يؤكد هورويتز أن طريق النصر هو الثورة الاشتراكية لا على صعيد قومي فحسب ، بل أيضاً وبالأساس على الصعيد الأممي .

